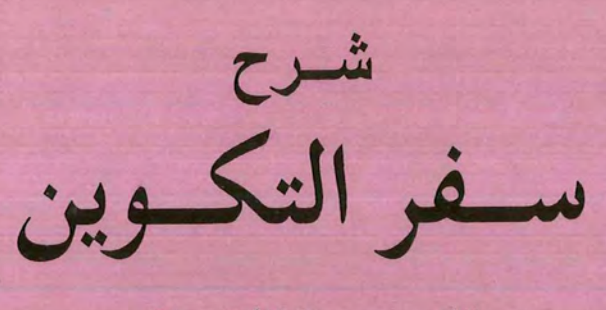






للقديس يوحنا الذهبى الفم

إعداد
القس أغسطينوس البرموسى



دير البرموس

سلسلة كنوز مخطوطات البرموس

(٢)

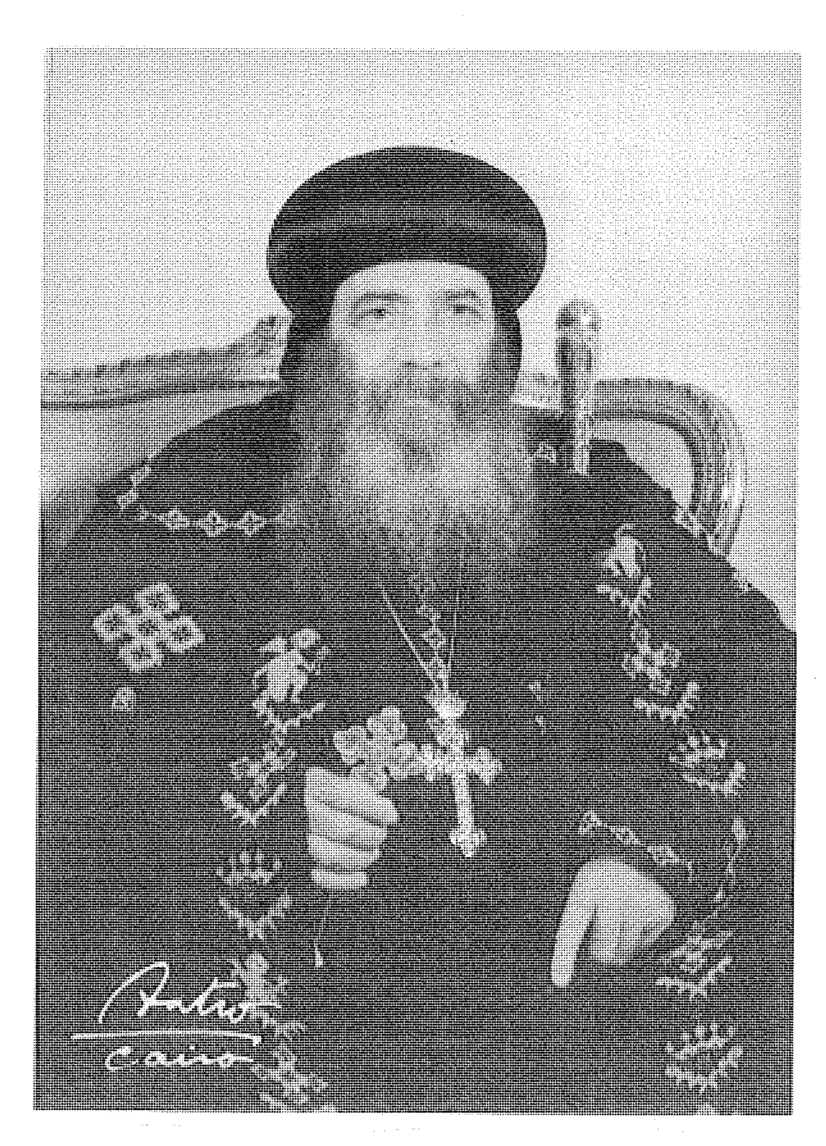
شــرح
سـفر التكـوين

للقديس يوحنا الذهبى الفم

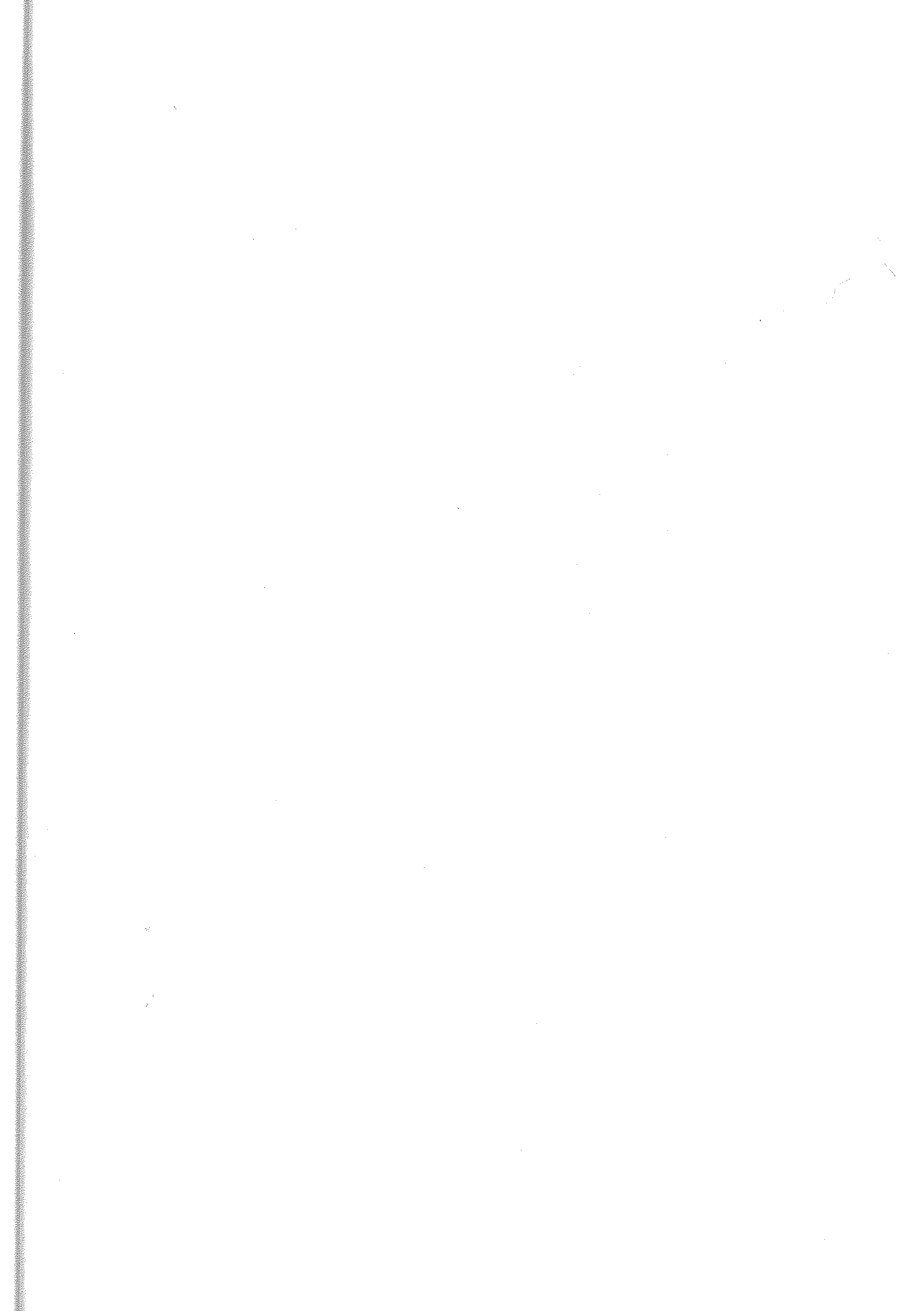
إعداد

القس أغسطينوس البرموسى

الكتـــــاب : شرح سفر التكوين للقديس يوحنا الذهبى الفم
إعــــــداد : القس اغسطينوس البرموسى
جمع بالكمبيوتر : ام . سى . للتجهيزات الفنية
الطبــــعــــة : الأولى يناير ١٩٩٩
المطبــــعــــة : دار نوبار للطباعة
رقـم الايــداع : ٦٧٢٧ / ١٩٩٩
الترقيم الدولى : X - 79 - 5319 - 977



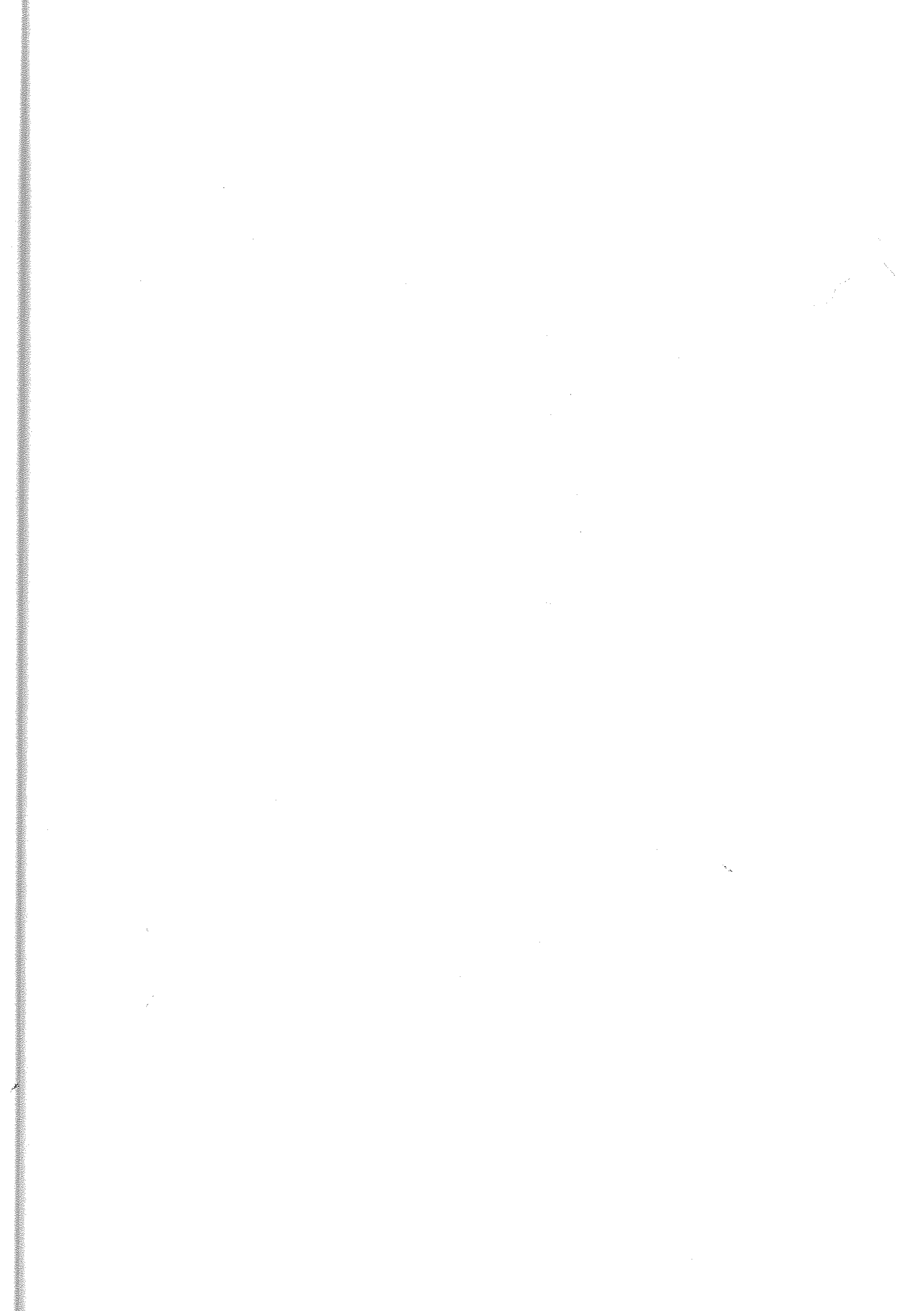
قداسة البابا شنوده الثالث





نيافة الأنبا ايسوذورس

أسقف ورئيس دير السيدة العذراء براموس



المقدمـــة

القارئ الحبيب :

من « سلسلة كنوز مخطوطات البرموس » صدر كتاب شرح ايام الخليقة الستة للقديس باسيليوس الكبير وخِلقة الانسان للقديس غريغوريوس أسقف نيصص .

والكتاب الذى بين يديك الآن هو اصلاً مخطوطة بعنوان « تفسير سفر التكوين للقديس يوحنا الذهبى الفم » ، قمت بتنقيحها وعرضها كما سترى .

وفى هذا الكتاب ستجد شرحا لسفر التكوين آية آية ، باسلوب بسيط يخدم المعنى فقط ، وبتحليل منطقى للأحداث ، فضلاً عن تدفق المعلومات وحيويتها ، وهذا كله بالطبع من خصائص اسلوب القديس يوحنا الذهبى الفم فى كتاباته .

ولكى تكون الفائدة كاملة ، رأيت أن يبدأ الكتاب بتعريف بالقديس يوحنا الذهبى الفم ، وبتعريف بسفر التكوين .

وبمشيئة الرب سيكون الكتاب القادم عن شرح انجيل متى للقديس يوحنا الذهبى الفم .

الرب يبارك هذا العمل بصلوات قداسة البابا شنوده الثالث وشريكه فى الخدمة الرسولية الأنبا ايسوذورس أسقف ورئيس دير البرموس ، ولربنا كل المجد آمين .

القس أغسطينوس البرموسى

الفصل الأول

تعريف بالقديس يوحنا الذهبى الفم

١ - الذهبى الفم من مواليد إنطاكية سنة ٣٤٧ [١] :

ولد القديس يوحنا الذهبى الفم فى مدينة إنطاكية بسوريا سنة ٣٤٧ من اسرة شريفة وكان أبوه سيكندس قائداً فى الجيش الرومانى ، وأمه انثوسا من العائلات الكبيرة فى المدينة .

توفى والده وهو لم يخرج بعد من المهد ، فعكفت والدته على تربية طفلها الذى أصبح محط آمالها وأحلامها .

شب يوحنا فأرسلته أمه إلى أعظم مدارس تلك العاصمة فحفظ العلوم على يد ليبانيوس الفيلسوف ونبغ فيها نبوغاً فريداً فنال أعلى الشهادات فى الفصاحة والبيان .

٢ - الذهبى الفم راهب ناسك :

عزم يوحنا على ترك العالم والتفرغ لعبادة الله وخدمته وأخذ على نفسه أن يترك البيت ووالدته ويذهب إلى احد الأديرة ليتنسك هناك مع باسيليوس صديقه ، فذهب إلى دير كاسوس القائم على إحدى الروابى المحيطة بالمدينة .

ظل يوحنا أربع سنوات يمارس تلك الاعمال النسكية من صلاة وتأمل وطاعة وتقشف وعمل يدوى وتأليف عقلى حتى أضحى مثال الراهب الكامل فأحبه الرهبان وأرادوه رئيساً عليهم فمانع فى ذلك ، وذهب فانزوى فى مغارة منفردة .

٣ - الذهبى الفم يعود إلى إنطاكية ويُرسم كاهناً :

شدد يوحنا على نفسه فى الصوم والسهر والعبادة حتى انحطت قواه وضعف جسمه فاضطر أن يعود إلى إنطاكية ليداوى ما أصابه من أمراض . فتعلق به البطريرك ملاتيوس وأقنعه بالبقاء عنده ورسمه شماسا إنجيليا ووكل اليه الوعظ والارشاد وبعد خمس سنوات رسمه البطريرك فلافيانس خلف ملاتيوس كاهنا على مذابح إنطاكية .

٤ - الذهبى الفم بطريرك على القسطنطينية :

عظم اسم يوحنا وذاع صيته فى كل أقطار المملكة حتى وصل إلى مسامع الملك

---

(١) سنكسار الروم الكاثوليك للمطران ميخائيل عساف - المطبعة البولسية - حريصا - لبنان - ١٩٤٨ .

ووزرائه وانتشر عبير فضائله حتى عطر مجالس الناس وأنديتهم وأحاديثهم ، ولذلك مُنح يوحنا درجة رئاسة الكهنوت فى سنة ٣٩٨ .

بدأ يوحنا حياة الراعى الصالح وأخذ يغذى النفوس بدسم تعاليمه ومثله ، ويطارد الاثم ليبعده عن رعيته فأحبه الشعب القسطنطينى لما رأوا سمو فضائله وجميل وداعته وعمق تواضعه وسعيه المتواصل لارجاع الخطاة إلى التوبة وهداية الوثنيين إلى الإيمان .

وكان يوحنا يشرح الإنجيل ويعطى نفسه المثل الأول فى اتباع تعاليمه . وكان لا يحضر الولائم ولا يسمح بالبذخ فى أثاث قصره ولا يزين الجدران بالصور الزيتية المتلألئة بل كانت صورة القديس بولس هى الوحيدة التى كان يضعها أمامه على مكتبه ليقع دائما نظره عليها ويحمل نفسه على الاقتداء بصاحبها .

وقد خص الفقراء بعنايته الكبرى فكانت أموال الوقف وما يوفره تذهب فى سبيل إنشاء الملاجئ .

وكان يوحنا كثير العناية بالطقوس الكنسية وبالترانيم البيعية التى ألفها وعلمها للشعب فكان يرنم بها فى الحفلات .

٥ – الذهبى الفم يُنفى إلى البوسفور ثم يعود لكرسيه :

أخذت الملكة افدوكيا زوجة اركاديوس تُسيّر دفة الأحكام ، وكان زوجها آلة عمياء بين يديها فضج الناس من أعمالها وكانوا يأتون إلى يوحنا يستنجدونه ضد أعمال الظلم التى كانت تأتيها . فكتب اليها يوحنا يسترحمها . فما كان منها إلا أن سخطت عليه وسعت لدى الامبراطور فانقاد لها ووقّع على صك إبعاد يوحنا فقادوه مخفوراً إلى ضفاف البوسفور .

ولما علم الشعب بذلك لم يهدأ له بال حتى رجع بطريركه إلى كرسيه فعاد السلام إلى كنيسة القسطنطينية .

٦ – الذهبى الفم تنيح فى الرب سنة ٤٠٧ :

ثارت زوبعة جديدة على يوحنا من حقد الملكة افدوكيا عليه ، فكانت هذه المرة هى الأخيرة وذلك أنهم نصبوا لتلك المرأة تماثيل فى بعض ساحات العاصمة وأقام الشعب معالم الأفراح بنوع مخل بالدين والآداب فرأى يوحنا أن واجبه يقضى عليه بأن ينبه

الشعب على ما أتاه من الإثم الفظيع فوشى به الى الملكة بعض المتملقين بحجة أنه يحتقرها فاستشاطت غضباً وأسرعت إلى الملك فاستصدر أمراً بإبعاد يوحنا إلى مدينة كومان فى البنطس فمرض هناك حتى تنيح فى ١٤ سبتمبر سنة ٤٠٧ .

وفى سنة ٤٣٨ نقل جسده إلى القسطنطينية وأخيرا حُملت رفاته إلى روما ودفنت فى كنيسة الفاتيكان تحت المذبح المخصص له .

٧ - الذهبى الفم ومكانته الكنسية :

هو من الأنوار الساطعة فى سماء المشرق ، فقد جمع بين العلم والوجاهة والذكاء والفصاحة والعبقرية والقداسة ، فأضحى من كبار معلمى الكنيسة وكبار القديسين حتى دعاه التاريخ « الذهبى الفم » .

ولم يزل القديس يوحنا إلى اليوم يسحر المسكونة بمواعظه الخالدة التى تركها فى بطون الكتب مع مؤلفات لا تحصى .

٨ - الذهبى الفم وكتاباته [٢] :

خلّف لنا القديس يوحنا الذهبى الفم العديد من العظات والمقالات والرسائل ، أعرضها كما يلى :

(أولا) العظـــــات :

(أ) عظات تفسيرية على العهد القديم والعهد الجديد :

- **عظات على العهد القديم وتشمل :**

١ - سفر التكوين (٦٦ عظة) .

٢ - سفر المزامير (شرح ٥٨ مزموراً) ، وهى المزامير : (٤ - ١٢ ، ٤٣ - ٤٩ ، ١٠٨ - ١١٧ ، ١١٩ - ١٥٠) .

٣ - سفر اشعياء النبى (٦ عظات على الاصحاح السادس) ألقاها القديس فى إنطاكية ، واخرى فى القسطنطينية .

(2) Patrology by Johannes Quasten, volume III, Uthrecht, Holland, 1953.

٠ ٠ عظات على العهد الجديد وتشمل :

١ – انجيل متى (٩٠ عظة ألقيت فى إنطاكية غالباً فى سنة ٣٩٠) .

٢ – انجيل يوحنا (٨٨ عظة ، أُلقيت غالباً فى سنة ٣٩١) .

٣ – سفر أعمال الرسل (٥٥ عظة ، أُلقيت سنة ٤٠٠) وهو ثالث عام لتنصيبه على القسطنطينية ، بحسب ما صرّح هو به بنفسه .

٤ – الرسالة إلى رومية (٣٢ عظة) .

٥ – الرسالة الأولى إلى كورنثوس (٤٤ عظة) .

٦ – الرسالة الثانية إلى كورنثوس (٣٠ عظة) .

٧ – الرسالة إلى غلاطية (٦ عظات) .

٨ – الرسالة إلى أفسس (١٥ عظة) .

٩ – الرسالة إلى فيلبى (١٥ عظة) .

١٠ – الرسالة إلى كولوسى (١٢ عظة) .

١١ – الرسالة الاولى إلى تسالونيكى (١١ عظة) .

١٢ – الرسالة الثانية إلى تسالونيكى (٥ عظات) .

١٣ – الرسالة الأولى إلى تيموثاوس (١٨ عظة) .

١٤ – الرسالة الثانية إلى تيموثاوس (١٠ عظات) .

١٥ – الرسالة إلى تيطس (٦ عظات) .

١٦ – الرسالة إلى فليمون (٣ عظات) .

١٧ – الرسالة إلى العبرانيين (٣٤ عظة) ، أُلقيت فى آخر سنة لخدمته الاسقفية فى القسطنطينية .

هذا وبمشيئة الرب سننشر هذه التفاسير تباعاً .

(ب) عظات عقائدية وجدلية وتشمل :

١ – طبيعة الله غير المدركة (١٢ عظة) .

٢ – تعاليم للمتقدمين إلى سرّ المعمودية ، ألقيت هذه العظات خلال الـ ١٢ سنة التى خدم فيها القديس يوحنا الذهبى الفم فى إنطاكية (٣٨٦ – ٣٩٨) ، حيث كان مسئولا عن إعداد الموعوظين المتقدمين إلى سرّ المعمودية ، ولكن لم يبق من هذه التعاليم إلا القليل .

٣ – ضد اليهود (٨ عظات) ألقاها فى إنطاكية من سنة ٣٨٦ – ٣٨٧ ، وجميعها تشير إلى أن اليهود رفضوا المسيا .

(جـ) عظات اخلاقية .

(د) عظات على أعياد ليتورجية وتشمل :

١ – عيد الميلاد (عظتان) .

٢ – عيد الغطاس (عظة) .

٣ – خميس العهد (عظتان) .

٤ – الجمعة العظيمة (٣ عظات) .

٥ – القيامة (عظتان) .

٦ – الصعود (عظتان) .

٧ – العنصرة (عظتان) .

(هـ) عظات رثائية أو مدح فى القديسين :

ألقى القديس يوحنا الذهبى الفم عدداً كبيراً من المراثى أو المدح فى قديسى العهد القديم مثل أيوب الصديق ، اليعازر ، المكابيين وأمهم ، وعلى بعض الشهداء مثل رومانوس ، جوليان ، برلام ، بيلاجية ، برنيكى ، بروسدوس ، وعلى الشهداء عموماً .

كذلك ألقى عظات على أساقفة إنطاكية : أغناطيوس بابيلاس ، فيلوجونيوس ، أيوستاسيوس وميليتوس ، أما أهم عظاته فكانت عن بولس الرسول .

(و) عظات فى مناسبات :

١ – العظة الاولى بمناسبة رسامته كاهنا فى بداية سنة ٣٨٦.

٢ – عظات على التماثيل .

٣ – عظات على ايوتربيوس .

٤ – عظات قبل وبعد النفى الأول .

٥ – عظتان فى عشية نفيه الاول سنة ٤٠٣ ، ويوم رجوعه .

(ثانيا) المقالات وتشمل :

١ – الكهنوت (٦ كتب) .

٢ – الحياة الرهبانية (كتب القديس مقالات كثيرة دفاعاً عن الحياة النسكية) أهمها :

- مقالتان يحض فيهما صديقه ثيؤدور .
- كتابان عن التوبة والانسحاق ، الكتاب الأول موجه للراهب ديمتريوس ، والثانى للراهب ستكيكيوس .
- ٣ كتب ضد أعداء الرهبنة .

٣ – البتولية والترمل .

٤ – تعليم الأطفال .

٥ – الاحتمال (٣ كتب يُعزى فيها صديقه الراهب ستاجريوس) .

٦ – ضد الوثنيين واليهود (مقالتان دفاعيتان) .

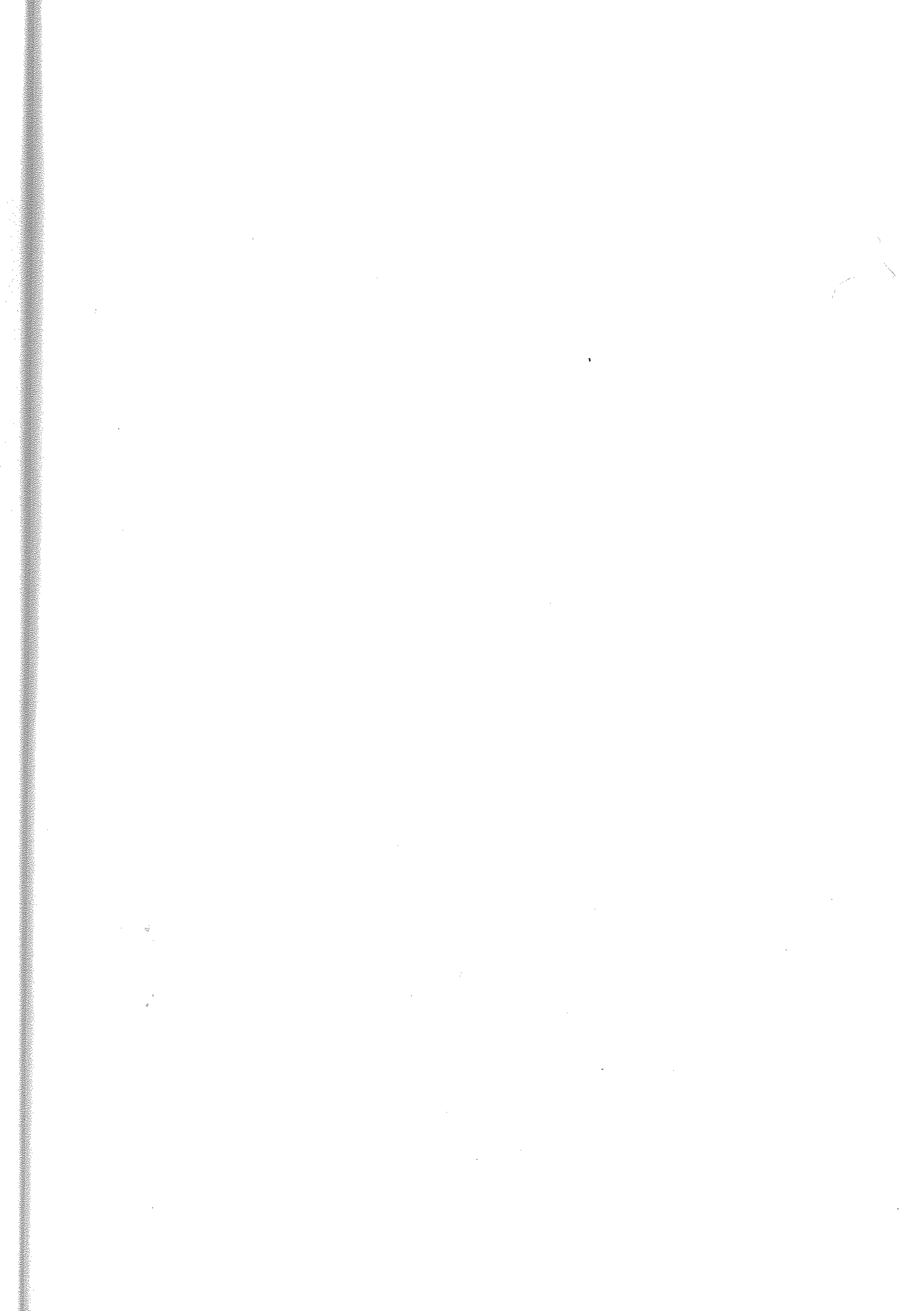
(ثالثا) الرسائل (٢٣٦ رسالة) :

توجد حوالى ٢٣٦ رسالة للقديس يوحنا الذهبى الفم ، كلها ترجع إلى فترة نفيه الثانية .

واكثر هذه الرسائل جرأة هى الـ ١٧ رسالة التى كتبها القديس للأرملة الشماسة اوليمبيا .

أما أهم رسالتين فهما اللتان وجههما إلى البابا أنوسنت .

✣ ✣ ✣



الفصل الثانى

تعريف بسفر التكوين

١ - كاتب سفر التكوين [٣] :

أقام العلماء المؤمنون البراهين القاطعة على أن موسى النبى هو كاتب سفر التكوين ، وذكر تلك البراهين كلها يشغل زماناً طويلاً وصفحات كثيرة ، واكثرها لا ينتفع به سوى علماء اللغات السامية .

هذا وقد اتفق جمهور اليهود منذ القديم على أن كاتب سفر التكوين هو موسى وأجمع على اتفاقهم جمهور المسيحيين .

٢ - أهمية سفر التكوين :

(أ) إن سفر التكوين من أقدم ما كُتب فى العالـم ، حتى رجح بعضهم أنه اقدم كتب الأرض .

(ب) فيه نبأ أصل العالم الصحيح وخلق الانسان على صورة الله وشبهه ، وسقوط الجنس البشرى وفساده .

(جـ) هو أصل كل الدين الموسوى والدين المسيحى ، وقد كُتب والبشر فى صبوته .

(د) هو جوهر المواضيع الدينية .

(هـ) فيه اعلان قدرة الله ، لأنه ابدع الخلائق واعلان حكمته ، لأنه احسن اتقان العالمين على مقتضى ما أُودع فى العالم المادى من النواميس ، وكان ترتيب الخلق بحسبها على ما فُصِل من خلق كل يوم من أيام الخليقة الستة ، واعلان جوده ، فإنه بجوده خلق الانسان ، وكل ما يحتاج اليه لا لحاجته سبحانه إلى الخلق ، لأنه غنى عن كل ما خلق ، وعند دخول الخطيئة إلى العالم اظهر رحمته وعدله ، فرحمته كانت بحفظ الانسان وعنايته به بعد السقوط ، أما عدله فإخراجه الإنسان من الفردوس إلى أرض الشقاء والبلاء والموت .

---

(٣) السنن القويم فى تفسير أسفار العهد القديم - الجزء الأول - تفسير سفر التكوين - صدر عن مجمع الكنائس فى الشرق الادنى - بيروت - ١٩٧٣ .

(و) فيه من احسن مجالي رحمة الخالق القدير وحبه للانسان العاصى ، بالوعد بمنقذ من الشقاء والهلاك الأبدى وهو نسل المرأة الذى أمات الموت بموته وأعلن القيامة والخلود بقيامته .

(ز) والخلاصة ، أن فى سفر التكوين بيان كل ما تستطيعه المدارك البشرية من صفات واجب الوجود والحياة الأبدية بفداء الابن الأزلى فهو أُسّ الدين المسيحى ودعامة كل ما فاه به المسيح والرسل والأنبياء .

٣ – مشتملات سفر التكوين :

يشتمل سفر التكوين على ٢٣٦٩ سنة ، وهى من آدم إلى وفاة يوسف بن يعقوب ، وفيه خمسون اصحاحاً تنقسم إلى أحد عشر قسما :

(١) خلق السموات والارض وكل ما فيها من الملائكة والناس والجماد والنبات والبهائم (ص ١ : ١ – ص ٢ : ٣) .

(٢) مبادئ السموات والأرض (ص ٢ : ٤ – ص ٤ : ٢٦) .

(٣) ما يتعلق بآدم وحواء (ص ٥ : ١ – ص ٦ : ٨) .

(٤) ما يتعلق بنوح (ص ٦ : ٩ – ص ٩ : ٢٩) .

(٥) ما يتعلق بأولاد نوح (ص ١٠ : ١ – ص ١١ : ٩) .

(٦) ما يتعلق بسام (ص ١١ : ١٠ – ٢٦) .

(٧) ما يتعلق بتارح (ص ١١ : ٢٧ – ص ٢٥ : ١١) .

(٨) ما يتعلق بإسمعيل (ص ٢٥ : ١٢ – ١٨) .

(٩) ما يتعلق باسحق (ص ٢٥ : ١٩ – ص ٣٥ : ٢٩) .

(١٠) ما يتعلق بعيسو (ص ٣٦ : ١ – ص ٣٧ : ١) .

(١١) ما يتعلق بيعقوب (ص ٣٧ : ٢ – ص ٥٠ : ٢٦) .

٤ – غاية سفر التكوين :

(١) بيان أن للكون رباً أزليا وأنه قادر حكيم وعادل ورحيم .

(٢) بيان أصل العالمين وعناية الله بالمخلوقات ولاسيما الانسان الذى خلقه على صورته وشبهه . واختيار الله شعبا له من سلالة ابراهيم ، وحفظه لذلك الشعب وتمييزه له وتفضيله إياه على سائر البشر .

(٣) بيان العهد الأقدس الذى عهده الله على نفسه بمخلص يخلص البشر من الهلاك الأبدى ويديم ملكه الروحى إلى الأبد ، لأنه هو « ملك الملوك ورب الأرباب » (١ تى ٦ : ١٥) . وهو « الألف والياء . البداية والنهاية » (رؤ ١ : ٨) .

٥ - الاعتراضات على صحة سفر التكوين ودفعها :

أتى نفاة الوحى وغيرهم من منكرى صحة سفر التكوين باعتراضات كثيرة منها ما يلى :

(١) أن العبرانيين لم يكونوا يعرفون الكتابة فى عصر موسى وان لا دليل على أن موسى كان يحسن الكتابة .

وندفع هذا ، أولا : بأن هذا الاعتراض عينُه دعوة بلا دليل ، وثانيا : بأن موسى كان فى مصر وتعلم كل حكمة المصريين ، ولا شك فى أنه قرأ مكتوباتهم على الاعمدة المعروفة بالمسلات ، وفى ورق البردى ، وكان يسهل عليه أن يختار أو يخترع صوراً للحروف العبرانية إن لم يكن من قبله سبقه اليها كما يرجح ، وأن آثار الكتابة المصرية تسبق عهد موسى كثيراً ، ولا يبعد بل يرجح كل الترجيح أن العبرانيين فى عصر موسى كانوا يكتبون على الرقوق ، ولعل موسى كتب عليها أو على ورق البردى أو على الحجارة .

(٢) أن لغة الكتب الأخيرة فى العهد القديم لا تختلف عن لغة التوراة ومنها سفر التكوين إلا قليلاً ، فلو كان موسى هو كاتب ذلك السفر لاختلفت لغته اختلافا بعيداً عن لغة أحدث اسفار العهد القديم ، لانتشار اليهود بين الأمم وتقدمهم فى المدنية .

والجواب : أن اللغات الشرقية بقيت ألوفاً من السنين على حالها القديمة فلم تتغير إلا بدخول بعض الألفاظ المحدثة ، وأن لغة الاسفار الخمسة كان لها تأثير عظيم فى إنشاء

كتب الدين وأحدث اسفار الوحي في ذلك العهد ، وبقى فوق ذلك أن انشاء التوراة يختلف عن إنشاء غيرها (وإن قل الاختلاف) في بعض التراكيب والألفاظ وذلك كافٍ لأن يثبت أن التوراة أقدم أسفار العهد القديم .

(٣) أنه يُفهم من الاصحاح الأول من سفر التكوين أن الشمس خُلقت في اليوم الرابع ، ولكنه ذكر قبل خلقها أنه كان نهار وليل وايام، ومن المعلوم لكل إنسان أن لا نهار بلا شمس ، لأن النهار هو الوقت الذى بين طلوع الشمس وبين غروبها ، وذلك تناقض ظاهر .

وندفع ذلك بان النهار هنا ليس الوقت بين طلوع الشمس وغروبها بدليل قوله في أول ذلك الاصحاح « ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً » (ع ٥) ، فخلق الله الايام في المدة الأولى ، فكان اليوم حينئذ من مقابلة جزء من الارض لكتلة منيرة غير منتظمة وتحركها على محورها إلى رجوعها إلى تلك المقابلة .

(٤) أن كاتب السفر لم يذكر متى خلق الله الملائكة ، فلو كان يوحى اليه لعرف ذلك وذكره ، لأن هنا موضع ذكره .

وندفع ذلك ، أولا : ما للموحى اليه أن يُوحى اليه بكل شيء، وثانياً : أن قصد الله هنا أن يبين للناس خلقة العالم المادى على ترتيبه لا العالم الروحى ، على أن قوله « خلق الله السموات والأرض » (تك ١ : ١) يتضمن خلق الملائكة وغيرهم .

(٥) أنه لايستطيع العقل على ما عُرف من شرائع الطبيعة أن يسلم بترتيب كل المخلوقات في ستة أيام أو مئة وأربع وأربعين ساعة .

وندفع ذلك بوجهين : الأول : أن القدرة الأزلية تستطيع كل شيء والثانى : قول الجمهور بأن هذه الأيام مدّات طويلة ، وقد جاء بذلك ترتيب الخلق في الكتاب على وفق الترتيب الذى تقتضيه الشرائع الطبيعية ، وفي هذا دليل قاطع على أن هذا السفر من وحي الله .

(٦) أن اعمار الآباء في الاصل العبرانى تختلف عنها في الترجمة اليونانية القديمة.

وندفع ذلك بان الترجمة ليست بحجة على الأصل بل الأصل هو الحجة على الترجمة . على أن في هذا كلاماً طويلاً يضيق به المقام .

(٧) أنه ذكر أن الكرمة كانت فى مصر زمن يوسف بن يعقوب ، مع ان هيرودوتس وبلوطرفوس المؤرخين صرّحا بأنه لم يكن للمصريين كروم .

فندفع هذا الاعتراض ، أولاً : إن الكتاب لم يقل أن الكرمة كانت يومئذ فى مصر بل قال « فقص رئيس السقاة حلمه على يوسف وقال له كنت فى حلمى واذا كرمة أمامى » (تك ٤٠ : ٩) ، فهل يلزم من نفى المؤرخين كون الكرمة فى أرض مصر نفيها من أخيلة الحالمين ، وثانياً : أن هيرودوتس المؤرخ نفسه قال ان اهل ثيبة (أو ثيبيس) افتخروا بأنهم عرفوا الكروم قبل سائر الأمم ، وقد ذكر فى الكتاب الثانى أنه كان للكهنة المصريين أن يشربوا خمر العنب وقد وجد المنقبون فى بنى حسان فى مصر صورة شجرة العنب على أقدم الآثار المصرية .

(٨) أن سفر التكوين أجاز الكذب ، فان ابراهيم كذب بقوله أن سارة اخته ، والكتاب لم يذكر أنه خطئ بذلك .

وندفع هذا بان ابراهيم لم يكذب ، فإن سارة كانت اخته ابنة ابيه حقيقة فقال الحق واخفى إنها امرأته ، وعلى فرض أنه كذب ، فسكوت الكتاب عن خطأه ليس بدليل على اباحته الكذب لنهيه عنه فى غير هذا الموضع انظر (لا ١٩ : ١١) .

(٩) أن قصة سفينة الطوفان لا تصدق ، وإلا فليبين لنا امكان أن تلك السفينة وسعت ما ذكر من حيوانات الأرض البهائم والطيور وما تحتاج اليه كل مدة بقائها على وجه الماء ، وكيف اجتمع الذئب والحمل والأسد إلى غير ذلك مما يضيق الزمان بذكره .

وندفع ذلك بأن الطوفان لم يكن عاما بل خاصاً بالأرض التى سكنها الانسان، وأن البهائم والطيور التى حملها نوح معه هى ما يحتاج اليها هو وبنوه والنساء بعد خروجهم من السفينة .

(١٠) أن فى هذا السفر ما نصه « كان فى الأرض طغاة فى تلك الايام وبعد ذلك أيضا إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم اولاداً هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم » (تك ٦ : ٤) ، ويفهم من ذلك أن الملائكة تزوجت الآدميات فولدن الجبابرة وأن المولودين كانوا جبابرة ، لأن آباءهم ملائكة .

وهذا من الخرافات التى يبطلها العقل بالبديهة ، وندفع ذلك بأربعة أمور :

الأول – أنه لا ذكر للملائكة فى الآية .

الثانى – أن بنى الله يطلق على الناس الذين هم من شعب الله .

الثالث – أن أول جبار إبتدأ أن يكون على الأرض ليس بابن ملاك بل ابن إنسان ، وقد ذكر الكتاب ذلك صريحاً وهذا قوله : « وكوش ولد نمرود الذى ابتدأ يكون جباراً فى الأرض » (تك ١٠ : ٨) .

وكوش هو ابن حام بن نوح ، إنسان ابن إنسان ، وابنه نمرود هو الجبار منذ الدهر وأول جبابرة الارض بنص ذلك السفر عينه .

الرابع – أن الجبار ليس القوى الجسم كما يفهم العامة بل العاتى الذى يجبر الناس على ما يريد ، وهذا لا يترتب على أن يكون أبوه من الملائكة .

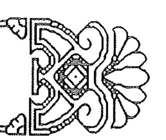
والخلاصة أن المقصود « ببنى الله » هم الذين اعتزلوا عبادة الأوثان ، وهم ابناء شيث ، أما المقصود « ببنات الناس » (وفى الاصل العبرانى ببنات آدم) بنات الوثنيين ، وهن بنات قايين ، وكان أبناء الله الذين اتخذوا بنات الناس ازواجاً ، وسمى الوثنيون « بأولاد آدم » لأنهم بقوا فى المعصية ، وسمى الموحدون « ابناء الله » لأنهم رجعوا إلى الله وأطاعوه طاعة البنين للآباء ، واعتنى الله بهم اعتناء الأب بأولاده .





الفصل الثالث

شرح سفر التكوين



الأصحاح الأول [4]

« في البدء خلق الله السموات والأرض » (ع ١) .

لم يقل موسى فى البدء خلق الله الملائكة أو رؤساء الملائكة بل قال « فى البدء خلق الله السموات والأرض » ، لأن اليهود لا يمكنهم أن يفتكروا فى شيء من الأمور العقلية ، فبالأمور الحسية اقتادهم إلى معرفة خالق الكل ، لكى بالخليقة يسجدوا للخالق ولا يعبدوا المخلوقات ، لأنهم وان كانوا مع كون هذا الأمر هكذا ما كفوا من أن يألهوا الخلائق المخلوقة العديمة النطق ويعبدوها ، ففى أى جنون ما كانوا يتهورون لو لم يستعمل مثل هذا التنازل .

ولا تتعجب كون موسى سعى فى هذا الطريق عندما ابتدأ إذ خاطب اليهود الغلاظ إذ إن بولس فى عهد النعمة عندما امتدت الكرازة وبهذا المقدار عندما عزم على مخاطبة أهل اثينا جعل تعليمه لهم من المنظورات قائلا هكذا « الإله الذى خلق العالم وكل ما فيه هذا اذ هو رب السماء والأرض لا يسكن فى هياكل مصنوعة بالأيدى . ولا يخدم بأيادى الناس كأنه محتاج إلى شيء إذ هو يعطى الجميع حيوة ونفساً وكل شيء » (أع ١٧ : ٢٤ ، ٢٥) .

فإن كان مانى [5] واتباعه يقولون ان المادة كانت من قبل ، فقل لهم « فى البدء خلق الله السموات والأرض » ، لكن إن وجد مَنْ لا يصدق الكتاب فاعدل عنه ، فإن الذى لا يؤمن بخالق الكل ومبدعهم ذاما الحق وجاعله كذبا فلأى تعطف يستحق ؟! .

وإن كان اعداء الحق يقولون إن هذا غير ممكن ، كيف يكون شيء من العدم ؟! فنقول لهم : هل الانسان الأول جبل من الأرض أم من موضع آخر ؟ فلاشك أنهم يقولون إن الانسان جُبل من تراب الأرض ويعترفون معنا بذلك ، ولكن فليقولوا لنا كيف صارت طبيعة اللحم من الأرض ؟ لأن من الأرض قد يصير الطين واللبن والطوب والفخار ، فكيف إذاً صارت طبيعة اللحم ؟ كيف صارت العظام والاوعية والدهون فى الجلد والأظافر ، إلا أنه لا يستطيع أحد أن يفتح فاه .

---

(٤) المخطوطات أرقام ١ – ٤ ، تفسير الكتاب المقدس ، جزء أول وثان ، تفسير سفر التكوين للقديس يوحنا الذهبى الفم .

(٥) مانى (٢١٥ – ٢٧٦) : ولد فى بلاد فارس ، مؤسس المانوية القائل بمبدأين : مبدأ الخير ومبدأ الشر (النور والظلام) .

وليقولوا لنا عن الخبز الذى نقتات به كل يوم ، إذ هو نوع واحد كيف يتحول إلى دم وإلى لعاب وصفراء وانواع مختلفة فان كان لا يمكنهم أن يردوا لنا بجواب فقط عما هو منظور تجاه الأعين وتراها كل يوم ، إلا انهم ان كانوا يلبثون بعد متمسكين فى مجادلتهم ، فنحن ما نكف عن أن نقول هذا القول نفسه وهو « فى البدء خلق الله السموات والأرض » ، لأن هذا القول كاف لأن يهدم حصون المنافقين .

فان كان لا يمكننا أن نفحص عن صناعة الناس المساوين لنا فى الجنس ، قل لى كيف يصير الزجاج الصافى من الرمل ، إلا أنه ما يمكنك أن تجاوبنى ، فإن فى هذه الاشياء التى تراها العيون لا يمكنك أن تدركها ، فكيف تفحص مايفعله الله ؟ ! .

يا انسان فأى تعطف يكون لك وأى عذر هكذا أن تفكر فيما يفوق طبعك ، لأن القول ان العالم صار من مادة قديمة ، وعدم الاعتراف أن خالق الكل أظهره من العدم ، فذلك علامة غاية الجنون !! .

فإذا سمعت أن الله خلق السموات والأرض فلا تبحث عن شيء آخر ، بل اطرق إلى أسفل مصدقا ما قيل لأن الله هو خالق الكل .

« وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه » (ع ٢) .

قول موسى « وكانت الأرض خربة وخالية » فلأى سبب قل لى أظهر الله السماء مضيئة ومتقنة ، وأما الأرض فاوجدها لا صورة لها ؟ فلا ترتاب إذاً فى شيء ولا تتوهم أن هذا كان لضعف قوته ، بل لطريقة أخرى أظهرها لا صورة لها لأنها هى أمنا ومغذيتنا ، ومنها كوّننا ، ومنها نقتات ، وهى وطننا وقبرنا ، واليها نعود ، وبها نستمد الخيرات الكثيرة . ولعدم الحاجة الدائمة اليها ما بالغ فى إكرامها فوق قيمتها ، فاظهرها خالية البهاء حقيرة ، حتى لا تتوهم وتنسب الخير الواصل منها أنه لطبيعتها بل للذى أبرزها من العدم .

إن الله يعلمنا بتدقيق كيف « كانت الأرض خربة وخالية » فقال « وعلى وجه الغمر ظلمة » ؛ أى أن الأرض كانت « خربة وخالية » لأنها كانت مغمورة فى الماء .

امعن هنا كون موسى ما يذيع دائما مخبراً بالمخلوقات بالتفصيل ، وانما ذكر السماء والأرض تاركا ما خلاها ، لأنه ما ذكر خلقة المياه بل قال « وعلى وجه الغمر ظلمة » وهذه الظلمة التى على وجه المياه فكانت محتاجة للخالق الحكيم ليزيل كل فقدان البهاء هذا ، وينقل الاشياء كلها إلى حسن البهاء .

وقوله « وروح الله يرف على وجه المياه » ، ما هو الذى قصده موسى فيما قاله هنا ؟! انا قد يبدو لى أنه قد يدل هذا أن فى المياه كان يوجد روح محيى وأن الماء لم يكن غير متحرك ، بل كان متحركاً وفيه قوة محيية ، لأن الماء غير المتحرك قد يكون فاقد النفع بالكلية وأما المتحرك فيكون موافق لأمور كثيرة .

« **وقال الله ليكن نور فكان نور** » (ع ٣) .

انظر كيف أن الله قال فقط فوُجد النور وزالت الظلمة .

« **ورأى الله النور أنه حسن وفصل الله بين النور والظلمة** » (ع ٤) .

قول موسى « ورأى الله النور أنه حسن » فهل ما عرف الله أن النور حسن قبل أن يكون ؟! إن الانسان الصنائعى وقبل أن يتقن ما يصنعه ، وقبل أن يصوره يعرف الحاجة التى يناسب لها ما يعمله ، فبالأحرى كثيراً كان يعرف خالق الكل الذى خلق بكلمته كافة الاشياء من العدم .

وقوله « ورأى الله النور أنه حسن » فلأى سبب استعمل هذا القول ؟ لأن الله نطق بكل ما نطقه تنازلاً حسب عادة الناس ، فكما أن الناس متى عملوا شيئا بكل اجتهادهم ، واذا ما كملوا عملهم ، حينئذ يمدحونه على هذا الحال .

وقوله « وفصل الله بين النور والظلمة » أى منح لكل منهما موضعه ، وأفرز له وقتاً يوافقه ، وإذ صار هذا عندئذ وضع لكل منهما الاسم الأليق به .

« **ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً** » (ع ٥) .

قول موسى « ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً » أرأيت التقسيم الفاضل للخالق العجيب ، إذ تم كل ذلك بالكلمة والأمر فقط ؟ أرأيت كم تنازل استعمله هذا النبى العظيم موسى ، بل إن الإله المحب للبشر استعمل ذلك بلسان موسى لتعليم جنس البشر ، ليعرفوا ترتيب الأمور الصائرة ، ومَنْ هو خالق الكل ؟! .

وقوله « ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً » انظر كيف أن من ذلك الوقت إلى الآن ، لا النور تعدى حدوده ، ولا الظلمة تجاوزت ترتيبها ، وهذا الأمر فقط فيه الكفاية لاقناع المجادلين لينقادوا لما يقوله الكتاب الالهى ولا يتعدوا حدودهم بل يعرفوا طبيعتهم .

وبعد أن وضع الله لكل من النور والظلمة التسمية جمع الاثنين إلى أمر واحد فقال « وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً » .

« وقال الله ليكن جلد [٦] في وسط المياه وليكن فاصلاً بين مياه ومياه . فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التى تحت الجلد والمياه التى فوق الجلد وكان كذلك » (ع ٦ ، ٧) .

قول الله « ليكن جلد فى وسط المياه وليكن فاصلاً بين مياه ومياه » كمَنْ يقول بلسان بشرى حائط ماء وحاجز يفصل بينهما ويقسمهما .

ولكى تعرف عظمة قدرة الخالق قال موسى « وكان كذلك » أى أن الله قال فقط واتبع القول الفعل .

« ودعا الله الجلد سماء وكان مساء وكان صباح يوماً ثانياً » (ع ٨) .

رأيت كيف أن الله إذ علمنا التدقيق فسمى ما كان بعد نهاية النور مساءً ، أما نهاية الليل فدعاها صباحاً ، وسمى كليهما يوماً ، لكى لا تضل وتظن أن المساء هو غاية اليوم بل لتعرف جهاراً أن مسافة الاثنين تكمل يوماً واحداً ، فصواباً سمى نهاية النور مساءً ، اما الصبح فهو غاية الليل وتمام اليوم .

« وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة وكان كذلك » (ع ٩) .

تأمل ههنا أيها الخليل هذا الترتيب الحسن والنظـــــام المتقن ، والدليل على ذلك أن الله قال فى الابتداء : «وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة » (ع ٢) ، ثم أمر فى اليوم الثانى أن يصير الجلد « وقال الله ليكن جلد فى وسط المياه »

---

(٦) جَلَد : الكلمة العبرية « رقيع » ومعناها شيء ممتد مطروق .

(ع ٦) ، وها الآن يفيدنا أيضا أنه فى اليوم الثالث أمر الماء الذى تحت السماء أى الذى تحت الجلد ليرد إلى مجمع واحد ، فيمكن اليابسة من الظهور .

وتأمل كيف يظهر لنا بعد قليل جمال اليابسة وحسن شكلها . فان قال قائل كيف « وكان كذلك » ؟! أجيبه : ان من خواص الله أن تنقاد الخلائق اليه حسبما تقتضيه إرادته .

« ودعا الله اليابسة أرضا ومجتمع المياه دعاه بحاراً . ورأى الله ذلك أنه حسن » (ع ١٠) .

قول موسى « ودعا الله اليابسة أرضا » انظر ايها الخليل كيف كانت الأرض غير مبصرة ولا متقنة ، مغطاة بالمياه مثل أغشية فكشفها ، واظهر لنا وجهها ، ووضع لها اسماً خاصاً .

وقوله « ومجتمع المياه دعاه بحاراً » ها المياه قد اخذت التسمية الخاصة بها ، فكما حظيت الأرض بالتسمية وتشكلت وتهندمت ، أُهلت المياه أيضا للقب ودعاها بحاراً .

وقوله « ورأى الله ذلك أنه حسن » فاذا علمت أن المبدع استحسن الكائنات ، فليكن تعجبك أنت منها عظيماً .

« وقال الله لتنبت الأرض عشبا وبقلا يبزر بزرا وشجراً ذا ثمر يعمل ثمراً كجنسه بزره فيه على الأرض وكان كذلك » (ع ١١) .

ما معنى « وكان كذلك » ؟ أى أن الرب أمر وللحين انهضت الأرض طلقها ، وهيأت ذاتها لانبات الزروع .

« فاخرجت الأرض عشبا وبقلا يبزر بزرا كجنسه وشجراً يعمل ثمراً بزره فيه كجنسه . ورأى الله ذلك أنه حسن » (ع ١٢) .

تأمل أيها الحبيب ، كيف بكلمة الرب صارت كل هذه الأمور للأرض ، إذ انها سمعت الأمر فقط فاظهرت للوقت ما هو منها ، من هذا الموضع نعرف انه لا اهتمام الفلاحين ولا التعب ولا غيره من التعب المنوط بالفلاحة يمنحنا وفود الثمر لكن قبل هذا كله كلمة الله الآمرة لها منذ البدء .

وتأمل كيف أن كمال الثمر يحتاج إلى مؤازرة الشمس لكن الروح القدس يعلمنا أن الأرض قبل خلقة الشمس أطاعت قول الله وأمره ، وأبدت كل ما فيها من الزروع ولم تكن فى احتياج إلى مساعدة شيء آخر ، لأن تلك الكلمة القائلة « لتنبت الأرض عشبا وبقلا » (ع ١١) قامت لها مقام الكل .

وانظر إلى الأرض التى كانت أولاً غير مُتقنة حظيت بغتة بكمال هذا مقداره ، حتى إنها كادت تضاهى السماء ، والدليل على ذلك قول موسى «ورأى الله ذلك أنه حسن» أنظرت كيف أن كل واحد من الخلائق يظهر والخالق تقدس اسمه له مادحاً وإياه مطرباً ؟ .

« وكان مساء وكان صباح يوماً ثالثاً » (ع ١٣) .

تأمل كيف أن موسى فى كل يوم يقول هكذا : « وكان مساء وكان صباح » ، وقوله هذا ليس جزافا بل خوفا من أن يضيع النظام ، فيظن بالمساء انه نهاية اليوم ، أما المساء فهو نهاية النهار وبداية الليل ، وأما الصباح فهو نهاية الليل وكمال اليوم ، وهذا ما أراد أن يعلمنا إياه الطوباوى موسى .

« وقال الله لتكن انوار فى جلد السماء لتفصل بين النهار والليل . وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين » (ع ١٤) .

قول الله « وتكون لآيات واوقات وايام وسنين » إذ يريد أن يعلمنا أن مسير هذه الأنوار تعطينا معرفة الاوقات وعدد الايام وسير السنين ، ومن هنا يعرف الفلاح متى ينبغى أن يلقى الزرع ومتى يجب أن يحرث الأرض ، ويسن المنجل ويحصد الزرع .

إذا فمعرفة الازمان توافقنا موافقة ليست بقليلة فى قوام معيشتنا ، ولهذا السبب ينبغى لنا أن نعرف مقدار الحاجة إلى هذه الكواكب ، ونتعجب من الخلائق ونسجد لخالقها ولمجده ونذهل من محبته للبشر التى لا توصف والتى اظهرها نحو طبيعة الناس ، إذ انه لم يبتدع هذه الاشياء كلها لشيء اخر ، إلا من أجل الانسان الذى هو عتيد بعد قليل أن يثبته كملك ورئيس على كل المخلوقات .

« وتكون انوارا فى جلد السماء لتنير على الأرض وكان كذلك » (ع ١٥) .

لما كان الطوباوى موسى قد علمنا من قبل كيف أن خالق الكل جمّل قباحة الأرض بالنبات فازهرت الأزهار ونشأت الزروع ، نقل اليوم قوله إلى جمال السماء ، لأنه كما أن الأرض تجملت بما طلع منها ، هكذا جعل هذه السماء المنظورة وافرة البهاء جزيلة الضياء .

« فعمل الله النورين العظيمين النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل والنجوم » (ع ١٦) .

قول موسى « فعمل الله النورين العظيمين » أى الشمس والقمر .

وقوله « النور الاكبر لحكم النهار » أرأيت حكمة الخالق ؟ قال فقط وبرز إلى الابداع هذا العنصر العجيب ، أعنى الشمس ، لأنه يدعوها نوراً عظيماً ، إذ إن هذا النور يجعل النهار بهياً ، إذ يرسل شعاعه كالمصابيح .

وقوله « والنور الأصغر لحكم الليل والنجوم » أى القمر الذى يُفرق ظلام الليل .

« وجعلها الله فى جلد السماء لتنير على الأرض » (ع ١٧) .

ما معنى قول موسى « وجعلها الله فى جلد السماء » ؟ عسى أن بعض الناس يقول غرسها ، كلا أن يكون هذا ، لأننا نعاين القمر والنجوم كثيراً فى لحظة من الزمان تقطع مسافة كبيرة ولا تستقر فى موضع واحد ، لكنها تتم سيرها الخاص الذى أمرها الرب به .

ولكن ما معنى « وجعلها » أى أمرها أن تكون فى السماء لأننا نرى الكتاب فى موضع آخر يقول « وأخذ الرب الإله آدم ووضعه فى جنة عدن ليعملها ويحفظها » (تك ٢ : ١٥) ليس أن الله غرس آدم فى جنة عدن ، لكن رسم له أن يكون فيها على هذا الحال .

« ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة ورأى الله ذلك انه حسن . وكان مساء وكان صباح يوماً رابعاً » (ع ١٨ ، ١٩) .

قول موسى « ولتحكم على النهار والليل » أى أن الشمس أخذت سلطة النهار ، أما القمر فأخذ سلطة الليل ، إذ الشمس جعلت النهار أشد ضياءً بخاصية شعاعها ، أما القمر فيشتت الظلمة ويفيد طبيعة الناس بخاصية ضيائه ، لأن التاجر حينئذ يتجاسر على مباشرة السفر ، والنوتى على إقلاع مركبه وقطع اللجج .

وقوله « ورأى الله ذلك أنه حسن » أرأيت كيف أوضح موسى أن الله رضى بهذه المخلوقات ، معلما إيانا أن الكل ظهر إلى الابداع بحكمة حسنة التلطف ومحبة للبشر لا توصف .

« وقال الله لتفض المياه زحافات ذات نفس حية وليطر طير فوق الأرض على وجه جلد السماء » (ع ٢٠) .

قل أى قول يقدر أن يصل إلى التعجب ، أى لسان ينطق فى حسن الثناء على الخالق ؛ إذ إن الرب قال من قبل « لتنبت الأرض » ، وللحين أنهضها للخلق ، والآن يقول : « لتفض المياه » ، انظر كيف أن الخلائق كلها صارت بكلمة واحدة ، لكن لا تستغرب أيها الحبيب ، لأن « وكان الكلمة الله » (يو ١ : ١) وقوله جاد على الكائنات.

« فخلق الله التنانين العظام وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التى فاضت بها المياه كاجناسها وكل طائر ذى جناح كجنسه ورأى الله ذلك انه حسن » (ع ٢١) .

انظر أيضا ههنا كم هى مقدار حكمة الروح ، لأن الطوباوى موسى بعد أن ذكر خلقة التنانين العظام وكل الانفس الحية والدبابات قال « ورأى الله ذلك أنه حسن » وهنا أيضا ينتزع جسارة القائلين ما المنفعة من خلقة هذه الحيوانات ، أما سمعت الرب حاكما وقائلا « ذلك انه حسن » ، فكيف يا هذا تتجاسر وتقول لأى سبب كانت خلقة هذه الحيوانات وكأنها فضلة زائدة لا يحتاج اليها ، لأنك إن كنت حسن البصيرة ، ثاقب المعرفة فستقدر أن تعرف من الخليقة قوة الرب التى لاتوصف ، ومحبته للبشر ، إذ إن القوة فبكلمته وأمره أبدع هذه الحيوانات من المياه ، أما محبته للبشر ، فإنه عندما أبدع هذه الحيوانات وزع لها أماكن تخصها ، وورثها جزء من البحر لا يسلك فيه لئلا يصل اليها الضرر ، لكنها تتربى وتعيش فى المياه .

واذا سمعت قول موسى « ورأى الله ذلك أنه حسن » فلا تتجاسر أن تناقض الكتاب الالهى ، ولا تسهب فى القول والبحث لماذا صار كذا وكذا .

« وباركها الله قائلاً اثمرى واكثرى واملأى المياه فى البحار وليكثر الطير على الأرض . وكان مساء وكان صباح يوماً خامساً » (ع ٢٢ ، ٢٣) .

لما كانت الحيوانات المخلوقة ذات أنفس أراد الله أن يكون هو قوامها دائماً ، لذلك عطف موسى كلامه فقال : « وباركها الله قائلاً اثمرى واكثرى » لأن بركة الله والكلمة القائلة « اثمرى واكثرى » منحتها الثبات والمقام والبقاء .

« وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها وكان كذلك » (ع ٢٤) .

قول موسى « وقال الله لتخرج الارض ذوات أنفس حية كجنسها » إذ إن الله لم ينهض المياه فقط إلى تكوين الحيوان لكنه أمر أيضاً أن يبرز من الأرض حيوان برى .

وقوله « وكان كذلك » انظر كيف أن الأرض أيضا تجود بثمر متضاعف وتمتثل لأمر الرب ، لأنها أوردت من قبل نبات البزور ، والآن ابرزت حيوانا ذا نفس حية .

« فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها والبهائم كأجناسها وجميع دبابات الارض كأجناسها ورأى الله ذلك انه حسن » (ع ٢٥) .

اين هم الآن المتجاسرون أن يقولوا : ما الحاجة إلى الوحوش ؟ وما الغرض من الدبابات ؟ ليسمعوا الكتاب الالهى قائلاً « ورأى الله ذلك أنـــه حسن » فهل أنت يا هذا تتقدم للطعن فيها !! .

« وقال الله نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الارض وعلى جميع الدبابات التى تدب على الأرض » (ع ٢٦) .

انظر هنا الفرق فى الألفاظ ، لأن الله لم يقل ليكن إنسان بل قال « نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا » مَنْ هو هذا المخلوق الذى احتاج الخالق فى خلقتـــه إلى هذا التمييز ؟! لا تتعجب أيها الانسان ، لأن اكرم كل المخلوقات المذكورة هو الانسان ، الذى من أجله ابدعت هذه كلها : سماء ، ارض ، بحر ، شمس ، قمر ، كواكب ، دبابات سابحة وكل البهائم .

فان قال قائل : إن كان الانسان أكرم من كل المخلوقات فلماذا خُلق اخيراً ؟! بالواجب كان ذلك ، لأنه كما أن الملك إذا اراد دخول مدينة ، فبالضرورة يتقدمه

حُمّال السلاح ، وكل الآخرين ، كى إذا ما انتظمت أمور المملكة يأتى هو بعد ذلك ، هكذا فعل الله ، فعندما عزم على تثبيت الانسان كملك ورئيس على كل ما فى الأرض خلق هذا الجمال كله أولاً وحينئذ أبدع العتيد أن يستولى عليها .

وقول الله « نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا » فالرتبة ليست فى الجوهر لكن المضاهاة فى الرئاسة ولهذا السبب عطف كلامه فقال « فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض » .

وقوله « نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا » أى اننا نصير مشابهين لله فى الوداعة وحسن المؤانسة وحد الفضيلة ، كما قال المسيح « فكونوا انتم كاملين كما أن اباكم الذى فى السموات هو كامل » (مت ٥ : ٤٨) .

« فخلق الله الانسان على صورته . على صورة الله خلقه ذكراً وانثى خلقهم » (ع ٢٧) .

قول موسى « ذكراً وانثى خلقهم » فلا تستغرب هذا القول ايها الحبيب ، لأن هذه العادة مألوفة عند كل الأنبياء ، وهو أن يتكلموا على ما لم يصر كشىء قد صار لأنهم لما كانوا ينظرون بالأعين الروحانية العتيد أن يكون بعد عدة من السنين ، لهذا السبب لاحظوا الأمور العتيدة كأنها موضوعة تجاه العيون وتكلموا عليها هكذا ، ولكى تعلم بيان هذا اسمع الطوباوى داود هاتفا ومتنبئا على أمور السيد المسيح قبل اجيال هذا تقديرها فقال « ثقبوا يدى ورجلى . أحصى كل عظامى وهم ينظرون ويتفرسون فىّ . يقسمون ثيابى بينهم وعلى لباسى يقترعون » (مز ٢٢ : ١٦ – ١٨) .

تأمل كيف تنبأ داود على ما هو عتيد أن يكون بعد زمان كثير ، كأنه شىء قد حدث ، هكذا وموسى الطوباوى يرمز لنا هنا الى خِلقة المرأة .

أشاهدت كيف شرح موسى ما لم يكن كأنه شىء قد كان ، لأن الأعين الروحانية هذا تقديرها ، أما الأعين الجسدية فلا تستطيع أن تبصر المنظورات هكذا كنظر الأعين الروحانية ؟ .

« وباركهم الله وقال لهم اثمروا واكثروا واملأوا الأرض واخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض » (ع ٢٨) .

قول موسى « وباركهم الله » أنظر محبة الرب للبشر إذ قبل أن يُبدع المرأة جعلها مساهمة للرجل فى الرئاسة وأهلها للبركة .

وقول الرب « وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض » أرأيت هذا السلطان الذى لا يوصف ؟ أنظرت عظمة الرئاسة ؟ أشاهدت كل الخلائق تحت طاعة الانسان ؟ وامعن النظر فى فخامة الكرامة وحسن نية الرب للإنسان ، واذهل من محبة الرب للبشر التى لا توصف .

« وقال الله إنى قد اعطيتكم كل بقل يبزر بزرا على وجه كل الأرض وكل شجر فيه ثمر شجر يبزر بزرا لكم يكون طعاما . ولكل حيوان الارض وكل طير السماء وكل دبابة على الارض فيها نفس حية اعطيت كل عشب أخضر طعاما وكان كذلك » (ع ٢٩ ، ٣٠) .

قول الله « انى قد اعطيتكم كل بقل يبزر بزراً على وجه كل الارض » تأمل أيها الحبيب حقيقة الألفاظ ومحبة الله للبشر التى لا توصف ، ولا تتجاوز شيئا من المقولات على الاطلاق ، فالمخاطبة كلها للجنس البشرى ، والمرأة لم تكن قد خلقت بعد .

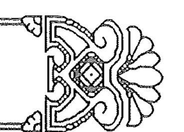
وانظر كيف أن محبة الله لم تقتصر على الرجل والمرأة التى ما كانت قد برزت إلى الابداع بعد ، لكنها شملت الحيوان لأنه لما قال « وكل شجر فيه ثمر شجر يبزر بزراً لكم يكون طعاماً » عطف كلامه فقال « ولكل حيوان الأرض » .

وقوله « وكان كذلك » أى أن كل ما أمره الرب برز إلى الفعل .

« ورأى الله كل ما عمله فاذا هو حسن جداً . وكان مساء وكان صباح يوماً سادساً » (ع ٣١) .

فماذا يكون مساوياً لهذا التصديق ، عندما يقول مُبدع الكل إن كل الكائنات حسنة جداً ، لكن إن كنا نحن لضعف أفكارنا نجهل الحاجة إلى الكائنات ، فإن الله قد أبدع الكل بحكمته وحسن تدبيره ومحبته للبشر .

✣ ✣ ✣



الأصحاح الثانى

« فأكُملت السموات والارض وكل جندها[7] » (ع ١) .

تأمل اختصار الكتاب الالهى وقلة تكليفه عندما ذكر العناصر الحاوية للخليقة فلم يذكرها واحداً فواحداً لكنه قال « فاكملت السموات والأرض وكل جندها » ، وأوضح بهذا كل ما برسم السماء والأرض .

« وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل » (ع ٢) .

لم يُرد الرب أن يخلق شيئا آخر فى اليوم السابع لأن كل ما أراده قد تم .

« وبارك الله اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذى عمل الله خالقا » (ع ٣) .

ما معنى « وقدسه » أى أفرزه ، ثم ان الكتاب الالهى عندما أراد أن يعلمنا السبب الذى لأجله قال « وقدسه » أضاف إلى ذلك « لأنه فيه استراح من جميع عمله الذى عمل الله خالقاً » ، ومن هنا أراد الله أن يفيدنا تعليما على طريق الرمز أن نفرز يوم واحد من الاسبوع لعمل الروحيات ، لأن الرب لهذا السبب فى ستة أيام كمّل كل الخليقة وأهّل السابع للبركة « وقدسه » لأنه كفّ عن اعماله فيه التى ابتدأ بعملها .

قول الكتاب الالهى هنا أن الله « استراح من جميع عمله » والمسيح يقول فى الانجيل « أبى يعمل حتى الآن وأنا أعمل » (يو ٥ : ١٧) ، فلا تظن أن فى هذه المقولات تناقضا ، ولا يوجد ، لأنه لا يوجد تضاد فى الموضوعات فى الكتاب ، لأن الكتاب يقول هنا إن الله « استراح من جميع عمله » معلماً إيانا انه استراح فى اليوم السابع من أن يُبدع من العدم إلى الوجود ، أما قول السيد المسيح « أبى يعمل حتى الآن » فانه يدل على اهتمامه الدائم بنا .

« هذه مبادئ[8] السموات والارض حين خلقت . يوم عمل الرب الإله الأرض والسموات » (ع ٤) .

---

(٧) كل جندها : كل شيء على حسب جنسه ونظامه وترتيبه .

(٨) مبادئ أو تواليد .

تأمل عقل موسى النبى العجيب ، والأولى أن نقول تعليم الروح القدس ، لأنه بعد أن شرح لنا جزءً فجزءً من كل انواع الخليقة واعمال الايام الستة وخلقة الانسان والسلطان المفوّض اليه على كل المبصرات هو الآن يصف الكل إجمالاً .

« كل شجر البرية لم يكن بعد فى الارض وكل عشب البرية لم ينبت بعد . لأن الرب الإله لم يكن قد امطر على الأرض ولا كان إنسان ليعمل الأرض . ثم كان ضباب يطلع من الارض ويسقى كل وجه الارض » (ع ٥ ، ٦) .

معنى هذا أن الاشجار والاعشاب التى لم تكن موجودة من قبل برزت الى الوجود وظهرت بغتة بكلمة الله وأمره . وبعد هذا يتبين لنا أن الأرض ما افتقرت إلى عمل إنسان ، لأنه « ولا كان إنسان ليعمل الأرض » .

وإذ سمعت هذه الأمور ، اعلم كيف انه منذ البدء برز إلى الإبداع كل الموجود على الارض ولا تعتقد أن كل هذا الإبداع كان باهتمام الخادمين للأرض ، لكن صارت هذه كلها بالقول والأمر الصادر اليها من البدء من خالقها ، لكى تعلم إنها ما احتاجت الى مساعدة بقية العناصر ، لكنها اكتفت بأمر الخالق .

« وجبل الرب الإله آدم [٩] ترابا من الأرض ونفخ فى انفه نسمة حيوة فصار آدم نفساً حية » (ع ٧) .

إن الله المهتم بخلاصنا أرشد لسان موسى النبى هكذا نحو تعليمنا فقال « فخلق الله الانسان على صورته على صورة الله خلقه » (تك ١ : ٢٧) . ولئلا يجهل آدم قوام جوهره ، فيتخيل فى نفسه أمراً عظيما ويتجاوز خواص حدوده ، لهذا السبب عاود يعلمه من اين اُبدع الإنسان الأول وكيف اُبدع فعرفه أن قوامه من الأرض التى منها الحبوب ومنها الحيوانات التى لا نطق لها ، لذلك قال موسى هنا « وجبل الرب الإله آدم ترابا من الأرض » فاذا أمعنا النظر من أين اجتازت طبيعتنا ، واذا ما افتكرنا فى جوهرنا نقمع ونذل ونتعلم الملاطفة ، إن كنا نرفع الحواجب .

ولكى يعلمنا موسى أن محبة الله للبشر اختارت أن يكون لهذا المخلوق من الأرض نفساً ناطقة قال : « ونفخ فى انفه نسمة حيوة فصار آدم نفسا حية » إذ إن الله حوّل المجبول من الأرض نفخة هى فعل روحانى ، وصار هذا قواماً لجوهر نفسه .

(٩) آدم : أو الإنسان .

« وغرس الرب الاله جنة فى عدن (١٠) شرقا ووضع هناك آدم الذى جبله » (ع ٨) .

قول موسى « وغرس الرب الإله جنة » أمر الرب أن تكون فى الأرض جنة كى يتزكى فيها الانسان الذى خلق ، إذ إن الرب أبدع الجنة لأجله .

وقوله « وغرس الرب الإله جنة فى عدن شرقا » وضع الطوباوى موسى فى الكتاب الالهى اسم المكان لئلا يتمكن الذين يريدون الهذيان باطلاً أن يخدعوا اسماع البسطاء ويقولوا إن الجنة ليست موجودة فى الأرض لكن فى السماء وينطقوا بخرافات هذا تقديرها ، لهذا الحال أتوسل أن نسد مسامعنا عن هذه الاشياء كلها ونتبع قانون الكتاب المقدس .

« وانبت الرب الاله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل وشجرة الحيوة فى وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر (١١) . وكان نهر يخرج من عدن ليسقى الجنة ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس اسم الواحد فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة (١٢) حيث الذهب . وذهب تلك الأرض جيد هناك المقل وحجر الجزع . واسم النهر الثانى جيحون (١٣) هو المحيط بجميع ارض كوش (١٤) . واسم النهر الثالث حداقل (١٥) وهو الجارى شرقى أشور والنهر الرابع الفرات » (ع ٩ - ١٤) .

ها نوع آخر أيضا من الاحسان لأجل الكرامة المفوضة إلى المخلوق ، لأن الله لما وضع آدم فى الجنة أمر أن يبرز من الارض اشجارا مختلفة قادرة على إطرابه بالمنظر

---

(١٠) عدن : اسم عبرى معناه « بهجة » ، ويقول البعض ان ارمينيا هى عدن ، وهناك مَنْ يقول إن نهر عدن ما هو إلا نهر الفرات .

(١١) قال بعضهم « سميت شجرة معرفة الخير والشر لأن آدم بأكله منها عرف الخير بفقده له والشر باختباره إياه » .

(١٢) الحويلة : اسم سامى معناه « رميلة » .

(١٣) جيحون : اسم عبرى معناه « نبع متدفق » .

(١٤) ارض كوش : تدل فى اكثر الاحيان على بلاد الحبشة .

(١٥) حداقل : دجلة .

وملائمة للمأكل معا لأن موسى يقول « وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل » أى قادرة أن تفرح بالمشاهدة وتعطى لذة عظيمة فى الأكل

أرأيت هذا التصرف الذى لا شقاء معه ؟ أشاهدت هذا العيش العجيب كملاك ؟ هكذا كان آدم يتنعم بالتصرف فى الجنة ، بغاية الفسحة ونهاية الكثرة .

« وأخذ الرب الاله آدم ووضعه فى جنة عدن ليعملها ويحفظها » (ع ١٥) .

قول موسى « وأخذ الرب الإله آدم ووضعه فى جنة عدن » انظر كم استعمل الله من الاهتمام بالانسان المخلوق .

وعندما قال « ووضعه فى جنة عدن » أضاف « ليعملها ويحفظها » وهذا اهتمام عظيم ، لأن البطالة تعلّم كل رذيلة ، ولهذا السبب أمر الله آدم بالعمل والحفظ ، وربما تتسائل : ماذا تقول ، هل احتاجت الجنة إلى اهتمام آدم ؟! لست اقول هذا ، لكن الله اراد أن يكون لآدم على كل حال عمل يسير ، لأنه لو كان معفياً من كل تعب لانحرف سريعاً إلى الكسل مستعملا لكثير من الكبرياء .

« وأوصى الرب الاله آدم قائلاً من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً » (ع ١٦) .

ماذا يكون اعظم من هذه الكرامة ، إذ منح الله آدم التصرف فى الجنة والتطرب بجمال المبصرات والفرح بما يبصره هناك وأن يتمتع .

امعن النظر ، كم مقدار النظر لاشجار مثقلة بالثمار وصنوف الازهار وفصول النبات ، وكثرة الاوراق ، وكل الاشياء الأخرى الواجب كونها فى الجنة المغروسة من الله ، لهذا السبب تقدم الكتاب الالهى فقال « وانبت الرب الاله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل » (ع ٩) لكى تعرف مقدار هذا الخصب الذى كان يتمتع به آدم .

« وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت » (ع ١٧) .

كأن الله يقول لآدم : ألعلنى اطلب منك شيئا غاليا ومستكرها ، ها أنا ابيحك التمتع بالكل وآمرك أن لا تدنو من شىء واحد فقط .

« وقال الرب الإله ليس جيداً أن يكـون آدم وحده فاصنع له معينا نظيره » (ع ١٨) .

تأمل كيف أن الله الصالح والغنى بالصلاح لم تتوقف احساناته ، لكنه يزيد احسانا على إحسان ، ويريد أن يوشح هذا الانسان بكل كرامة ، ومع الكرامة يجود عليه بسهولة وبمعونة فى المعيشة ، لأنه يقول « ليس جيداً أن يكون آدم وحـــده فاصنع له معينا نظيره » .

ولكى يعلم آدم أن الله عـازم على أن يخلق إنسـانا مسـاوياً له فى الكرامـة ، لهـذا السبب كما قال عنه « نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا » (تك ١ : ٢٦) ، هكذا الآن أيضا يقول « فاصنع له معينا نظيره » .

وقول الرب « فاصنع له معينا نظيره » أى ملائماً ومؤازراً وموافقا له ، مشيراً بذلك إلى المرأة .

« وجبل الرب الاله من الارض كل حيـوانات البرية وكل طيـور السمـاء فاحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها » (ع ١٩) .

قول موسى « وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهـو اسمـها » لا لكى نفـهم حكمة آدم فقط ، لكن ولكى يظهر علامة السيادة بوضعه الاسماء للحيوانات والطيور ، لأن الناس قد اعتادوا أن يضعوا علامة السيادة إذا ما ابتاعوا عبيداً أن يضعوا لهم اسماء لهذا السبب جُعل لآدم كسيد أن يضع اسما لكل الحيوانات والطيور .

وامـعن النظر كم كـان لآدم من الحكمـة حـتى انه وضع الاسـمـاء لأجناس هذا تقديرها من الحيوانات والطيور .

أرأيت هذا السلطان الكامل ، أشاهدت شرف هذه السيـادة ، وكـيف أن السبـاع والنمورة والافاعى والعقارب والحيات وكل الدبابات الأخرى التى هى أشد توحشا من هذه جاءت إلى آدم كسيد بكل خضوع ، وقبلت منه الاسماء ولم يفزع من واحد من هذه الوحوش ؟ .

إن تلك الاسماء التى وضعها آدم لتلك الحيوانات والطيور ثابتة إلى هذا الوقت الحاضر ، هكذا اثبتها الله لكى تكون لنا تذكرة دائمة بالكرامة التى قبلها آدم منذ الابتداء من الرب .

« فدعا آدم اسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية واما لنفسه فلم يجد معيناً نظيره » (ع ٢٠) .

قول موسى « فدعا آدم إسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية » تأمل من ههنا أيها الحبيب السلطة الذاتية لآدم وسمو عقله ، لأن القادر أن يضع للحيوانات الاسماء الملائمة والطيور والوحوش ويعطى للكل ما يناسبه ، فكيف لا يكون مملوءً من كل حكمة وحذر ، ولاحظ من هنا الآن كم هو مقدار قوة تلك النفخة ، وكم هى حكمة النفس التى جاد بها الرب على آدم .

وقوله عن آدم « وأما لنفسه لم يجد معينا نظيره » ، فكأنه يعلمنا بهذه الكلمات أن الخلائق كلها أخذت التسمية من آدم ، ولكن ليس واحد منها أهلاً لأن يوجد مؤازاً له !! .

« فأوقع الرب الاله سُباتا [١٦] على آدم فنام فاخذ واحدة من اضلاعه وملأ مكانها لحماً » (ع ٢١) .

لما كان خالق طبيعتنا الحكيم الحسن التدبير عتيد أن ينتزع من جنب آدم ضلعاً واحدة ، فلكى لا يحدث له وجعاً البتة قاد اليه نوماً هذا تقديره .

« وبنى الرب الاله الضلع التى أخذها من آدم امرأة واحضرها إلى آدم » (ع ٢٢) .

قول موسى « وبنى الرب الاله الضلع التى أخذها من آدم امرأة » فأى قول يتمكن من تفسير هذا ، أى عقل يقدر على إدراكه ، فكيف من هذا الضلع الواحد خلق إنسانا كاملا ، ولما لى اقول كيف خلق انسانا من هذا الضلع الواحد ؟! اجبنى كيف كان الانتزاع ؟ كيف لم يحس آدم بالأخذ ؟! لكنك لا تقدر أن تقول شيئا من هذا ، ذاك وحده الخالق قد عرف الخليقة ، فإن كنا نحن لا نقدر أن نحد ما هو فى ايدينا ، فكيف تدرك تلك الأمور التى لا تقف على جوهر معرفتها ؟ .

---

(١٦) سُباتا : نوماً ثقيلا .

وقوله « وبنى الرب الاله الضلع التى اخذها من آدم امرأة » انظر تحقيق الكتاب ، لأنه ما قال جبل لكنه قال « وبنى » ، لأن الرب لم يعمل خلقة أخرى لكن من الخلقة الصائرة أخذ جزءً يسيراً وبنى هذا الجزء الصغير جداً فأخذ فى تأليف اعضاء هذا تقديرها ، وخلق حواس هذا حدودها ، وأصلح إنسانا تاماً كاملاً .

وقوله « وأحضرها إلى آدم » مبينا بذلك أن الرب بسبب آدم أبدع المرأة .

وقوله « واحضرها إلى آدم » فكأن الرب يقول لآدم هنا ، لما لم يوجد فى كل الاشياء الأخرى معينا لك ، ها الذى وعدتك به ، لأننى كنت قد قلت لك من قبل « فاصنع له معينا نظيره » (ع ١٨) ، فقد وفيت بهذا ، وها أنا معطيك إياه .

« فقال آدم هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى هذه تدعى امرأة لأنها من امرءٍ اخذت لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً » (ع ٢٣ ، ٢٤) .

تأمل أيها الحبيب تلك الحكمة التى لا توصف المفوضة إلى آدم من الله ، إذ أُهل للنعمة الأبوية وأنه تنعم من تعليم الروح القدس ، والدليل على ذلك أنه لم يعرف شيئا مما حدث له ، ولكن عندما أحضر الرب إليه المرأة قال بروح النبوة « هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى » ثم لكى تعلم صحة نبوته اسمع ما قاله بعد ذلك « هذه تدعى امرأة لأنها من امرء أُخذت » أرأيت كيف يشرح لنا آدم كل ما جرى بنبوته ؟ .

ولما برهن آدم على العتيدات أن تحدث قال « لذلك يترك الرجل اباه وامه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً » ، اجبنى ، من أين كان لادم أن ينطق بمثل هذا ؟! من أين عرف المستأنف ، وأن جنس الناس سيكثر ؟ وكيف علم أنه سيكون اجتماع الرجل بالمرأة لأنه بعد أن تجاوزا الوصية صار الاجتماع وقبل ذلك الحين كانا يتصرفان فى الجنة كالملائكة ؟ ولم يكونا ملتهبين بالشهوة ، ولا محاصرين من آلام أخرى ، ولا كانا موضوعين تحت ضروريات الطبيعة ، لكنهما خُلقا بالكمال غير فاسدين ولا مائتين ؟ .

قل من أين كان لآدم أن ينطق بهذه الأمور ، انه من الواضح ان آدم مختار النعمة النبوية حيث نظر هذه الأمور كلها بالأعين الروحانية ؟ .

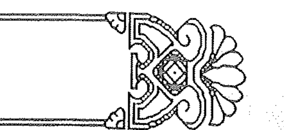
فليس اسهابى فى هذا على الإطلاق ، لكن لكى تعلم الآن من هنا محبة الله الفائقة للبشر التى اظهرها نحو آدم ، مانحاً إياه السيرة الملائكية وواضعاً له ربوات من الإحسانات التى هذا محلها .

« وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يخجلان » (ع ٢٥) .

لأن الخطية والمعصية لم تكونا قد دخلتا بعد ، وكان آدم وحواء متوشحين بالمجد من الله ، ولهذا السبب لم يستحيا ، أما بعد تجاوزهما الوصية فدخل الخزى ومعرفة التعرى .

انظر كيف كان آدم وحواء اعلى من كافة الأمور الجسدية ، كيف سكنا الأرض كساكنى السماء ؟ وكانا بجسد ، ولم يكونا مفتقرين إلى ما للأجساد لأنهما لم يحتاجا إلى سقف ولا إلى ثياب ، ولا إلى شيء مثل هذا .





الأصحاح الثالث

« وكانت الحية [١٧] أحيل جميع حيوانات البرية التى عملها الرب الإله فقالت للمرأة أحقا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة » (ع ١).

قول موسى « وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التى عملها الرب الإله » انظر حسد الشيطان الخبيث ، وحيله الكثيرة الاشتباك ، لأنه لما رأى الانسان المخلوق مكرما بالكرامة العليا ، وليس له شيء على اكثر الأمر أنقص من الملائكة حسبما قال الطوباوى داود : « فمَنْ هو الانسان حتى تذكره وابن آدم حتى تفتقده وتنقصه قليلاً عن الملائكة وبمجد وبهاء تكلله » (مز ٨ : ٤ ، ٥) ، فحين رآه الشيطان ملاكا أرضيا ذاب من الحسد ، فبالغ فى الاحتيال حتى أعدم آدم حُسن نية الله فيه ، ولما رأى أن الحية اكثر حيلة من جميع الوحوش ، فاستعملها مستدعيا إلى الخديعة الإناء الضعيف ، أعنى المرأة .

وقوله « فقالت للمرأة » لاحظ أيها الحبيب من هذا ، أنه لم يكن فى البداية شيء مفزع من الوحوش الكائنة ، لا للرجل ولا للمرأة .

وقول الحية للمرأة « أحقا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة » تأمل هنا دقة مكر الشيطان ودهائه ، إذ أدخل ما لم يقال من الله فى ترتيب المشورة والسؤال ، وكمَنْ يصنع اهتماما بهما ، لأن ظاهر القول يدل على هذا ، فكأنه يقول : لأى سبب اعدمكما الله منفعة هذا تقديرها ، ولماذا لم يفسح لكما أن تجتازا من الخيرات التى فى الجنة ، لماذا جاد عليكما بمتعة النظر ولم يسامحكما بنوال ذلك واستثمار اللذة العظيمة ، لأى حال فعل هذا ، ما الفائدة فى الجنة اذا ما لم يتمكن بالاستمتاع بما فيها ، أرأيت كيف ان الشيطان ينفث فى المرأة سمه ؟ .

« فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل . واما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا » (ع ٢ ، ٣) .

لقد كان الخليق بالمرأة من هذه المخاطبة أن تعرف فرط حسد الشيطان وأن ما أورده

---

(١٧) الحية : فى العبرانية « نحش » فهى و « الحنش » فى العربية من اصل واحد قلبت فيه بعض الأحرف .

ليس بموجود ، وقد كانت قادرة أن تعرف بسرعة خدعته ، وتخاطبه مخاطبة مَنْ قد تكلم بالفضيلة التى لا يحتاج اليها ، وألا تحط نفسها إلى مثل هذه المذلة ، فلا تردُّ ، وقد كان الأليق بها ألا تنقاد إلى مفاوضة الحية من البداية ، لكن لفرط تهاونها وقلة تمييزها ليس انها ما رجعت فقط لكن وكشفت له كل الوصية ، ووضعت اللآلئ للخنزير .

فلقد كان الخليق بك ايتها المرأة أن تبعدى عن الحية ، إذ تكلمت بالضد ، فقولى لها : امضى فإنك مطغية ، أنت ما عرفت ولا قوة الوصية المفوضة لنا ولا عظم التمتع ، ولا فرط الجود والسعة ، فإن الرب الخالق لكثرة صلاحه فسح لنا فى التمتع والتسلط على الكل ، ورسم لنا الابتعاد عن شيء واحد ، وهذا أيضا ولاجل مراعاته إيانا لئلا اذا نلنا منه يصطادنا الموت .

لو كانت المرأة وفية كان من الواجب أن تقول للحية هذا القول ولا تعاود إلى مفاوضتها ولا إلى سماع شيء من كلامها ، لكنها اشهرت الوصية وتفوهت بما قاله الله لهما .

« **فقالت الحية للمرأة لن تموتا** » (ع ٤) .

فمَنْ يؤهل المرأة لعفو إن كانت بالكمال قد أصغت بمسامعها إلى المتهجم بهذا القول ، لأن الله قال لهما « لا تأكلا منه ولا تمسـاه لئلا تموتا » (ع ٣) ، وهذا قال : « لن تموتا » !!.

« **بل الله عالم انه يوم تأكلان منه تنفتح اعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر** » (ع ٥) .

تأمل هذا التضليل الكامل ، لأن الشيطان لما ملأ الكأس من السم القاتل ناوله للمرأة أما هى فلم ترد أن تعرف هذا التضليل الكامل ، لأنها كانت قادرة لو أرادت أن تفهم هذا من بوادر القول ، لكنها سمعت منه أن الله لهذا السبب حظر عليهما الأكل ، لأنه عرف أن اعينهما ستنفتح وسيصيران كالإله عارفين الخير والشر .

« **فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وان الشجرة شهية للنظر فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها ايضاً معها فأكل** » (ع ٦) .

قول موسى « فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وانها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر فاخذت من ثمرها وأكلت » عندما تفخمت المرأة بأمل مساواة الله تخيلت العظائم ، لأن حيل العدو هذا تقديرها ، فعندما قادها باضلالها إلى غاية العلو حينئذ أحدرها إلى قعر الهاوية ، لأنها حين تخيلت مساواة الله سارعت بالأكل ، وإلى هناك مدت الفكر والعقل ولم تترصد لشيء آخر إلا كيف تشرب الكأس الممزوجة من الشيطان الخبيث ، حقاً « فان المعاشرات الردية تفسد الاخلاق الجيدة » (١ كو ١٥ : ٣٣) ، لأنه على أى حال قبل مشورة هذا الشيطان لم يعرض لها شيء من هذا ، ولا ميزت الشجرة ، ولا لاحظت جمالها لما كانت مراقبة لوصية الله ، أما الآن عندما انخدعت من هذا الوحش الخبيث ولم تُقنع بهذا فقط ، لكن وان تصير مساوية لله ، حينئذ أمل الوعد أنهضها إلى الأخذ والأكل .

وقوله « فأخذت من ثمرها وأكلت واعطت رجلها أيضاً معها فأكل » ، ماذا فعلت أيتها المرأة ، لماذا قبلت المشورة المهلكة ووطأت الناموس المعطى من الله واستعملت شَرَهاً هذا تقديره وتجاسرت على الأخذ من الشجرة التى حظر الرب الدنو منها ، واصغيت الى المقولات من الحية وتخيلت فى مشورتها انها أولى بالتصديق من الوصية المقدمة من الله ، وانخدعت خديعة هذا تقديرها ، حتى انك لا تستحقين عفونا ، فلأى سبب هكذا أخزيت ذاتك وتركت الذى من اجله خُلقتِ وإلى مؤازرته اُبدعت ، وله شريكة فى المنزلة صرتِ ، فلأى حال اخذت رَجُلكِ شريكاً فى هذه الزلة الردية والذى رتبت له معينة صرتِ عليه محتالة ، ومن جراء أكل يسير عريتيه مع نفسك من حسن نية الله .

وقوله « وأعطت رجلها أيضا معها فأكل » ان تهاون آدم لكثير ، لأنه إن كان هو والمرأة معاً فى الجنس ، لكنه كان ينبغى أن تكون وصية الله له شعاراً ويجعلها فوق تلك الشهوة الخطرة ولا يشارك فى العصيان ولا يحرم حياته خيرات هذا تقديرها من قبل لذة حقيرة ، ويقاوم المحسن اليه هكذا والمظهر له كرامة هذا محلها ولا انت يا هذا اخترت أن تحفظ الوصية السهلة لكن عساك عندما سمعت من المرأة وعد المشورة المهلكة زهوت أنت أيضا بالأمل وشاركت فى الأكل باستعداد ، لهذا السبب وجب أن يحل بكما السخط ، وتجربة الأمور تعلمكما ألا تعتقدا فى مشورة الشيطان الخبيث .

« فانفتحت اعينهما وعلما انهما عريانان فخاطا أوراق تين وصنعــا لانفسهما مآزر[١٨] » (ع ٧) .

قول موسى « فانفتحت اعينهما وعلما أنهما عريانان » ليس الأكل من الشجرة هو الذى أفتح اعينهما ، لأنهما كانا ينظران قبل المخالفة ، لكن لما كان الأكل منها هو سبب العصيان وتجاوز الوصية المفوضة من الله ، لهذه العلة نفسها انتزع منهما بهاءهما الشامل لهما إذ جعل انفسهما غير مستحقين لهذه الكرامة .

وقوله « فانفتحت أعينهما وعلما انهما عريانان » فلأجل تجاوزهما الوصية تعريا من الحنو من الله ، فاخذا يحسان بالتعرى ، لأنهما ما كانا قبل هذا يشعران بذلة هذه صفتها ، ولا عرفا انهما عاريان لأنهما ما كانا عاريين ، لأن البهاء الذى من الله كان شاملاً لهما اكثر من كل ثوب .

وقوله « فخاطا اوراق تين وصنعا لانفسهما مآزر » وبعد الأكل اعنى بعد تجاوز الوصية ، انحدرا إلى مذلة هذا تقديرها ، حتى انهما التمسا سترة عندما لم يحتملا الخزى ، لأنه عند مخالفة الوصية زال ثوب المجد الذى كان عليهما ، فاحسا بالتعرى واحدق بهما خزى لا يوصف .

امعن النظر أيها الحبيب فى مشورة الشيطان ومن أى علو أحدرهما ، وإلى أى هوة أهبطهما ، لأنهما كانا متوشحين مجداً هذا تقديره ، والآن فقد اخاطا لهما ورق التينة وجعلا لهما منها ثياباً ، هذا ربح خديعة الشيطان ، هذه مشورة ذاك الذى ما سبب لهما العظائم فقط ، لكن واظهرهما خاليين وعاريين من الموجودات لهما .

« وسمعا صوت الرب الاله ماشيا فى الجنة عند هبوب ريح النهار فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الاله فى وسط شجر الجنة » (ع ٨) .

قول موسى « وسمعا صوت الرب ماشيا فى الجنة » ماذا تقول ، هل الله تتصل به رجلان فيمشى ؟! لا يكون هذا ، لأن الموجود فى كل مكان والمالئ الكل الذى السماء كرسيه والارض موطئ قدميه كيف يسير فى الجنة لكن فإن قال قائل فما معنى

(١٨) مآزر : ما يستر العورة من الحقوين إلى أسفل .

قوله « وسمعا صوت الرب ماشيا فى الجنة » ؟! أجيبه : اراد الله أن يمنحهما إحساسا هذا تقديره ، لكى يلقيهما فى الهلع والخوف .

وقوله « وسمعا صوت الرب الاله ماشيا فى الجنة عند هبوب ريح النهار » لكى تعلم محبة الرب للبشر ، لأنه ولا هذا الحادث تقاعد عنه ، لكنه سارع الى ملاحظة ما حدث وجسامة الجرح فحرص على معالجته لئلا ينتشر الجرح فيتعذر شفاؤه ، لهذا السبب اجتهد فى استدراك الأمر ولم يهمل ولا لحظة من الزمان .

وقوله « فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الاله » ، لا تعجب أيها الحبيب ، لأن هذه عادة المجرمين ، انهم على كل حال يجتهدون فى الاختفاء ، اذ ان آدم وامرأته عندما لم يحتملا الخزى الذى أصابهما بعد الخطية وعندما تعريا من ذلك البهاء اندفعا إلى هذا الاختباء .

وقوله « فى وسط شجر الجنة » فكما ان العبيد الجانين المستحقين للضرب اذا لم يتمكنوا من الاختفاء عن سيدهم ، يأخذون فى الجرى هنا وهناك فى زوايا المنزل ، هذا ما فعله آدم وامرأته ، لأنهما لما لم يجدا ولا مهرباً واحداً اختبئا فى المنزل نفسه أعنى الجنة .

« **فنادى الرب الاله آدم وقال له أين أنت** » (ع ٩) .

قول موسى « فنادى الرب الاله آدم » يحق علينا أن نذهل من فرط محبة الله للبشر اذ ليس أنه دعى آدم فقط لكنه استدعاه بنفسه ، وهذا ما لا يفعله الناس مع المساوين لهم فى الجنس والمشاركين لهم فى نفس الطبيعة .

وقول الرب لآدم « أين أنت » أنظرت كم قوة فى هذه اللفظة البسيطة ، أما النداء نفسه فلمحبة لا توصف .

وقوله « أين أنت » فكأنه يقول لآدم لقد خلقتك متوشحا جمالا آخَر ، وقد وجدتك الآن للعرى مشتملاً . « أين أنت » ومن أين حدث لك هذا ، مَنْ قادك الى هذا التغيير ، أى لص وناقب استأصلِ ثروة غناك هكذا وتركك فى عوز هذا تقديره ، من أين كان لك الاحساس بالتعرى ، مَنْ كان لك سببا فى انتزاع هذا اللباس العجيب الذى كنت مشتملاً إياه ، ماذا حدث هل التمست الاختفاء من المحسن اليك احسانا هذا تقديره ، والرافعك إلى كرامة هذا محلها .

« فقال سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان فاختبأت . فقال مَنْ اعلمك انك عريان هل اكلت من الشجرة التى اوصيتك ان لا تأكل منها (ع ١٠ ، ١١) .

تأمل محبة الرب للبشر ، وتفاقم صلاحه ، لأنه كان قادراً ألا يؤهل المجرم للاجابة لكن يوجب عليه القضية ، اذ تجاوز ما كان قد رسمه له ، فتصبر عليه واحتمله ، وسأله ، واستدعى منه الجواب ، وأيضا سأله على انفراد مستدعياً إياه إلى الإجابة ، معلما إيانا بهذا ألا نستعمل الاغلاظ مع مَنْ يخالفوننا ، ولا نظهر نحوهم جفاء الوحوش ، لكن نستعمل طول الروح والشفقة كمَنْ يحكم على اعضائه الخاصة مازجين العقاب بالمودة .

تأمل ايها الحبيب فرط صلاح الله كيف يخاطب آدم مخاطبة الخليل لخليله ، ويشكوه شكوى مَنْ تجاوز وصاياه بقوله : « مَنْ اعلمك أنك عريان هل اكلت من الشجرة التى أوصيتك أن لا تأكل منها » وكأن الرب يقول له : أجبنى من أين لك المعرفة بالتعرى ، ما هذا المستجد والمستغرب ، مَنْ استطاع أن يطلعك على هذا ، إلا أن تكون أنت العلة فى عريك ، أن تكون قد أكلت من الشجرة التى اوصيتك أن لا تأكل منها ، ألعلنى ضيقت عليك أسباب الاستمتاع ؟ أما جدت عليك بكل راحة وأعطيتك السلطان على كل ما فى الجنة ، وأوصيتك الامتناع من شيء واحد لكى تعلم أن لك سيداً ، وأن الطاعة واجبة له عليك ، فما هذا الاهمال الذى انتهى بك حتى انك لم تبتعد من هذا الشيء الواحد ، لكنك سارعت إلى الاستخفاف بالوصية المفوضة منى اليك ، وألقيت ذاتك فى رذائل هذا محلها ، فأية منفعة صارت لك ؟ .

أرأيت مودة القاضى ؟ أشاهدت مؤانسة الرب وملاطفته ؟ ألاحظت التنازل الذى يعلو كل قول وفكر ؟ أعاينت كيف بالسؤال وبقوله له « من اعلمك أنك عريان هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك أن لا تأكل منها » ، يريد ان يفتح له ابواب الجواب ، لكى يظهر نحو المجرم هكذا مودته الخاصة للبشر ؟ .

« فقال آدم المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلت » (ع ١٢) .

وكأن آدم يقول للرب هنا إن التى اعطيتنى إياها هى التى ناولتنى من الشجرة فأكلت ، اننى قد علمت اننى اخطأت ، لكن المرأة التى قلت أنت عنها « فاصنع له

معينا نظيره » (تك ٢ : ١٨) هى صارت لى علة فى هذه المذلة ، لأننى ما رجوت انها توشحنى بهذا الخزى ، أنت اعطيتنى إياها ، أنت أوردتها إلىّ .

ظن آدم بهذه الاقوال أنها تقيم العذر له لكنها أبعدته عن كل عفو ، وكأن الرب يقول هنا لآدم : أى عفو تستحق انت المهمل اسمي والناسي لوصاياى ، لأن المرأة ان كانت عرضت عليك بالأكل ، لكن الوصية التى لى وخوف السخط كانا كافيين أن يجعلاك أن تهرب من الأكل ، ألعلك كنت جاهلاً ؟ ألعلك ما علمت بهذا السبب ؟ اننى تقدمت فقلت لك اهتماماً بك لئلا تتهور فى هذه الأمور ، إلا انه وان كانت المرأة ساعدتك فى تجاوز الوصية ، إلا انك لست معفياً من اللائمة ، إذ كان اللائق بك تصديق ما عهدت به اليك ، وليس الامتناع من الأكل فقط ، لكن وأن توضح للمرأة جسامة الهفوات ، لأنك رأس لها ، وهى من اضلاعك أُبدعت ، فأما انت يا هذا فعكست النظام فتبع الرأس للجسد ، وصار الأعلى أسفل ، لهذا السبب لما خالفت النظام جُعلت الآن فى مثل هذا الحال بعد أن كنت قبل هذا مشتملا ببهاء هذا تقديره ، فمن إذاً يندب كما ينبغى خروجك من خيرات هذا محلها ؟ لكن إن كانت هذه الاشياء كلها عرضت لك فلا ترجع السبب على آخر البتة إلا على نفسك وتهاونك ، لأنك لو لم تُرِدْ لما كانت المرأة قدرت عليك ، ألعها توسلت ؟ اتراها فاوضت ؟ اعساها خدعت ؟ أعطت فقط ، وانقدت أنت إلى الأكل مع سهولة هذا تقديرها ولم تخطر ببالك ما عهدت به اليك ، لكنك ظننت إنى قد خدعتك ، وكيف يقوم البرهان على خديعتى إياك وقد احسنت اليك احسانا جماً ، ومن أعظمه خطراً وأجله قدراً تقدمى اليك بالامتناع عن الأكل خوفا من تورطك فيما تورطت فيه الآن ، لكن اذ تهاونت بهذا كله فبالتجربة قد علمت فرط الهفوات ، وبعد هذا وقبله فلا تسند العلة إلى المرأة وحدها لكن وإلى كسلك وفشلك .

« فقال الرب الاله للمرأة ما هــذا الذى فعلت فقالت المرأة الحية غوتنى فأكلت » (ع ١٣) .

قول الرب للمرأة « ما هذا الذى فعلت » وكأنه يقول لها : لقد سمعت الرجل واضعا الحجة عليك وراجعاً باللائمة اليك فى الكل ، أنت المدفوعة اليه لمساعدته ، والتى لهذا السبب خُلقت لكى يتعزى من جهتك وينال سلوى من ناحيتك ، اذ أنت شريكة

له فى الجنس والطبيعة ، لأى حال أيتها المرأة فعلت هذا ؟ ولأى سبب صرت علة خزى لرجلك ولنفسك ؟ ما المنفعة الصائرة اليك من هذا الشَرَهَ ؟ ما ربح الخديعة التى باختيارك انخدعت بها وجعلت رجلك شريكاً لك فيها ؟ .

فماذا كان من جواب المرأة ؟ قالت : « الحية غوتنى فأكلت » انظر ايضا هذه بغاية الركاكة تقيم العذر على الزلات ، لأنه كما أن الرجل احال السبب على المرأة فقال « المرأة التى جعلتها معى هى اعطتنى من الشجرة فأكلت » (ع ١٢) ، وهكذا هى أيضا قالت : « الحية غوتنى فأكلت » .

ولما قالت المرأة إن « الحية غوتنى فأكلت » اشارت إلى تلك المشورة العاصية التى قبلتها من الشيطان بالحية وهى « انه يوم تأكلان منه تنفتح اعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر » (ع ٥) .

« فقال الرب الاله للحية لانك فعلت هذا ملعونة انت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية على بطنك تسعين وترابا تأكلين كل أيام حياتك » (ع ١٤) .

تأمل تزايد محبة القاضى للبشر التى لا توصف ، لأن المرأة لما قالت ان « الحية غوتنى فأكلت » (ع ١٣) لم يؤهل الحية بعد ذلك للجواب ، ولا اعطاها موضعا للاحتجاج ولا سألها كما سأل الرجل والمرأة ، لكنه لما سمع من هذين ما أورداه من الحجج نهض إلى هذه الحية التى هى العلة لكل الشرور المؤازرة للشيطان فى المشورة والحسد وقال لها « ملعونة انت من جميع البهائم » .

لكن عسى أن بعض الناس يقول : إن كان الشيطان هو الفاعل والمدخل المشورة فى الحية ، فلأى حال عوقبت الحية بعذاب هذا محله ؟! فأجيبه : وهذا أيضا فقد دل على عظم محبة الله للبشر التى لا توصف ، فكما أن الأب إذا ما عاقب قاتل إبنه يكسر ويحطم السيف الذى صنع به القتال ، على هذا الحذو فعل الله الصالح .

وقول الرب للحية « على بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل أيام حياتك » لما كان أمر اللعنة غير محسوس ولا ظاهر للعيون . لهذا السبب أورد الرب إلى الحية العقاب المحسوس ، لكى يكون امام عيوننا فنذكره دائما وكأن الرب يقول هنا للحية : فكما أن الشيطان العامل والدافع إياك لما تعدى حدوده ، انحط من السموات ، على هذا النحو آمر

بأن تسعى على الأرض ويكون التراب غذاءً لك ، حتى انك لا تتمكنين فيما بعد أن تنظرى إلى فوق بل تكونين دائما فى انخفاض وانحطاط ، وتأكلين التراب دون سائر الوحوش .

« وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه » (ع ١٥) .

وكأن الرب يقول للحية : اننى ساعطى قوة لنسل المرأة هذا تقديرها حتى إنه يكون دائما يطئ على رأسك ، وأما أنت فتكونين تحت رجليه .

انظر أيها الحبيب إلى عقوبة هذه الحية وكم اهتمام بطبيعة الناس يظهره الرب لنا .

« وقال للمرأة تكثيراً اكثر أتعاب حبلك بالوجع تلدين اولاداً والى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك » (ع ١٦) .

قول الرب للمرأة « تكثيراً اكثر أتعاب حبلك » وكأنه يقول هنا : لقد أردت أن تكون حياتك لا شقاء فيها بعيدة عن كل حزن وكآبة ، متوشحة بجسد وأنت لا تحسين بشىء من أمر هذا الجسد ، فلما لم تستعملى هذه الراحة فيما ينبغى ، لهذا السبب أضع لك لجاما لئلا يتزايد جموحك ويتعاظم مرحك ، واقضى عليك بالاتعاب .

وقوله « بالوجع تلدين أولاداً » أى ستلدين أولادك فى الأوجاع ، لكى تعرفى أن هذه الخديعة هى السبب فيما ألمّ بك .

وقوله « وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك » فكأن الرب يقول للمرأة : إننى منذ البدء خلقتك مساوية فى الكرامة مع الرجل فى سائر الأمور وكما قلدت رجلك الرئاسة على الكل هكذا وإياك لكن لما لم تستعملى مساواة الكرامة فيما ينبغى وملت إلى مفاوضة الشيطان وقبلت مشورته ، لهذا السبب اخضعتك لرجلك واظهرته رئيسا عليك حتى تعلمى سيادته ، ولما لم تعرفى أن ترأسى فمن الافضل لك أن تكونى تحت سلطانه وراضخة لسيادته ، فإن الموافق للفرس يجب أن يكون ملجماً على نظام ، لا أن يكون بمعزل عن هذا ، لذلك رأيت انه من الموافق لك أن تكون عودتك إلى رجلك وأن تتبعيه كاتباع الجسد للرأس .

« وقال لآدم لانك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التى اوصيتك قائلاً لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك » (ع ١٧)

قول الرب لآدم « لانك سمعت لقول امرأتك واكلت من الشجرة التى اوصيتك قائلاً لا تأكل منها ، وكأن الرب يقول هنا : عندما سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة الواحدة التى نهيتك عن الأكل منها ، ألعلنى امرتك بالابتعاد عن اشجار كثيرة ؟ من واحدة منعتك .

وقوله لآدم « ملعونة الارض بسببك » انظر محبة الرب للبشر كيف أنه يعاقب الحية ، أما مع آدم فليس الأمر هكذا ، لكن ستكون الأرض ملعونة وبالواجب لأنها لما كانت قد ابدعت من أجل الانسان ، ولهذا السبب أيضا لما اجرم الانسان وضع الرب اللعنة عليها فان اللعنة المتوجهة إلى الأرض تضر براحة الانسان .

وقوله « بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك » أرأيت كيف أن كل واحدة من اللعنات ليست موجهة لآدم وامرأته فقط لكن وليتعلم العتيدون الذين يأتون فيما بعد بالأمور نفسها ؟ .

« وشوكا وحسكا تنبت لك وتأكل عشب الحقل » (ع ١٨) .

ها قد اكد الرب اللعنة على الأرض اذ تعطى شوكا وحسكا ، ليتضاعف التعب والشقاء .

انظر كيف أنه بعد العصيان قد انقادت كل أمور آدم بعكس السيرة الأولى .

« بعرق وجهك تأكل خبزا حتى تعود إلى الأرض التى اخذت منها لأنك تراب والى تراب تعود » (ع ١٩) .

وكأن الرب يقول لآدم : إلى هذا الحد تتحمل هذه الأمور إلى أن تنقضى حياتك وتنحل الى ما منه تكونت ، لأننى ان كنت منحتك طبيعة الجسد لأجل محبتى للبشر ، لكن لما كان هذا الجسد من الأرض فانه ايضا يصير ارضا وذلك « لأنك تراب وإلى تراب تعود » .

« ودعا آدم اسم امرأته حواء لأنها أم كل حى » (ع ٢٠) .

انظر ايضاح الكتاب الإلهى ، إذ علمنا أن آدم وضع التسمية لامرأته فدعاها « حواء لأنها ام كل حى » أى إنها بداية للصائرين منها وأصل وأساس الذى يتكون بعد هذا .

« وصنع الرب الإله لآدم وامرأته اقمصة من جلد وألبسهما » (ع ٢١) .

عاود الكتاب أيضا ليبين لنا صلاح الله وكيف انه لم يهمل المخلوقين منه وهما فى مثل هذا الخزى والتعرى فصنع لآدم وامرأته ثياباً جلدية والبسهما إياها .

« وقال الرب الاله هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحيوة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد » (ع ٢٢) .

قول الرب « هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر » يريد الرب أن يذكرنا بتلك الخديعة التي انخدع بها آدم وامرأته من الشيطان الذى قال « إنه يوم تأكلان منه تنفتح اعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر (ع ٥) ، فجسر آدم وامرأته على الأكل بأمل المساواة بالله ، ولهذا السبب أراد الله هنا أن يخجلهما ويقودهما إلى الاحساس بالذنب والجناية فقال « هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر» .

وقوله « والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحيوة أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد » إذا كان آدم قد بالغ فى الرغبة والشَرَه بالوصية المفوضة إليه وصار ميتاً فلئلا يتجاسر أيضا على الدنو من الشجرة المانحة الحياة الدائمة ، وهو مائت ، فالأفضل له أن يخرج من هنا ، فإن خروجه من الجنة اهتمام به لا سخط عليه .

« فأخرجه الرب الاله من جنة عدن ليعمل الارض التى أخذ منها » (ع ٢٣) .

تأمل ههنا أيضا ايضاح الكتاب الالهى لأنه لم يقل فأخرجه فقط لكنه قال «فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل» ليكون له العمل فكراً دائما لاتضاع العزيمة.

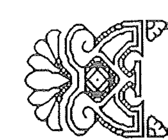
« فطرد الانسان واقام شرقى جنة عدن الكروبيم [١٩] ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة » (ع ٢٤) .

امعن النظر كيف أن الرب المحب للبشر لم يمنع من سُكنى الانسان خارج جنة عدن ، لكنه أمر « الكروبيم ولهيب سيف متقلب » أن يحرسا السبل المُدخلة الى هنا .

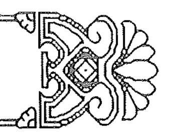
✣ ✣ ✣

---

(١٩) الكروبيم : ملائكة يرسلون من قبل الله أو يقيمون فى حضرته .



الأصحاح الرابع



« فعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين (٢٠) وقالت اقتنيت رجلا من عند الرب . ثم عادت فولدت اخاه هابيل (٢١) . وكان هابيل راعيا للغنم وكان قايين عاملا فى الأرض » (ع ١ ، ٢) .

قول موسى « فعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين » تأمل متى كان هذا الجماع ؟ لقد حدث بعد الخروج من الجنة ، لأنهما قبل المعصية كانت سيرتهما كالملائكة ولم يكن حدّ الجماع موجوداً ، وكيف يكون هذا ، ولم يكونا موضوعين تحت آلام الجسد .

وبعد أن اخطأ آدم وحواء أوجبت القضية عليهما الموت ، ولكن من تلطف الله حسب حكمته مدبراً لثبات جنس البشر، لذلك سمح أن ينمي الجنس البشرى بالجماع

وقول حواء « اقتنيت رجلاً من عند الرب » أى ليست الطبيعة هى التى جادت عليها بالولد ، لكن النعمة التى من الله هى المانحة إياها .

وقول موسى « ثم عادت فولدت اخاه هابيل » لأنها لما اعتقدت أن الولادة الأولى من عند الرب لهذا السبب أعطاها ولداً آخر ، ونحن أيضا إذا شكرنا الله المحسن علينا يضاعف مواهبه .

وقوله « وكان هابيل راعيا للغنم وكان قايين عاملاً فى الأرض » إذ عرفنا تصرف كل واحد من الولدين ، فاحدهما تشبث بالرعى والآخر عمل فى االأرض .

« وحدث بعد أيام ان قايين قدم من أثمار الأرض قربانا للرب . وقدم هابيل ايضاً من أبكار غنمه ومن سمانها فنظر الرب إلى هابيل وقربانه ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر فاغتاظ قايين جداً وسقط وجهه » (ع ٣ - ٥) .

لما أراد الكتاب الإلهى أن يعلمنا بحال هابيل قال : « وقدم هابيل ايضا من ابكار غنمه ومن سمانها » تأمل كيف أن الكتاب يرمز لنا بنية هابيل المحبة لله ، إذ إنه لم يقدم من الغنم وحسب لكن من « أبكار غنمه » ، وأيضا « ومن سمانها » أى ما كثر شحمها ودسمها .

---

(٢٠) قايين : اسم سامى معناه (حداد) .

(٢١) هابيل : ربما كان سماً سامياً معناه (نسمة) أو (بخار) أو اسماً « اكاديا » معناه « ابن » .

أما عن قايين فلم يدل على شيء من هذا لكنه قدم من اثمار الأرض قربانا ولم يُظهر فى هذا ولا اجتهاداً واحداً ولا فحصاً .

واقول أيضا ولا أكف عن القول إن الله ليس لأنه محتاج إلى ما عندنا اقتبل التقدمات ، لكنه أراد بهذه أن يُظهر حسن وفائنا .

وقول موسى « فنظر الرب إلى هابيل وقربانه ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر » انظر كيف تحقق قول الانجيل « ولكن كثيرون أولون يكونون آخرين وآخرون أولين » (مت ١٩ : ٣٠) ، لأن قايين قدم قرابينه أولاً ورفضت ، لكن لما قدم هابيل أخيراً قبلت تقدمته .

ومعنى قوله « فنظر الرب » أى قبل ومدح وكلل نية وضمير هابيل ، لأنه لما كان هابيل قد قدم قرابينه بنية مستقيمة وفكر خالص قبل ورضى الرب عطاياه .

وقوله « ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر » تأمل تحقيق الكتاب الالهى ، لأن بقوله « لم ينظر » قد أوضح رفض التقدمات التى من أثمار الأرض .

وقوله « فاغتاظ قايين جداً وسقط وجهه » أى تضاعفت أحوال كآبته .

« فقال الرب لقايين لماذا اغتظت ولماذا سقط وجهك » (ع ٦) .

كأن الرب يقول لقايين : لأى حال قد شملك حزن هذا صفته ، حتى ان جسامة الكآبة تظهر على وجهك لأى حال ما تعرف الواجب من نفسك ؟ ألعلك جئت لانسان يمكن أن يخادع ؟ أما عرفت اننى لست مفتقراً إلى القرابين لكن إلى إخلاص نية المقربين ، لماذا انت كئيب ؟ ولماذا شمل الخمول وجهك ؟ لِمَ لم تقدم تقديما خالصا مستقيما ، لأنه كان اللائق بالمقرب لله أن يظهر غاية الفحص والانصاف ، لكنك أنت يا هذا لم تمعن النظر فى شيء من هذا البتة فقربت ما اتفق لك وحسب ، لهذا السبب لم تقبل قرابينك .

« ان احسنت افلا رفع وان لم تحسن فعند الباب خطية رابضة واليك اشتياقها وانت تسود عليها » (ع ٧) .

انظر محبة الله للبشر ، كيف يريد أن يهدئ ثورة غضب قايين ويقطع تمرده بهذه الكلمات ، لأنه عندما نظر حركات فكره وعرف فساد نيته القاتلة أراد أن يودع فكره ويسكّن خاطره ، إلا أن قايين بعد اهتمام هذا تقديره وأدوية هذا محلها لم ينتفع البتة .

« وكلم قايين هابيل اخاه وحدث اذ كانا فى الحقل أن قايين قام على هابيل اخيه وقتله » (ع ٨) .

قول موسى « وكلم قايين هابيل اخاه » ، إن الألفاظ الفاظ اخوية ، أما النية فقاتلة ، ماذا تصنع يا قايين ؟ أما علمت لمن تخطاب ؟ أما تعلم أن المفاوضة مع أخيك ؟ أما تخاف القاضى الذى لا يُخطئ ؟ .

وقوله « وحدث إذ كانا فى الحقل » اما تقشعر من معنى هذه الجسارة ؟ لأى حال تأخذ أخاك إلى الحقل وتخرجه خارج الأحضان الأبوية ؟ لأى سبب تجعله خاليا من المؤازرة الابوية ؟ ما هذا المستعجب ؟! لقد اظلم فكرك ، فلم تراع الحال الأخوية ، لكنك حاربت ههنا مَنْ لم يفعل ظلما البتة ، ماذا تشكو من والديك ، إذ تريد أن توشحهما بكآبة هذا تقديرها ، وأن تصير متقدما فى هذا الفعل المرهب وتظهر لهما هذا الموت العنيف ، وتكافئ تربيتهما هذه المكافأة ، فإنها حيلة من حيل الشيطان قد انهضتك إلى هذا العمل .

وقوله « أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله » إن هذا الفعل لمرهب ، إن هذا الاقدام لخطر ، ان هذا الشروع لمبغض ، وهذه الجناية لا صفح لها ، وهذه نية نفس متمردة ، أوه من هذه اليد الدنسة ، أوه من هذه اليمين المرثى لها ، والأولى أن نقول أنه ليس واجبا أن ندعو اليد دنسة لكن النية التى انتهت إلى هذا ، أوه من هذه النية الدنسة الجسورة المرثى لها ، كيف لم تخدر يده ؟ كيف قدر أن يحد السيف ويدفعه الى الجرح ؟ كيف استطاع أن يبرز إلى عمل هذه الجسارة الردية ؟ كيف ما فكر فى العاقبة قبل أن يبدأ ؟ كيف احتمل معاينة جسم أخيه بعد القتل يتقلب على الأرض ؟ كيف استطاع أن يشاهد جسما مائتا مطروحا على الحضيض ولم ينحل سريعاً من المنظر ؟ لأننا إن كنا نحن بعد سنين هذا عددها إذا ما رأيناكل يوم المائتين الذين قد انتقلوا عند نهاية الحياة ، وليس هم بسبيل القتل نتوجع ونتطحن ، وان كان المتوفى عدوا فاننا نحل العداوة فلقد كان الأولى بقايين كثيراً .

« فقال الرب لقايين اين هابيـــل اخـــوك فقال لا اعلم أحارس انا لأخى » (ع ٩) .

قول الرب لقايين « أين هابيل اخوك » إن خيرية الرب لجزيلة ولا نهاية لها ، إذ إنه لم يسأل قايين سؤال مَنْ لا يعلم ، لكن ما فعله معه هنا فعله مع آدم أبيه حين رآه مختفياً لعريه فسأله « أين أنت » (تك ٣ : ٩) . لا سؤال مَنْ لا يعلم ولكن ليبيحه دالة حتى يغسل الجناية بالاعتراف ، لأن هذه من عادة الرب منذ البدء ، أن يلتمس منا نحن الخطاة الاقرار ، ويجود علينا بالصفح .

وقوله « أين هابيل اخوك » إذ إن الرب محب البشر يضع تجاهلاً بالأمر ليجعل بالسؤال فاعل هذه الاشياء أن ينقاد إلى الاعتراف بالخطية عساه أن يحظى بعفو ما .

وقول قايين للرب « لا أعلم » انظر دنائة الجواب ؟ ألعلك يا هذا تفاوض انسانا عساك أن تقدر على التمويه عليه ؟ أما علمت أيها الشقى مَنْ هو المخاطب لك ؟ أم تتفكر أن استخباره إياك لغزارة صلاحه ورغبة منه أن يوجد لك عذراً ؟ .

وقول قايين للرب « أحارس أنا لاخى » لقد كان ينبغي لك على ما يوجبه ناموس الطبيعة أن تكون حارسا خلاص الأخ ، لأن الطبيعة تأمر بهذا ، فان الذين عاشوا وخرجوا من بطن واحدة ، اللائق بهم أن يكون بعضهم حافظاً لبعض ، فإن كنت ما رغبت فى هذا ، ولا أردت أن تكون حافظا لأخيك فلماذا صرت ذابحاً ، فقتلت مَنْ لم يصطنع معك ظلما البتة .

« فقال ماذا فعلت صوت دم أخيك صارخ إلىّ من الأرض » (ع ١٠) .

قول الرب لقايين « ماذا فعلت » أى لأى حال فعلت هذا ؟ لماذا جسرت هذه الجسارة الردية وشرعت هذا الشروع الدنس ، وعملت هذا العمل الذى لا صفح له ، وجننت هذا الجنون الذى لا يحتمل الذى هو هذا القتل الجديد الغريب الذى دخل إلى حياة الناس بيمينك ؟ لماذا صنعت هذا الأمر العظيم المخيف الذى لا جناية تعلوه ؟ .

وقوله « صوت دم اخيك صارخ إلىّ من الأرض » وكأن الرب يقول لقايين : ألعلنى إنسان اسمع ذلك الصوت الظاهر بلسان فقط ، أنا قادر أن اسمع بالدم الصارخ الموضوع فى قاع الأرض ، انظر مقدار ما طاره هذا الدم حتى ارتقى من الارض إلى السماء وعبر

سماء السموات والقوات العلوية ووقف لدى المنبر الملكى هاجيا شناعة فعلك ؟! .

« فالآن ملعون انـــت من الارض التى فتحت فاها لتقبل دم اخيك من يدك » (ع ١١) .

وكأن الرب يقول لقايين : ألعلك فعلت هذا الشر مع غريب ، لقد فعلته مع أخيك الذى ما ظلم البتة ، لهذا السبب أوجب عليك هذا العقاب حتى لا تتمكن من نسيان ما اقدمت عليه ، ولكى تكون هذه النازلات بك تعليما لكل مَنْ يأتى فيما بعد ، والآن فإذ قد فعلت هذا وأبرزت إلى العمل نيتك الردية ونهضت الى القتل من كثرة حسدك فانت « فالآن ملعون » .

وكما قال الرب للحية « ملعونة أنت من جميع البهائم » (تك ٣ : ١٤) ، هكذا وقال لقايين « ملعون أنت من الأرض » ، لأنه فعل افعال تلك بعينها ، فكما أن الشيطان لما تحرك من الحسد ولم يحتمل الاحسانات الصائرة فى الانسان فنهض إلى الخديعة التى أدخلت الموت ، هكذا وقايين لما رأى الرب جميل النية نحو أخيه نهض من حسده إلى قتله ، لهذا السبب قال له « ملعون أنت من الأرض » .

« متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها تائها وهاربا تكون فى الأرض » (ع ١٢) .

قول الرب لقايين « متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها » إن هذا النوع من العقاب لعظيم ، ومقدار السخط لجسيم ، ومعنى هذا القول أن قايين عندما يتعب ويبذل مجهوداً ويعمل فى الأرض الملطخة بهذا الدم ، لا يستثمر شيئا من تلك الاتعاب الكثيرة لكن يكون تعبه كله الذى يبذل لا يأتى عليه نفعاً .

وقوله « تائها وهاربا تكون فى الأرض » وهذا أيضا نوع جسيم من العقاب ، وكأن الرب يقول لقايين : لما لم تستعمل قوة جسمك فيما ينبغى ، لهذا السبب تكون « تائهاً وهاربا » لكى لا تتذكر ما فعلته فقط لكن ولكى يعلم الناظرون اليك بما يشاهدونه فيك مما يقوم مقام الصوت الهاتف الا يقدموا على مثل هذه الأمور خوفا من أن ينالهم ما نالك ، ويكون العذاب الحال بك معلما للكل ألا يفعلوا ما فعلته .

« فقال قايين للرب ذنبى أعظم من أن يحتمل » (ع ١٣) .

ها قايين قد أقر بغاية الايضاح ، إلا أنه أيها الحبيب ما أخذ له ولا ربحاً واحداً ، لأن هذا الاعتراف ليس فى وقته ، لأنه قد كان ينبغى له أن فعل هذا فى الوقت الملائم ، عندما كان ممكنا أن يحظى من القاضى بمحبته للبشر ، فالوقت قد جاز ، لأن التوبة يجب أن يكون لها وقت وقوة لا توصف قبل حلول العقاب .

لقد كان من اللائق بقايين عندما سأله الرب « أين هابيل اخوك » (ع٩) أن يعترف فـى ذلك الوقت بالجريمة وأن يسجد ويتوسل ويلتمس العفو لكنه رفض التطبب ، أما الآن ، فهو يعترف بعد القضية ، بعد أن أخذت الأمور نهايتها ، بعد أن صاح عليه دم المنضجع ، إلا أنه لم ينتفع من هذا شيئاً .

« انك قد طردتنى اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك اختفى واكون تائها وهارباً فى الأرض فيكون كل منْ يجدنى يقتلنى » (ع ١٤) .

انظر كيف أن هذه الألفاظ مستعطفة ، ولأن الوقت قد فات ، لذلك لم يستفد قايين شيئا .

وكأن قايين يقول للرب : إن كنت قد جعلتنى ملعوناً من الأرض ، واسلمتنى إلى عذاب هذا صفته حتى إننى اتنهد وارتعش ، واصير سهل المعركة لكل مَنْ أراد قتلى ، لأننى لست اقدر أن أنهض إذ قد اشتملت اعضاء قد انحلت ، وأنا مضطرب من كل جهة ، ومعرفة الكل اننى قد تعريت من حنوك تجعل المجتاز أن ينهض إلى قتلى .

« فقال له الرب لذلك كل مَنْ قتلِ قايين فسبعة أضعاف يُنتقم منه . وجعل الرب لقايين علامة لكى لا يقتله كل منْ وجده » (ع ١٥) .

أى إن كنت خُفت أن يقتلك أحد تشجع وثق أن هذا لن يكون ، لأن الفاعل بهذا الأمر يُلزم نفسه سبع عقوبات لهذا السبب اصنع لك علامة حتى لا تخفى على أحد ليقتلك .

« فـخـرج قايين من لدن الرب وسكن فى أرض نود [٢٢] شـــرقى عدن » (ع ١٦) .

(٢٢) نود : اسم سامى معناه « التائه » أو « المنفى » .

قول الكتاب عن قايين « وسكن فى أرض نود شرقى عدن » إذ يصف لنا الموضع الذى سكن فيه قايين ، ويعلمنا كيف انه لم ينصرف بعيداً عن جنة عدن لكى يتذكر دائما تلك الاحداث التى حدثت .

« وعرف قايين امرأته فحبلت وولدت حنوك[٢٣] وكان يبنى مدينة فدعا اسم المدينة كاسم ابنه حنوك وولد لحنوك عيراد [٢٤] وعيراد ولد محويائيل [٢٥] ومحويائيل ولد متوشائيل [٢٦] ومتوشائيل ولد لامك [٢٧] » (ع ١٧ ، ١٨) .

قول الكتاب « وعرف قايين امرأته فحبلت وولدت حنوك » عسى أن بعض الناس يقول كيف أخذ قايين هذه الامرأة والكتاب لم يذكر امرأة اخرى غير حواء ؟! لا تتعجب من هذا أيها الحبيب ، لأن الكتاب الالهى يصرف الاهتمام عن ذكر الإناث ، ويذكر الذكور على طريق الخبر ، ولم يذكرهم كلهم لكنه شرح لنا ذلك شَرحاً موجزاً ، فمن الواجب إذاً أن تكون حواء ولدت ابنة بعد قايين وهابيل التى أخذها قايين امرأة له .

وقوله « وكان يبنى مدينة فدعا اسم المدينة كاسم إبنه حنوك » انظر كيف بعد أن صاروا مائتين ارادوا أن يحفظوا ذكرهم دائما من المولودين اذ وضعوا اسماء اولادهم، على الأماكن .

وقوله « وولد لحنوك عيراد وعيراد ولد محويائيل ومحويائيل ولد متوشائيل ومتوشائيل ولد لامك » ، أتعاين كيف أن الطوباوى موسى شرح الأجيال وذكر الذكور ولم يذكر الإناث ؟ .

« واتخذ لامـــــك لنفسه امرأتين اسم الواحدة عادة [٢٨] واسم الاخرى صلـة [٢٩] . فـولدت عـادة يابال [٣٠] الذى كـان ابا لساكنى الخيام ورعـاة

---

(٢٣) حنوك : اسم عبرى معناه « دارس ، مدرب ، مكرس) .
(٢٤) عيراد : مدنيا على ما يظن .
(٢٥) محويائيل : اسم عبرى ربما كان معناه « مضروب من الله » .
(٢٦) متوشائيل : اسم سامى معناه « رجل الله » .
(٢٧) لامك : قوى .
(٢٨) عادة : اسم سامى معناه « زينة » .
(٢٩) صلة : اسم عبرى معناه « ظل » أو « ملجأ » .
(٣٠) يابال : جوّال .

المواشي . واسم اخيه يوبال [٣١] الذى كان ابا لكل ضارب بالعود والمزمار . وصلة ايضا ولدت توبال [٣٢] قايين الضارب كل الة من نحاس وحديد واخت توبال قايين نعمة [٣٣] » (ع ١٩ - ٢٢)

تأمل يا صاح كيف علمنا الكتاب الإلهى اسماء المولودين من امرأتى لامك ، وما تعلماه من الصنائع ، فأحدهم عمل فى رعى المواشى والآخر عمل فى ضرب العود والمزمار .

« وقال لامك لامرأتيه عادة وصلة اسمعا قولي يا امرأتى لامك واصغيا لكلامي فاني قتلت رجلاً لجرحي وفتى لشدخي [٣٤] . انه ينتقم لقايين سبعة اضعاف واما للامك فسبعة وسبعين » (ع ٢٣ ، ٢٤) .

قول لامك لامرأتيه « اسمعا قولي يا امرأتى لامك واصغيا لكلامى » انظر كيف أن لامك عندما أقام على نفسه مجلس القضاء استدعى امرأتيه حتى لا يقبلا المقولات باطلاً لأن بقوله هذا يدل على ذلك ، فكأنه يقول لطفاً قربا لى سمعكما وانصتا انصاتا بليغاً لاقوالى عندما أقول ، فلست أنا ضدكما بما اتفق ، لكن اعترف لكما بأمور خافية ليس أحد آخر يعرفها إلا أنا وحدى وتلك العين التى لا تنام والتى أخافها فاجتهد واحرص على أن اكشف لكما ما صنعته وتحت أى عقاب قد اوقعت ذاتى بالأعمال الردية .

وقوله « فانى قتلت رجلا لجرحى وفتى لشدخى » ان المقول لعظيم وعظيم جداً ، وحسن نية الرجل وافر لأنه لم يعترف بما حدث ولا ذكر القتل الذى فعله فقط ، لكنه وضع لذاته بمقايسة مع ما فعله قايين ، لأنه قال « انه ينتقم لقايين سبعة اضعاف وأما للامك فسبعة وسبعين » .

وقوله « انه ينتقم لقايين سبعة اضعاف وأما للامك فسبعة وسبعين » أى إن كان من قِبل قتيل واحد التزم قايين سبع عقوبات ، فإنه من الواجب والعدل أن التزم انا سبعة وسبعين .

---

(٣١) يوبال : ضارب على آلات الطرب .

(٣٢) توبالِ : اسم معناه « ضرب مطرقة الحداد » .

(٣٣) نعمة : اسم سامى معناه « مسر » أو « جمال » .

(٣٤) شدخ : كسر .

أرأيت أيها الحبيب ، إن كان لامك ما امتنع أن يقر لامرأتيه بالقتل الذى فعله (مع الرجل والفتى) فلأى عفو نكون مؤهلين متى لم نرغب أن نقر للعارف كل زلاتنا أبلغ معرفة بما اخطأنا اليه ؟ ألعل العارف بالاشياء كلها قبل كونها يريد معرفة شيء لأنه يجهله أو يلتمس الاقرار منا ؟ لكن يريدنا ان نأخذ احساساً بالجرائم بالاعتراف ونشهر حسن النية منا .

« وعرف آدم امرأته أيضا فولدت ابناً ودعت اسمه شيثا [٣٥] قائلة لان الله قد وضع لى نسلاً اخر عوضاً عن هابيل لأن قايين كان قد قتله » (ع ٢٥) .

لما انتهى الكتاب من شرح مواليد آدم إلى لامك عاود ايضا إلى آدم وامرأتـــه فقال « وعرف آدم امرأته أيضا فولدت إبنا ودعت اسمه شيثا » انظر حواء أيضا كيف بتسميتها الصبى المولود تصنع ذِكراً دائما لذلك الفعل الخبيث ، ولكى تُعرّف الأجيال القادمة فيما بعد ما تجاسر عليه قايين .

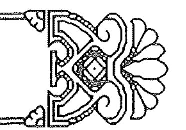
« ولشيث ايضاً ولد ابن فدعا أسمه أنُوش[٣٦] حينئذ ابتدئ ان يدعى باسم الرب » (ع ٢٦) .

انظر كيف اقاموا الدليل على حسن النية وجميل الضمير اذ إنهم بعد ولادة أنُـوش أخذوا يدعون باسم الرب .



---

(٣٥) شيث : اسم سامى معناه « بديل » .
(٣٦) أنـوش : اسم عبرى معناه « رجل » أو « إنسان » .



الأصحاح الخامس

« هذا كتاب مواليد آدم يوم خُلق الإنسان على شبه الله عمله . ذكراً وانثى خلقه وباركه ودعا اسمه آدم يوم خُلق » (ع ١ ، ٢) .

انظر كيف أن الكتاب الإلهى يبتدئ الشرح أيضا من بداية المواليد ، ويذكرنا كم مقدار هذه الكرامة التى اُهلها الإنسان المخلوق فقال « يوم خلق الإنسان على شبه الله عمله » أى جعله رئيساً على كل المُبصرات ، فكما أن إله الكل وخالقه له الرئاسة على الكل ، المُبصرات وغير المُبصرات ، هكذا لما خلق الإنسان رغب أن تكون له الرئاسة على كل المنظورات ، لهذا السبب جاد عليه بجوهر النفس مريداً له أن يكون غير مائت إلى الأبد .

« وعاش آدم مئة وثلاثين سنة وولد ولداً على شبهه كصورته ودعـا اسمه شيثا . وكانت أيام آدم بعدما ولد شيثا ثمانى مئة سنة وولد بنين وبنات . فكانت كل أيام آدم التى عاشها تسع مئة وثلاثين سنة ومات . وعاش شيث مئة وخمس سنين وولد أُنوش . وعاش شيث بعدما ولد أُنوش ثمانى مئة وسبع سنين وولد بنين وبنات . فكانت كل أيام شيث تسع مئة واثنتى عشرة سنة ومات . وعاش أُنوش تسعين سنة وولد قينان [٣٧] . وعاش أُنوش بعدما ولد قينان ثمانى مئة وخمس عشرة سنة وولد بنين وبنات . فكانت كل أيام أُنوش تسع مئة وخمس سنين ومات . وعاش قينان سبعين سنة وولد مهللئيل [٣٨] وعاش قينان بعدما ولد مهللئيل ثمانى مئة واربعين سنة وولد بنين وبنات . فكانت كل ايام قينان تسع مئة وعشر سنين ومات . وعاش مهللئيل خمسا وستين سنة وولد يارد [٣٩] . وعاش مهللئيل بعدما ولد يارد ثمانى مئة وثلاثين سنة وولد بنين وبنات . فكانت كل ايام مهللئيل ثمانى مئة وخمسا وتسعين سنة ومات . وعاش يارد مئة واثنتين وستين سنة وولد أخنوخ [٤٠] . وعاش يارد بعدما ولد اخنوخ ثمانى مئة سنة

---

(٣٧) قينان : اسم سامى ربما كان معناه « إقتناء » .

(٣٨) مهللئيل : اسم عبرى معناه « حمد الله » .

(٣٩) يارد : اسم سامى ربما معناه « ورد » .

(٤٠) أخنوخ : اسم عبرى معناه « مكرس » أو « محنك » .

وولد بنين وبنات . فكانت كل ايام يارد تسع مئة واثنتين وستين سنة ومات » (ع ٣ - ٢٠) .

تأمل حكمة موسى النبى العجيب ، والأجدر أن نقول تعليم الروح القدس ، لأنه من هناك يستمد النطق فيطالعنا بهذا كله ، وتأمل كيف أنه لم يذكر أبناء آدم الأولين ، لكنه قال عن آدم « وولد ولداً على شبهه كصورته ودعا اسمه شيثا » .

فإن سألت : لأى حال فعل موسى النبى هكذا أجيبك : لما رأى العائشين فى ذاك الوقت قد اظهروا تجاهلاً مفرطاً ، ولم يتعلموا بما صار إلى آدم ، لكنهم تهوروا إلى قاع الرذيلة ، لأن المولود منه نهض سريعاً إلى قتل الأخ لأجل حسده ، ولما لم يرتعدوا بما صار إلى هذا من العقاب ووشحوا ذواتهم برذائل أشر كما سمعنا بما حدث من لامك وهو يشرح لامرأتيه جناياته ، فلما رأى بعد قليل أن شرهم يزداد كمجرى خبيث وقف عن ذكر تلك الأجيال من قايين الى لامك وابتدأ هذا الشرح فقال « وعاش آدم مئة وثلاثين سنة وولد ولداً على شبهه كصورته ودعا اسمه شيثا » ، وتأمل كيف أنه من المولود « شيث » ابتدأ فى النسب ، لكى تعرف من هذا مقدار الاهتمام عند الله بالطبيعة البشرية ، وكيف أنه يطرح ذوى النية الفاسدة القاتلة ، ولذلك أضرب صفحا عن ذكرهم كأنهم لم يخلقوا فى العالم ، معلما إيانا مقدار الرذيلة وأن المتمسكين بها يضرون بانفسهم غاية الاضرار ، والدليل على ذلك ان هؤلاء قد استؤصلوا من المجمع ، ومقدار ما أخذوه من الذكر إنما هو اشهار رذيلتهم التى هى سبب الارتداع للاجيال القادمة فيما بعد .

أرأيت كم هو مقدار فساد الرذيلة وكم هو مقدار قوة الفضيلة ؟.

« وعاش أخنوخ خمسا وستين سنة وولد متوشالح [٤١] وسار أخنوخ مع الله بعدما ولد متوشالح ثلاث مئة سنة وولد بنين وبنات . فكانت كل أيام أخنوخ ثلاث مئة وخمسا وستين سنة » (ع ٢١ - ٢٣) .

امعن النظر أيها الخليل فى فضيلة اخنوخ ، ومحبة الله الفائقة للبشر ، ليسمع الرجال والنساء وليتأدبوا بفضيلة الصديق ، ولا يظنوا أن الزواج يمنع من إرضاء الله والحياة معه ، لهذا السبب قال الكتاب الإلهى : « وسار اخنوخ مع الله بعدما ولد

(٤١) متوشالح : اسم سامى معناه « رجل السلاح أو الرمح » .

متوشالح » لئلا يظن ظان أن الزواج يمنع من إرضاء الله ، والدليل على ذلك ان هـذا الرجل من نفس طبيعتنا ، ولم يكن يؤمن بشريعة ولا وضعت كتب تعلمه ، ولا شيء آخـر .

أيها الخليل ، لو كانت الزيجة وتربية الأولاد تصيران عائقا عن السلوك فى سبيل الفضيلة لما كان الله قد أمر بها فى عالمنا لئلا تضرنا .

« وسار اخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله اخذه . وعاش متوشالح مئة وسبعا وثمانين سنة وولد لامك . وعاش متوشالح بعدما ولد لامك سبع مئة واثنتين وثمانين سنة وولد بنين وبنات . فكانت كل ايام متوشالح تسع مئة وتسعا وستين سنة ومات » (ع ٢٤ - ٢٧) .

قول الكتاب « وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه » انظر حكمة الرب اذ نقل اخنوخ حيّاً ، أشاهدت صلاح الرب وكيف أنه لما وجد رجلاً ممارساً للفضيلة لم يحرمه المنزلة التى منحها لآدم قبل اهمال الوصية معلما إيانا أن آدم لو لم يفضل الخديعة على الوصية المفوضة اليه لكان أهلاً لهذه الأمور نفسها وما هو أعظم .

« وعاش لامك مئة واثنتين وثمانين سنة وولد ابنا ودعا اسمه نوحا [٤٢] قائلاً هذا يعزينا عن عملنا وتعب ايدينا من قبَل الأرض التى لعنها الرب . وعاش لامك بعدما ولد نوحا خمس مئة وخَمساً وتسعين سنة وولد بنين وبنات . فكانت كل أيام لامك سبع مئة وسبعا وسبعين سنة ومات . وكان نوح ابن خمس مئة سنة وولد نوح ساما [٤٣] وحاما [٤٤] ويافث [٤٥] » (ع ٢٨ - ٣٢) .

قول الكتاب « وعاش لامك مئة واثنتين وثمانين سنة وولد إبنا ودعا اسمه نوحا » انظر إلى تسمية هذا المولود من لامك لأنها نبوة عظيمة .

لكن عسى أن يقول بعض الناس : من أين كان للامك نبوة عظيمة هذا تقديرها ؟! فلا تتعجب أيها الحبيب ، لأن الرب إذ هو حكيم ، وحسن التلطف يسمح مرات عديدة

(٤٢) نوح : اسم سامى معناه « راحة » .
(٤٣) سام : اسم عبرانى معناه « اسم » .
(٤٤) حام : اسم عبرى معناه « حامى » أو « ساخن » .
(٤٥) يافث : اسم سامى ربما كان معناه « جمال » .

لقوم غير مستحقين أن يتنبأوا بأمور عجيبة عظام ، إذ إن بلعام [٤٦] قد تنبأ [٤٧] ، لأنه استدعى ليلعن الشعب ، فليس انه ما لعن الشعب فقط لكن وتنبأ بأمور عجيبة جسام ليس عن الشعب فقط بل وعن قدوم المُخلص .

فلا تتعجب اذا كان لامك وضع للصبى تسمية هذه صفتها ، لكن اعتقد أن الله هو المدبر للكل بحكمته اللطيفة .

وقوله « ودعا اسمه نوحاً قائلاً هذا يعزينا عن عملنا وتعب ايدينا من قِبَل الأرض التى لعنها الرب » ، لما أراد لامك أن يفسر لنا معنى اسم نوح قال « هذا يعزينا (يريحنا) عن عملنا وتعب أيدينا » أى سيعتقنا من جميع الشرور ومن شقاء الارض التى لُعنت لأجل عصيان آدم .

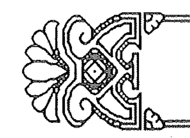
تأمل أيها الخليل كيف تشاهد الصبى نوحاً بعد قليل وقد صار سبب راحة للكل أثنـاء الطوفان ببنائه الفلك .



(٤٦) بلعام : اسم عبرى ربما كان معناه « هلاك » .
(٤٧) (عدد ص ٢٣ ، ٢٤) .



الأصحاح السادس



« وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات . أن ابناء الله رأوا بنات الناس انهن حسنات فاتخذوا لانفسهم نساء من كل ما اختاروا » (ع : ١، ٢) .

قول الكتاب « أن ابناء الله » ينبغى أن نتأمل كل لفظة من المقولات تأملاً واضحا، لئلا يفوتنا شيء من المخفيات في النهاية ، لأن الضرورة تدعو أن نكشف عن هذا المعنى كشفا بليغا ، ونحذف خرافات المتكلمين عن غيرٍ فحص وتمييز . ونذكر أولاً ما أقدم عليه البعض ، ثم نبين شناعة قولهم ، وبعد ذلك نعلم محبتكم حقيقة معنى الكتاب الإلهى ، إنهم يقولون ان قول الكتاب « ان ابناء الله » لم يقله عن الناس لكن عن الملائكة ، لأنه سماهم « ابناء الله » ، فنقول لهؤلاء : ليوضحوا أولاً ، أين دعيت الملائكة أبناء الله ، إلا انهم لا يقدرون على إقامة البرهان على ذلك ، لقد دعى الناس أبناء الله [٤٨] ، أما الملائكة فلا ، وعلى وجه آخر ، أى جهل يكون لقول القائل ، ان الملائكة انحطت إلى مجامعة النساء ، وأن تلك الطبيعة التى لا جسد لها انضمت إلى مخالطة الأجساد ، أما سمعت السيد المسيح قائلاً عن جوهر الملائكة « لأنهم فى القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله فى السماء » (مت ٢٢ : ٣٠) . لأن تلك القوات غير المتجسدة لا يمكنها قبول الشهوة ، أما قول الكتاب « ابناء الله » إذ إن من عادة الكتاب أن يدعو الناس ابناء الله ، ولما كان هؤلاء قد توالدوا من شيث ومن المولود منه المسمى أنُوش لأنه يقول « حينئذ أبتُدِئَ أن يدعى باسم الرب » (تك ٤ : ٢٦) ودعا الكتاب الإلهى فيما بعد المولودينَ من أُنوش ابناء الله لأجل تمسكهم بفضيلة الأجداد ، هذا وقد اطلق الكتابُ على الصائرين من قِبَل شيث الذين ولدوا من قايين والمنحدر من جنسهم أولاد الناس .

وقوله « أن ابناء الله رأوا بنات الناس انهن حسنات » انظر كيف أن الكتاب بهذا القول قد أوضح لنا فسقهم ، لأنهم لم ينهضوا إلى هذا العمل رغبة فى انجاب الأولاد ، لكن لأجل اللذة ، إذ إن جمال المنظر صار لهم علة الفسق والفجور .

---

(٤٨) (مت ٥ : ٩) .

وقوله « فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا » وهذا أيضا بيّن فرط فجورهم إذ انقهروا بالجمال ولم يريدوا ان يكبحوا هذه الشهوة الجامحة ، لكنهم غرقوا وصيدوا بهذا المنظر .

« فقال الرب لا يدين [٤٩] روحي في الإنسان إلى الأبد لزيغانه [٥٠] هو بشر وتكون أيامه مئة وعشرين سنة » (ع ٣) .

ينبغي لنا أن ننظر صلاح الله بعد هذا الفعل القبيح والنية الفاسقة من البشر إذ قال الرب هنا « لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد » .

وقول الرب عن الإنسان « لزيغانه هو بشر » أي لأجل انهماكه في الأعمال الجسدية ، وأنه لا يستعمل سلطة النفس فيما ينبغي ، لكنه كالمتوشح جسداً فقط عارياً من النفس ، لذلك يذهب عمره هكذا .

« كان في الأرض طغاة في تلك الايام وبعد ذلك ايضا إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن [٥١] لهم اولاداً هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم » (ع ٤) .

قول الكتاب « إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً » أرأيت زيادة الغدر ؟ أرأيت نفساً لا تتألم ؟! لا خوف للعذاب ، ولا زمان طول الاناة والإمهال ابعدتهم عن تلك الاعمال الخبيثة ، لكنهم تهوروا منذ أول وهلة ، وعميت عينا فكرهم ولم يريدوا أن ينتهضوا كأنهم غرقوا في تلك الشهوة الردية كمَنْ سكر .

وقوله « وولدن لهم اولاداً هم الجبابرة » على ما أظن ان الكتاب الإلهي يطلق اسم الجبابرة على الاقوياء الاجسام .

« ورأى الرب ان شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه انما هو شرير كل يوم » (ع ٥) .

قول الكتاب « ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض » وبهذا شرح الأمور كلها شرحاً بليغاً لائقا بضعفنا ، لكي يعلمنا أن هؤلاء القوم لازموا الرذائل بعينها ولطخوا أنفسهم بالقبائح بعد طول أناة هذا تقديرها .

(٤٩) أو لا يلبث .
(٥٠) أو بما أنه .
(٥١) أو وولدوا .

وقوله « ان شر الإنسان قد كثر فى الارض » لأنه حيث يوجد زنا وفسق بهذا المقدار فمن الواضح أن يتولد هناك السكر والظلم المفرط والشَرَه وربوات من الشرور .

وانظر كيف أن كل واحدة من هذه المقولات تُبين جسامة الزلات ، لأن الكتاب لما قال « ان شر الإنسان قد كثر فى الأرض » عطف القول فقال « وان كل تصور افكار قلبه انما هو شرير » إذ إنهم لم يلازموا هذا الشر عن طريق الاغتصاب لكنهم كانوا يتصورون ذلك فى قلوبهم ويتشاورون فى هذه الاشياء مجتهدين فى أمرها .

ولم ينقادوا الى هذه الشرور ويتورطوا فيها كيفما اتفق دفعة واثنتين لكنهم فعلوها بعناية وباجتهاد كثير ، ولم يصنعوا شيئا بتوان ، ولم يكن لمدة قليلة لكنهم صرفوا حرصهم فى هذا « كل يوم » !! .

أرأيت زيادة الشر ؟ أشاهدت كيف جعلوا هذا الشىء كل قصدهم ، وفعلوا كل الشرور بغاية الاهتمام ؟.

« فحزن الرب انه عمل الإنسان فى الأرض وتأسف فى قلبه » (ع ٦) .

قول الكتاب عن الرب « وتأسف » أى ندم ، فالله لا يندم ، لكن الكتاب الإلهى يشرح لنا هذه الامور جاريا على العادة البشرية لكى يعلمنا أن تزايد هفواتهم اقتادت الله المحب للبشر الى سخط هذا محله .

وقوله عن الرب « وتأسف فى قلبه » وكأن الرب يقول هنا : ألعلنى ابدعت الإنسان لهذا السبب ، ولكى يزل هذا الزلل ويصير سبباً لهلاك نفسه لقد أهلته لجلالة هذا تقديرها ، وبالغت فى العناية به لكى اذا ما تمسك بالفضيلة ينجو من إلهلاك .

« فقال الرب امحو عن وجه الأرض الإنسان الذى خلقته الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء لانى حزنت إنى عملتهم » (ع ٧) .

قول الرب « امحو عن وجه الارض الإنسان الذى خلقته » كأن الرب يقول : ان جميع ما عندى قد أظهرت وأبدعت من العدم إلى الوجود ، وصنعت فى الطبيعة معرفة ما يجب أن يعمل وما لا يجب أن يعمل ، واستعملت من طول الأناة ما لا يوصف ، وبعد ذلك الزمان الكثير والسخط والتهديد حددت مُدداً أخرى مريداً أن يستعطفوا غضبى باحساسهم بهفواتهم ، فلما لم يربحوا شيئا طائلاً ، دعت الضرورة إلى أن أُظهر التهديد

إلى الفعل ، وابيدهم إبادة كلية ، وأستأصل شرهم كالخميرة الردية لئلا يصيروا للأجيال القادمة بعد معلمين للرذيلة .

وقوله « الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء لأنى حزنت إنى عملتهم » عسى أن يقول بعض الناس : إذا كان الإنسان مال الى الرذيلة ، لأى حال تحملت البهائم معه وزر العقاب ؟ ! فنقول له : لأن البهائم لم تبدع لأجل حاجة أنفسها لكن لأجل الإنسان أبدعت، فاذا ما انتزع الإنسان من الوسط فأية حاجة تكون إلى البهائم ؟! .

« وأما نوح فوجد نعمة فى عينى الرب » (ع ٨) .

إن كان هذا الجمع بأسره قد مال إلى رذيلة هذا مقدارها ، إلا أن هذا الصديق قد حفظ شرارة الفضيلة ، لأن الله ليس محابيا للوجوه ، لكن إن وجد واحداً فى هذا الجمع الكثير فاعلاً إرادته فلا يهمله بل يؤهله إلى اهتمامه الخاص ، ويظهر من عنايته ومراعاته به شيئا جزيلاً بمقدار سلوكه فى منهج الفضيلة .

أعاينت امتداد شر الناس الذين كانوا في ذلك الوقت ؟ أعرفت فيما بين ذلك الجمع الكثير كم كانت فضيلة الصديق ؟ وأنه لم يضره شىء لا سلوكهم فى الرذيلة وسلوكه هو فى المنهج المضاد .

وتأمل ايضاح الكتاب ، لأنه لما أفادنا سبب تفاقم شر الناس وعظم العقاب العتيد أن يأتى إلى فاعليه ، شرع فى أن يعلمنا حال نوح ، ذلك المقتدر على حفظ الفضيلة ، غير مشوبة بشىء من المكاره فى مثل هذا الجمع الكثير .

« هذه مواليد نوح . كان نوح رجلاً باراً كاملاً فى أجياله . وسار نوح مع الله » (ع ٩) .

قول الكتاب « كان نوح رجلاً » أرأيت هذه التسمية العجيبة التى كانت للصديق عوضا عن المديح ، إذ إن نوح هذا حفظ صورة الإنسان وهو فى جمع كثير هذا تقديره ، فليست صورة الإنسان هى عينه وفمه وأنفه وخديه وبقية اعضائه تدل على أنه رجل لكن الرجل هو الذى ثابر على الفضيلة .

فان سألت : وما هى صورة الرجل ؟ اجبتك : ان يوجد ناطقا ، فإن قلت : أفما كان أولئك ناطقين ؟ اجبتك : لكن ليس هذا فقط بل وأن يوجد فاضلاً ومن الرذيلة هاربا ولوصايا الرب تابعا ، هذا هو الرجل .

وقوله « كان نوح رجلاً » ، أشاهدت كيف أنه يدعو نوحاً وحده رجلاً ، لأنه مثابر على الفضيلة ؟ أما الباقون فما يظن فيهم انهم موجودون إذ سقطوا من رتبة الناطقين إلى عدم نطق الوحوش .

وقوله عن نوح « باراً كاملاً » وهذا نوع آخر من المديح العظيم ، إذ بقوله «كاملاً» أوضح الفضيلة الكلية التى فيه ، لأننا اعتدنا أن نقول « كاملاً » على الملازم لكل فضيلة

وقوله « وسار نوح مع الله » فمَنْ إذا يكون اسعد من هذا الذى قدر على اظهار فضيلة هذا محلها ، حتى انه سار مع الله ، إذ إن هذا الشيء عند ذوى العقول هو أكرم من كل ثروة وكل شرف وقدرة .

وولد نوح ثلاثة بنين ساما وحاما ويافث » (ع ١٠) .

على ما يُظن عندى أن هذا الصديق باشر الجماع وانجب هؤلاء الأولاد بسياسة من الله ، لأن المسكونة لما أشرفت على الابادة لأجل تزايد الشر وتفاقم المكر ، رأى الله المحب للبشر أن يترك الصديق كالخميرة للعتيدين أن يصيروا بعد هذا لكى تكون أصلاً بعد إبادة هؤلاء ، لهذا السبب بعد خمس مئة سنة صار له ثلاثة أولاد [٥٢] .

إن الكتاب الإلهى لم يوضح لنا عدد أولاد نوح جزافا ، لكنه يريد أن يبين من هنا ومعلماً إيانا عظمة نسكه وامساكه عما يفعله كل الناس فى ذلك الوقت لشرِه هذا محله ، واظهارهم فسقا جزيلاً .

« وفسدت الأرض أمام الله وامتلأت الأرض ظلماً » (ع ١١) .

أرأيت هذا الفرق الكبير الذى لا يوصف فى نفس الجنس ؟ إذ قال الكتاب الإلهى عن نوح « كان نوح رجلاً باراً كاملاً فى أجياله » (ع ٩) ، أما عن بقية كافة الناس فقال « وفسدت الأرض أمام الله وامتلأت الأرض ظلما » .

وقول الكتاب « وفسدت الأرض أمام الله وامتلأت الأرض ظلماً » إذ سمى جنس الناس باسم الأرض لأن اعمإلهم لما كانت كلها أرضية سماهم باسم الأرض ، وكما جرى الأمر فى آدم بعد أن خالف الوصية قال له الرب « بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التى اُخذتَ منها لأنك تراب وإلى تراب تعود » (تك ٣ : ١٩) ،

(٥٢) (تك ٥ : ٣٢) .

وهكذا هنا لما زادت الشرور قال الكتاب « وفسدت الأرض » ، أنظر أيها الخليل كم هو مقدار شر الخطيئة وكيف جعلتهم غير مستحقين أن يسموا اناساً .

وبقوله « وفسدت » أبان كل رذيلتهم .

« ورأى الله الأرض فاذا هى قد فسدت إذ كان كل بشر قد افسد طريقه على الأرض » (ع ١٢) .

قول الكتاب « ورأى الله الأرض فاذا هى قد فسدت » انظر أيضا انهم يسمون أرضاً ، ثم لما كان قد سماهم أرضا دفعة واثنتين ، ولئلا يظن ظان أن قوله عن أرض محسوسة قال « إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض » .

« فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد أتت أمامى لأن الأرض امتلأت ظلما منهم فها انا مهلكهم مع الأرض » (ع ١٣) .

تأمل تفاقم صلاح الله ، لأنه يفاوض الصديق فى معنى العقوبة التى هو عازم على ايرادها لجنس الناس مفاوضة الخليل لخليله بقوله له « نهاية كل بشر قد أتت أمامى » .

وقول الله « نهاية كل بشر قد أتت أمامى » أى قد حان الوقت الذى فيه ينبغى قطع الجرح .

وقوله « لأن الأرض امتلأت ظلما منهم فها أنا مهلكهم مع الأرض » أى هانذا أبيدهم والأرض ، لأنهم لما كانوا قد سبقوا فاهلكوا أنفسهم بالأعمال الشنيعة لهذا الشأن أورد هلاكا كليا ، وأصنع لهم وللأرض إبادة شاملة لكى تتنقى الأرض وتتطهر من دنس آثام هذه صفتها .

« اصنع لنفسك فُلكاً من خشب جُفر [٥٣] تجعل للفُلك مساكن وتطليه من داخل ومن خارج بالقار . وهكذا تصنعه ثلاث مئة ذراع يكون طول الفُلك وخمسين ذراعا عرضه وثلاثين ذراعا ارتفاعه وتصنع كوا الفلك وتكمله إلى حد ذراع من فوق وتضع باب الفُلك فى جانبه مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله » (ع ١٤ - ١٦) .

انظر تنازل الله وقوته التى لا توصف ، ومحبته للبشر التى تفوق كل قول ، وما اظهره من الاهتمام بالصديق ، إذ أمره باصلاح الفُلك ، وجاد عليه بتعزية عظيمة ورسم له رجاء الخلاص بالاصلاح ، مريدا بهذا العمل أن يمعن النظر اولئك الذين اجرموا

جرائم جسيمة فيما فعلوه ، ويقلعوا عن غوايتهم ، ولا يباشروا رذائلهم ، لأن الزمان الذى فوض اليهم بعمل الفلك ليتوبوا فيه لم يكن قصيراً ، لكنه كان طويلاً جداً ومقنعاً ليقودهم إلى الرجوع عن جرائمهم .

« فها انا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حيوة من تحت السماء كل ما فى الأرض يموت » (ع ١٧) .

قول الله لنوح « فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حيوة » انظر كيف يوضح عظم خطاياهم بالتهديد ، إذ إنه سيجلب هذا العقاب نفسه على الناطقين وغير الناطقين ، لأن الناس لما انحطوا إلى رذيلة البهائم فلا فرق البتة يكون فى العقوبة .

ولكى يُعلمنا الله أنه لا يبقى شيئا قال « كل ما فى الأرض يموت » لأن المسكونة تحتاج إلى تطهير .

«ولكن اقيم عهدى معك فتدخل الفُلك انت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك» (ع ١٨) .

حتى وان كان بنو نوح وامرأته ونساء بنيه يقصرون كثيراً عن فضيلته إلا أنهم كانوا بعيداً من تفاقم شر باقى الناس .

« ومن كل حى من كل ذى جسد اثنين من كلٍّ تُدخل إلى الفُلك لاستبقائها معك تكون ذكراً وانثى . من الطيور كاجناسها ومن البهائم كأجناسها ومن كل دبابات الارض كأجناسها اثنين من كلٍّ تدخل اليك لاستبقائها » (ع ١٩ ، ٢٠) .

امعن النظر أيها الخليل كم مقدار القلق الذى وُلدَ للصديق إذ يأمل الاهتمام بهؤلاء كلهم ، لأنه ما كفاه الاهتمام بالمرأة والاولاد ونسائهم لكن وانضاف إلى ذلك المراعاة لبهائم وطيور ودبابات هذا مقدارها .

وانت فخذ لنفسك من كل طعام يؤكل واجمعه عندك فيكون لك ولها طعاما » (ع ٢١) .

---

(٥٣) جُفر : ربما هو السرو .

وكأن الله يقول لنوح : لا تظن أنك تبقى بمعزل عن تصرف العناية الإلهية اليك ، هانذا آمرك أن تدخل إلى الفلك ما يقوم باعالتك واعالة البهائم لئلا يشملهم الشغب والضيقة وتهلك البهائم حين لا تجد الغذاء الملائم .

« **فعمل نوح حسب كل ما أمره به الله هكذا فعل** » (ع ٢٢) .

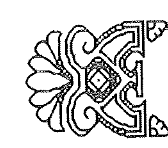
تأمل عظمة نوح وكيف أنه لم يفعل بعض ما أُمر به وبعضا أهمله ، لكنه فعل كل ما أُمر به .

فمَنْ يكون أسعد من هذا الذى عمل كل ما أوصاه الله به وأظهر فى الأوامر طاعة هذا محلها .





الأصحاح السابع



« وقال الرب لنوح ادخل انت وجميع بيتك الى الفلك لانى اياك رأيت باراً فى هذا الجيل » (ع ١) .

ولكى تعلم أن الله لم يُخلص الصديق تفضلاً عليه فقط ، لكن ومجازاة عن اتعابه وفضيلته ، ولهذا السبب قال له « لأنى إياك رأيت باراً فى هذا الجيل » .

وقول الرب لنوح « لانى إياك رأيت باراً فى هذا الجيل » إن هذه الشهادة لعظيمة ، وأهل للتصديق ، لأنه ماذا يكون أعظم منها ، متى كان الخالق نفسه المبدع الوجود يعتقد فى هذا الصديق هذا الاعتقاد .

« من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكراً وأنثى ومن البهائم التى ليست بطاهرة اثنين ذكرا وانثى . ومن طيور السماء ايضا سبعة سبعة ذكراً وانثى لاستبقاء نسل على وجه كل الأرض » (ع ٢ ، ٣) .

أمر الرب نوحا أن يدخل من البهائم الطاهرة سبعة سبعة ومن غير الطاهرة اثنين اثنين، ولما أراد أن يفهمنا السبب قال « لاستبقاء نسل على وجه كل الأرض » .

والضرورة تدعو أن نقول لأى حال أمر الرب نوحاً أن يُدخلَ الى الفُلك سبعة سبعة من البهائم والطيور الطاهرة ؟! ، أمر الرب نوحاً أن يدخل من البهائم والطيور الطاهرة هذا العدد الكثير لكى يكون للصديق تعزية ما وللذين معه يتمتعون بها ، وأن يقدم منها ذبيحة شكر لله بعد النجاة من الطُوفَان .

« لأنى بعد سبعة أيام ايضا أمطر على الأرض اربعين يوما واربعين ليلة وامحو عن وجه الأرض كل قائم عملته » (ع ٤) .

تأمل الآن من المقولات تفاقم صلاح الله وكيف أنه بعد أناة هذا محلها ينذر أيضا ويقول « لأنى بعد سبعة أيام أيضا أمطر على الأرض أربعين يوما وأربعين ليلة » .

وامعن النظر فى أهل نينوى ، وانظر كم الفرق بينهم وبين هؤلاء ، لأنهم بعد سنين هذا عددها سمعوا أن الاهوال قد وصلت إلى الابواب ، ولم يكفّوا عن الشر !! .

وانظر رأفات الله حين قال « لأنى بعد سبعة أيام أيضا أمطر على الأرض » ثم لرغبته

فى تزايد الخوف قال « أمطر على الأرض اربعين يوما واربعين ليلة » فلِمَ فعل الله هكذا؟ أما كان يمكنه لو أراد أن يجلب كل المطر فى يوم واحد بل فى لحَظة واحدة ؟ لكنه فعل الموافق رغبة أن يطيل الخوف ، ويجود عليهم بحجة عساهم أن يفلتوا من العذاب .

وانظر أيضاً كيف أن الله يتقدم بالانذار دفعة واثنتين ، ليعلمنا أن العذاب الذى أحلّه بهم بالواجب هو ، لئلا يندم أحد من ذوى الجهل ويقول لو كان تأنى لكانوا تابوا وابتعدوا عن الرذيلة وانصبّوا إلى الفضيلة ، لهذا أنذر الله بما سيحل قبل سبعة ايام لكى يلجم ألسنة الذين يرغبون التفوه عن غير تمييز .

« **ففعل نوح حسب كل ما أمره به الرب** » (ع ٥) .

انظر كيف أن الكتاب الإلهى يُشيد بحسن وفاء الصديق وطاعته مفيداً إيانا أنه لم يتخلف عن تنفيذ شيء من الأوامر ، لكنه اتم الكل وأقام الدليل على فضيلته بهذا القول .

« **ولما كان نوح ابن ست مئة سنة صار طُوفَان الماء على الأرض** » (ع ٦) .

قد عرفنا أن نوحا عندما كان ابن خمس مئة سنة [٥٤] ، حدث سخط الله وانذاره للناس ، وعندما جاء الطُوفَان كان نوح ابن ست مئة سنة ، إذا كانت هناك مئة سنة بين الامرين ، ولم يربح هؤلاء الناس من هذه المئة سنة شيئا طائلاً على الرغم من تمتعهم بتعليم هذا تقديره عند إصلاح نوح الفلك .

« **فدخل نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه إلى الفلك من وجه مياه الطُوفَان . ومن البهائم الطاهرة والبهائم التى ليست بطاهرة ومن الطيور وكل ما يدب على الأرض . فدخل اثنان اثنان إلى نوح الى الفلك ذكراً وأُنثى كما امر الله نوحاً** » (ع ٧ - ٩) .

ولكى يزيد الكتاب من مديح نوح قال عنه « كما أمر الله نوحاً » إذ إنه كمّل الكل حسبما رسم له الرب ولم يختلف عن واحدة من المقولات له .

(٥٤) (تك ٥ : ٣٢) .

« وحدث بعد السبعة الايام ان مياه الطُوفَان صارت على الأرض . فى سنة ست مئة من حيوة نوح فى الشهر الثانى فى اليوم السابع عشر من الشهر فى ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء » (ع ١٠ ، ١١) .

تأمل ايضاح الكتاب الإلهى ، وكيف أنه لم يفدنا بمعرفة السنة فقط التى جاء فيها الطُوفَان ، بل وأوضح الشهر واليوم ليجعل هذا الشرح القادم فيما بعد أشد تفلسفا ، ورغبة فى أن تكون الحوادث مخيفة .

وعلى ما يلوح لى أن الرب أمر فقط وللحين رضخت طبيعة المياه لأمر الخالق وخرجت من سائر الجهات .

« وكان المطر على الارض اربعين يوما واربعين ليلة » (ع ١٢) .

ان حدوث الطُوفَان فى أربعين يوما وأربعين ليلة علامة عظيمة على محبة الله للبشر، لأنه لفرط صلاحه أراد أن يتعلم منهم ولو البعض إذا ما رأوا بعيونهم هلاك اخوتهم فى الجنس لينجوا من إلهلاك العام العتيد أن يأتى عليهم ، ولهذا السبب جعل مدة الطوفان أربعين يوما وأربعين ليلة ، ليقطع كل عذر وحجة لهم ، لأنه لو كان اراد تغريق الكل فى لحظة واحدة لقدر على ذلك ولكنه جرى على ما يقتضيه صلاحه واستعمل أياماً مداها هذا تقديره .

« فى ذلك اليوم عينه دخل نوح وسام وحام ويافث بنو نوح وامرأة نوح وثلاث نساء بنيه معهم إلى الفُلك . هم وكل الوحوش كأجناسها وكل البهائم كأجناسها وكل الدبابات التى تدب على الأرض كأجناسها وكل الطيور كأجناسها كل عصفور كل ذى جناح . ودخلت إلى نوح إلى الفلك اثنين اثنين من كل جسد فيه روح حيوة » (ع ١٣ - ١٥) .

ينبغى أن نتأمل كيف استطاع الصديق أن يوفق الاولاد والنساء أن تسير مع البهائم والوحوش وبقية الحيوانات ، كيف احتمل النتن ، واقول هذا ، كيف تمكنت البهائم نفسها على التصبر ولم تهلك فى مدة زمان هذا تقديرها ، وهى لا تستطيع الحركة ولا اجتذاب النسيم لكنها كانت معتقلة فى مكان واحد .

فمن اين إذاً تمكن هذا الصديق من أن يتصرف تصرفا مرضياً مع كل مَنْ وما فى الفُلك زماناً هذا عدده ؟!.

ليس هناك جواب من جهة أخرى ، إلا ان الله القادر على كل شيء هو الذى مكّن نوحاً هذا التمكّن المرْضىّ . لأن الله متى صنع شيئا أيها الخليل فلا تكشف عنه بالمقاييس البشرية ، لهذا السبب ينبغى لنا إذا سمعنا أن الله قد أمر بكذا وكذا أن نقنع ونرضخ للمقولات منه ، ولأنه هو خالق الطبيعة فسائر الأمور تجرى على ما يريده .

وأما أنا فأتحير من فضيلة الصديق مع الجماعة ، ومن صلاح الله الذى لا يوصف ومحبته للبشر التى لا توصف ، فاذا امعنت النظر كيف استطاع نوح أن يتصرف بين النمور والسباع وبقية الوحوش غير الانيسة ، اذكر لى أيها الخليل ههنا تلك المنزلة التى كان آدم قد حظى بها قبل المعصية ، وفكّر فى صلاح الله ، لأنه بعد عصيان آدم ازال السلطة المفوضة اليه ، لكنه لما وجد رجلاً اخر قادراً على إعادة الصورة القديمة وحافظا لرسوم الفضيلة مظهراً غاية الطاعة نحو الوصايا ، رفعه ايضا إلى كرامته .

إن هذا العجيب نوحاً استسهل التصرف مع الوحوش ، ولم يرخه لا ضيق المكان ولا طول الزمان ولا اعتقاله ، ولا تعذر استنشاق الهواء عليه ، لكن ايمانه بالله استخف كل هذه العوارض ، وتصرف كما نتصرف نحن فى الحدائق والأماكن المشجرة ، لأن أمر الله سهّل له المستصعبات ، لأن هذه الصفة صفة الأبرار ، متى احتملوا أمراً من أجل الله لم يهتموا بمشاهدة العوارض .

أرأيت كيف أن الشوق إلى الله يقصم إمتداد الشدائد ولا يُمكّن من الإحساس بالعوارض الهاجمة ؟ لهذا السبب اصطبر هذا الطوباوى على هذه الأمور كلها بوداعة إذ قد اعتاد الايمان والرجاء بالله .

« والداخلات دخلت ذكراً وانثى من كل ذى جسد كما أمره الله واغلق الرب عليه » (ع ١٦) .

قول الكتاب عن نوح « واغلق الرب عليه » تأمل ههنا هذا القول لكى تعلم أن الله تناهى فى تحصين الصديق ، لهذا السبب زاد غلق الفلك عليه من خارج حتى لا يمكن الصديق أن ينظر الهلاك الكلى الحادث فيقاسى حزناً جزيلاً .

وقوله « واغلق الرب عليه » كأنه فى سجن لا يشاهد بعينيه الحوادث فيهلع ويجزع ، لأنه من الواجب إذا ما عاين كثرة المياه أن يخاف ، فلما اهتم به المحب للبشر لم يفسح له بمشاهدة تدفق المياه ولا معاينة الهلاك العارض .

وقوله « واغلق الرب عليه » ، قل لى كيف احتمل نوح ما كان فيه عند اعتقاله هناك كأنه فى سجن كريه ؟ أجبنى كيف قدر على مصادمة تلك الامواج وهو فى فلك غير متمكن من مشاهدة السماء ولا أن يرفع نظره إلى جهة أخرى ؟ لكنه كان منقبضاً داخلاً ولا يستطيع بالكلية أن ينظر ما يجلب له تعزية ما ، لقد سكن محبوسا سنة كاملة سكنا غريبا ولا يقدر على استنشاق إلهواء ، قل لى كيف احتمل هذا كله ورضى به ؟!.

وقوله « واغلق الرب عليه » وينبغى أن نتأمل هذا ايضا : من اين كان لهم من مشروب وهم فى الفلك ؟ .

« وكان الطُوفَان اربعين يوما على الارض وتكاثرت المياه ورفعت الفُلك فارتفع عن الأرض . وتعاظمت المياه وتكاثرت جداً على الارض فكان الفلك يسير على وجه المياه . وتعاظمت المياه كثيراً جداً على الارض فتغطت جميع الجبال الشامخة التى تحت كل السماء » (ع ١٧ - ١٩) .

انظر كيف يشرح لنا الكتاب تدفق المياه الكثير شرحاً بليغاً ؟ .

ولقد أحسن الله المحب للبشر فى التدبير إذ إنه من قبل أغلق الفلك حذراً من أن يشاهد الصديق ما حدث ، فإن كنا نحن بعد سنين هذا تقديرها وبعد اجيال هذا صفتها اذا ما سمعنا شرح الكتاب فقط تنعصر قلوبنا وتتحير ، أما كان من الواجب أن يتألم ذاك الصديق إذا ما عاين تلك اللجة الناهضة ؟! .

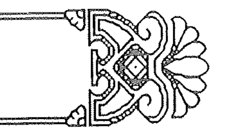
امعن النظر أيها الخليل كيف إذا ما حدث الآن مطر قليل نجزع ونخشى على كل شيء ونيأس من الحياة نفسها كما يقال ، أفما كان من الواجب اذا أن يتألم نوح فى ذاك الوقت إذا ما رأى المياه وقد تعالت إلى هذا الحد ؟ .

« خمس عشرة ذراعا فى الارتفاع تعاظمت المياه فتغطت الجبال . فمات كل ذى جسد كان يدب على الارض من الطيور والبهائم والوحوش وكل الزحافات التى كانت تزحف على الارض وجميع الناس . كل ما فى انفه نسمة روح حيوة من كل ما فى اليابسة مات . فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض الناس والبهائم والدبابات وطيور السماء فانمحت من الأرض وتبقى نوح والذين معه فى الفلك فقط . وتعاظمت المياه على الارض مئة وخمسين يوماً » (ع ٢٠ - ٢٤) .

إن الكتاب الإلهى يشرح هذه الأمور لا ليفيدنا فقط بمعرفة زيادة المياه واعتلائها لكن لكى نقدر مع هذه أن نعرف أنه لم يتخلف شيء عن الزوال والإبادة مع الناس ، أما البهائم والوحوش والدبابات فكلها استؤصلت لأن هذه لما كانت قد ابدعت من اجل الإنسان الذى كان عتيداً على الإبادة ، فبالواجب أن تشاركه هذه فى هذا إلهلاك .

لقد احتاجت المسكونة إلى تطهير كامل ووجب أن تتنقى من كل درن ولا يبقى للرذيلة أثر ، فكما أن الصانع الحاذق إذا ما أخذ إناءً قد طال به الزمان وعلاه الصدأ يلقيه فى النار ويزيل عنه كل صدأ ، وينقله من تلك الهيئة ويعيده إلى حسن الصورة الأولى ، هكذا فعل ربنا إذ طهر كافة المسكونة بالطوفان الذى كان فى ذلك الوقت ، وعتقها من رذيلة الناس ومن الدنس والفساد الكثير ، وجعلها أشد بهاءً وأظهر لنا من البداية وجهها نيراً ، ولم يفسح أن يبقى ولا أثر لتلك القباحة الأولى .





الأصحاح الثامن

« ثم ذكر الله نوحا وكل الوحوش وكل البهائم التى معه فى الفلك واجاز الله ريحاً على الأرض فهدأت المياه » (ع ١) .

لما كان المطر قد استمر لمدة أربعين يوما وأربعين ليلة وتعالى فوق الجبال خمس عشرة ذراعاً ، وظل على هذا الحال لمدة مئة وخمسين يوماً ، كما أن الصديق مع حدوث هذه العوارض كان فى الفُلك غير قادر على استنشاق الهواء ، ومعه كل البهائم ، ولهذا السبب قال الكتاب « ثم ذكر الله نوحا » فما معنى « ذكر » أى تراءف ورحم الصديق وهو منصرف فى الفُلك فى مثل هذه الضيقة والحيرة وقلة المعرفة بالوقت الذى تنقضى فيه هذه الأهوال .

ولكى تعلم عمق محبة الله للبشر أضاف الكتاب الإلهى إلى ذلك وقال « وكل الوحوش وكل البهائم التى معه فى الفُلك » انظر كيف فعل الله كل هذا لأجل كرامة الانسان ، فكما أنه أباد البهائم كلها مع أولئك الذين اهلكهم الطوفان ، هكذا هنا لما أراد التراءف على الصديق ولأجل إكرامه إياه مدّ صلاحه إلى طبيعة البهائم والوحوش .

وقول الكتاب « وأجاز الله ريحا على الأرض فهدأت المياه » ليحوّل انزعاج فكر الصديق إلى سكون وليتنعم بمتعة الضياء واستنشاق الهواء .

« وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء فامتنع المطر من السماء . ورجعت المياه عن الارض رجوعا متواليا وبعد مئة وخمسين يوما نقصت المياه » (ع ٢ ، ٣) .

على ما يلوح لى اقول إن الرب رأى أن تقف المياه فى مكانها الخاص بها ولا تُحدث زيادة لكى تنتهى بعد قليل ، فرجع الماء عن وجه الأرض وتناقص بعد مئة وخمسين يوماً .

فأى فكر يستطيع أن يدرك هذا ، كيف أن المطر كف والينابيع لم تزد ، وطاقات السماء انقبضت ، وهذا الماء الذى هذا مقداره كيف ذهب ، فكيف نقصت هذه المياه بغتة ؟ فمَنْ يستطيع أن يحد هذا بفكر بشرى ، فما هو إذاً هذا ؟! إن هذا أمر الله الفاعل كل هذا ، فلا نكثر نحن إذا فى السؤال عن الكيفية ، لكن نؤمن بهذا فقط : أن

الله أمر وارتفع الغمر ثم أمر أيضا فأُمسك عن الجريان وعاد إلى مستقره الذى خلقه له وحده .

« واستقر الفلك فى الشهر السابع فى اليوم السابع عشر من الشهر على جبال اراراط . وكانت المياه تنقص نقصا متواليا إلى الشهر العاشر وفى العاشر فى اول الشهر ظهرت رؤوس الجبال » (ع ٤ ، ٥) .

تأمـــل كم تغيير حدث بغتة وتناقصت طبيعة المياه حتى أن الفُلك استقر على الجبال .

« وحدث بعد اربعين يوما ان نوحا فتح طاقة الفُلك التى كان قد عملها . وأرسل الغراب فخرج متردداً حتى نشفت المياه عن الأرض » (ع ٦ ، ٧) .

انظر إلى الصديق كيف أنه لم يتجاسر أن يشاهد الحال بنفسه ، لكنه أرسل الغراب مريداً أن يعرف به هل يتوقع تغييراً صالحاً .

والضرورة تدعو أن نقول العلة التى لأجلها لم يعد الغراب ، وهذه العلة هى : عندما نضبت المياه صادف الغراب أجسام ناس وبهائم فوجدها غذاءً ملائماً ، لذلك استقر هناك، لأنه لو لم يكن هذا لكان عاد إلى الفُلك .

« ثم ارسل الحمامة من عنده ليرى هل قلت المياه عن وجه الأرض . فلم تجد الحمامة مقراً لرجلها فرجعت اليه إلى الفلك لأن مياها كانت على وجه كل الأرض فمد يده واخذها وأدخلها عنده إلى الفلك » (ع ٨ ، ٩) .

وبالواجب أن يتشكك هنا متشكك فيقول : كيف يقول الكتاب الإلهى فيما تقدم «ظهرت رؤوس الجبال » (ع ٥) ، والآن يقول « فلم تجد الحمامة مقراً لرجلها » ؟ ينبغى لنا أن نقرأ المقولة قراءة شافية ونعرف السبب ، لأنه لم يقل لم تجد الحمامة مقراً على الاطلاق ، لكنه اضاف إلى ذلك « لرجلها » لكى يعلمنا أن المياه قد نضبت بعض النضوب فظهرت رؤوس الجبال ، إلا أن رؤوس هذه الجبال من كثرة المياه إمتلأت طينا ، ولهذا السبب لما لم تتمكن الحمامة من المقام ، ولما لم تجد غذاءً ملائماً رجعت ، مفيدة الصديق بعودتها أن المياه كثيرة بعد .

وقول الكتاب « فرجعت اليه إلى الفُلك » أرأيت حسن وفاء الحمامة ، وكيف أنها عادت فى الحين معلمة للصديق أن يتمهل بعض التمهل ؟ .

« فلبث ايضا سبعة ايام أخر وعاد فارسل الحمامة من الفلك . فأتت اليه الحمامة عند المساء واذا ورقة زيتون خضراء فى فمها فعلم نوح ان المياه قد قلت عن الأرض » (ع ١٠ ، ١١) .

قول الكتاب « فأتت اليه الحمامة عند المساء » ولم يذكر هنا « عند المساء » جزافا، لكن لكى تفقه أن الحمامة اكلت فى مدة النهار حيث وجدت غـذاءً موافقا ثم عادت « عند المساء » .

وقوله « واذا ورقة زيتون خضراء فى فمها » وبهذا تعزى الصديق غاية التعزية برجوع الحمامة وفى فمها ورقة الزيتون .

ولكن عسى أن بعض الناس يقول : من أين وجدت الحمامة ورقة زيتون ؟ فنجيبه : ان شجرة الزيتون دائمة النمو ، فلما عادت المياه إلى مستقرها ، فمن الواجب ان كان فى الشجرة ورقاً .

«فلبث ايضا سبعة ايام أخر وأرسل الحمامة فلم تَـعُـدْ ترجع اليـه ايضـا» (ع ١٢) .

تأمل كيف أن الصديق أخذ تعزية كافية بهذه الأمور كلها ، فكما انه اقتنى آمالاً صالحة حين عادت اليه الحمامة وفى فمها ورقة الزيتون ، وهكذا الآن فإن امتناعها من العودة عندما خرجت أفادت برهانا عظيما على وجودها هناك فى راحة جزيلة ، إذ انصرفت المياه بالكمال .

« وكان فى السنة الواحدة والست مئة فى الشهر الأول فى اول الشهر أن المياه نشفت عن الأرض فكشف نوح الغطاء عن الفلك ونظر فاذا وجه الأرض قد نشف . وفى الشهر الثانى فى اليوم السابع والعشرين من الشهر جفت الأرض » (ع ١٣ ، ١٤) .

يَـلُـمُ بى هنا الاستعجاب والذهول من فضيلة هذا الصديق ومحبة الله للبشر ، أجبنى كيف انه لم يفقد بصره حين باشر إلهواء ودنا بنظره إلى السماء بعد زمان هذا مقداره؟ إن الصديق عاش فى الفلك فى ظلام سنة كاملة وأشهر ، هذا مقدراها ، لكنه حينما أبصر الآن لمعان الضوء لم يعرض له شىء من هذا ، لأن نعمة الله كانت مع الصبر المفوض اليه فقوّت مشاعر جسمه وجعلتها أعلى من الضرورات الجسدية .

« وكلم الله نوحا قائلاً . أُخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك » (ع ١٥ ، ١٦) .

لما حدث تطهير لكل المسكونة ، وانغسلت كل الخليقة وأطرحت سائر الوسخ الذى حدث لها من شر الناس وأنار الرب وجهها ، حينئذ أُمر الصديق أن يخرج من الفُلك وعتقه من ذلك السجن الكريه فقال له « اُخرج من الفُلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك » ، وتأمل صلاح الله ، كيف انه يعزى الصديق بكافة الأشياء .

« وكل الحيوانات التى معك من كل ذى جسد الطيور والبهائم وكل الدبابات التى تدب على الارض اخرجها معك ولتتوالد فى الارض وتثمر وتكثر على الأرض » (ع ١٧) .

انظر كيف أن هذا الصديق أيضا يقبل من الله البركة التى قبلها آدم قبل المعصية ، فكما أن آدم حين خُلق سمع الله يقول « اثمروا واكثروا واملأوا الأرض » (تك ١ : ٢٨) ، وهكذا الآن أيضا سمع نوح الله يقول « ولتتوالد فى الأرض وتثمر وتكثر على الأرض » ، فكما أن آدم كان أصل كل الموجودين قبل الطوفان ، هكذا وهذا الصديق صار لكل الذين بعد الطوفان خميرة وأصل .

« فخرج نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه وكل الحيوانات كل الدبابات وكل الطيور كل ما يدب على الأرض كأنواعها خرجت من الفلك » (ع ١٨ ، ١٩) .

لما قَبِل نوح البركة القائلة « ولتتوالد فى الأرض وتثمر وتكثر على الأرض » (ع ١٧) ، خرج من الفُلك مع كل مَنْ كان معه كما أمره الرب . وبعد هذا عاش الصديق فى الأرض مع بنيه وامرأته ونساء بنيه .

« وبنى نوح مذبحا للرب واخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة واصعد محرقات على المذبح » (ع ٢٠) .

لما خرج نوح من الفُلك كما أمره الرب مع اولاده وامرأته ونساء اولاده وكل الوحوش وكل الطيور ، وقَبل من الله مع الخروج تلك البركة الجزيلة القائلة « ولتتوالد فى الأرض وتثمر وتكثر علَى الارض » (ع ١٧) ، لذلك أراد الكتاب أن يفيدنا بحسن

وفاء الصديق فقال « وبنى نوح مذبحاً للرب » تأمل أيها الخليل تأملاً بليغا من هذا القول كيف وضع خالق الكل فى طبيعتنا المعرفة الخالصة بالفضيلة ، فلو لم يكن الأمر كذلك، وإلا فقل لى من أين حدث للصديق هذا الشيء وهو لم يشاهد إنسانا آخر فعل هذا الفعل ، لكن كما أن هابيل فى البدء تحرك من ذاته وقدم قرابينه ، هكذا الآن وهذا الصديق قدم الشكر للرب بالذبائح حسب المقدرة البشرية من عزمه الخاص وباختياره .

وانظر كيف أن نوحاً ما احتاج إلى عمارة بهية ولا إلى هيكل ولا إلى بيت مستحسن ، ولا إلى شيء آخر البتة ، لأنه علم علما واضحا أن الرب يلتمس العزم فقط، فبنى مذبحاً للرب وقدم ذبائحا وأظهر من جميل النية وخالصها ما وصلت إليه مقدرته .

« فتنسم الرب رائحة الرضا وقال الرب فى قلبه لا أعود ألعن الأرض ايضا من اجل الانسان لأن تصور قلب الانسان شرير منذ حداثته ولا أعود أيضا اميت كل حى كما فعلت » (ع ٢١) .

لما قَبِل الله المحب للبشر الذبائح من نوح توّج عزمه واظهر أيضا إكرامه لأن الكتاب يقول « فتنسم الرب رائحة الرضا » .

وتأمل هنا أن ذبيحة الصديق صارت مقبولة لكى تعلم بنفس الامور اكتفاء الرب وأنه غير محتاج البتة وأنه ما سمح أن تكون هذه الاشياء لسبب آخر إلا ليقود الناس إلى حسن الوفاء ، لهذا السبب تركها أن تبيد بالنار لكى يعلم مقدمو الذبائح من الحوادث أن هذه الأمور كلها كانت لمنفعتهم .

وقول الرب « لا اعود ألعن الارض أيضا » إن الله بعد معصية آدم لعن الأرض فقال « ملعونة الأرض بسببك » (تك ٣ : ١٧) ، أما الآن فاراد الرب تعزية نوح وتقوية عزيمته فقال « لا أعود ألعن الأرض أيضا » إن هذا الاحسان لجسيم ، وإن هذا الحب لعظيم ، وإن تفاقم خيرية الله لا توصف .

وقوله « ولا أعود أيضا اميت كل حى كما فعلت » ، تأمل كيف أن هذه الأمور كلها تجود على الصديق بتعزية عظمى ، والأولى أن نقول ليس للصديق فقط لكن لكل الناس ، لأن معنى قول الرب « ولا أعود أيضا اميت كل حى » أى لا يحدث طوفان هذا صفته ؛ ولا يستحوذ على المسكونة هلاك هذا مقداره .

« مدة كل ايام الارض زرع وحصاد وبرد وحرّ وصيف وشتاء ونهار وليل لا تزال » (ع ٢٢) .

قول الرب « مدة كل أيام الأرض زرع وحصاد وبرد وحر وصيف وشتاء » أى أن الفصول لا تنتقل عما هى عليه ، بل البرد والحر والصيف والشتاء ، يكونون فى كل فصل من فصول السنة .

وقوله « ونهار وليل لا تزال » لما كان فى وقت الطوفان قد حدث خلل فى هذا النظام كله وعاش هذا الصديق فى الفُلك ذلك الزمان كله كمَنْ عاش فى ليلة واحدة ، لهذا السبب قال الرب : « ونهار وليل لا تزال » أى أن النهار والليل لا يختلفان ، لكن إلى نهاية الدهر يبقيان يخدمان خدمة لا غيار لها .

أرأيت هذا العزاء الكافى فى إنهـــاض عزيمة الصديق ؟ أشاهدت حسن نيته أية جائزة قبلت ؟ .





الأصحاح التاسع

« وبارك الله نوحا وبنيه وقال لهم اثمروا واكثروا واملأوا الأرض . ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض وكل طيور السماء مع كل ما يدب على الارض وكل اسماك البحر قد دفعت إلى ايديكم » (ع ١ ، ٢) .

انظر هذا الصديق مؤهلاً لبركة آدم بعينها ومستعداً لتلك الرئاسة المنتزعة بفضيلته الخاصة ، فكما ان الله قال بعد خلقة آدم « اثمروا واكثروا واملأوا الأرض واخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض » (تك ١ : ٢٨) ، قال أيضا الآن لنوح : « اثمروا واكثروا واملأوا الأرض ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض وكل طيور السماء مع كل ما يدب على الأرض » .

« كل دابة حية تكون لكم طعاما كالعشب الأخضر دفعت اليكم الجميع غير ان لحما بحياته دمه لا تأكلوه » (ع ٣ ، ٤) .

انظر هذا القانون بعينه حدث مع آدم على معنى آخر ، فكما أن الله أمر آدم هناك بعد أن اعطاه الرئاسة على الكل فى الجنة أمره أن يبتعد من شجرة واحدة بقوله ، « من جميع شجر الجنة تأكل أكلا . وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها » (تك ٢ : ١٦ ، ١٧) ، وهكذا هنا بعد خروج نوح من الفلك واعطائه البركة فى التوالد والثمر ، قال الله « كل دابة حية تكون لكم طعاما كالعشب الأخضر دفعت اليكم الجميع غير أن لحما بحياته دمه لا تأكلوه » .

وإن سأل سائل ما معنى قول الرب « غير أن لحماً بحياته دمه لا تأكلوه » ؟ أجيبه : أى لا يأكلوا المخنوق لأن الدم هو نفس الحيوان ، فكأن الله يفيدهم هنا بان الدم هو لى ، وأما اللحم فهو لكم .

وقول الله « غير أن لحما بحياته دمه لا تأكلوه » ومن هذا الوقت ابتدأ أكل اللحم ، لا لكى يبعثهم على الشرَه ، لكن لما كان الناس عتيدين أن يقدموا ذبائح من الحيوانات شكراً وحمداً لله ، لهذا السبب أباح لهم التسلط على أكل لحمها بعد ذبحها وتقديمها ذبيحة لله .

« واطلب أنا دمكم لانفسكم فقط من يد كل حيوان أطلبه ومن يد الانسان أطلب نفس الإنسان من يدّ الإنسان أخيه » (ع ٥) .

اوصى الرب بهذا منذ البدء قابضاً نهضة الناس عن سفك دم الإنسان ، كما انه اراد أن يجعلهم من ههنا ودعاء بما عهده من هذه العهود .

« سافك دم الإنسان بالإنسان يُسفك دمه لأن الله على صورته عمل الإنسان » (ع ٦) .

قول الله « سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه » امعن النظر فى مقدار الخوف الذى حذر به الله بهذا القول .

وقولِه « لأن الله على صورته عمل الإنسان » تأمل كيف أن الإنسان على صورة الله قد خُلق ولأى قدر استحق من الله إذ إنه قَبل التسلط على سائر الخليقة .

« فاثمروا انتم واكثروا وتوالدوا فى الأَرض وتكاثروا فيها » (ع ٧) .

أى لتكون لكم الرئاسة والسلطان والمتعة ، تأمل محبة الله للبشر وكيف أعطى الإنسان أيضا من الإحسان أعظمه ومن الأفضال أجسمه .

« وكلم الله نوحا وبنيه معه قائلاً . وها انا مقيم ميثاقى معكم ومع نسلكم من بعدكم . ومع كل ذوات الانفس الحية التى معكم الطيور والبهائم وكل وحوش الارض التى معكم من جميع الخارجين من الفلك حتى كل حيوان الأرض . اقيم ميثاقى معكم فلا ينقرض كل ذى جسد ايضا بمياه الطوفان ولا يكون ايضا طوفَان ليخرب الأرض » (ع ٨ - ١١) .

لما كان من الواجب أن يُلِمَّ بهذا الصديق الجزع ويقلق خاطره الفزع إن حدث ولو القليل من المطر فيحيط به الحزن والتوجع ، خوفا من أن يحدث أيضاً للمسكونة طوفان هذا تقديره ، فلما عرف الرب الصالح هذا فأراد تشجيع الصديق والآتين فيما بعد كلهم وإزالة الخوف عنهم وطمأنتهم ، لهذا السبب قوّى الله نيـة الصديق وأزال عنه كل خوف ، ووعده بأنه لا يجلب البتة عقابا بالطوفان .

أرأيت عظم هذه المواثيق ؟ اشاهدت شرف هذه العهود ؟ وتأمل أيضا كيف أن الله يظهر محبته للبشر اظهاراً مستوفيا وينتهى به إلى البهائم والوحوش ، ولما كانت هذه الحيوانات اُبدعت من قبل الإنسان لهذا السبب هى الآن تشاركه فيما صار اليه من الإحسان إذ إن هذا الاحسان لم يصل الى الإنسان فقط لكن وكافة الحيوانات تشاركه أيضا فى كَرَم الرب .

« وقال الله هذه علامة الميثاق الذى انا واضعه بينى وبينكم وبين ذوات الانفس الحية التى معكم إلى اجيال الدهر » (ع ١٢) .

تأمل كم كرامة استعملها الله مع الصديق ، فكما أن إنسانا يفاوض إنسانا ، هكذا عاهد الله نوحاً وقال له « هذه علامة الميثاق الذى أنا واضعه بينى وبينكم وبين ذوات الانفس الحية التى معكم » .

وقول الله « إلى اجيال الدهر » أرأيت العلامة المقصود اعطاؤها لكل الحياة كيف انها ممتدة فى الأجيال الدهرية ؟ .

« وضعت قوسى فى السحاب فتكون علامة ميثاق بينى وبين الأرض . فيكون متى انتشر سحابا على الأرض وتظهر القوس فى السحاب . إنى اذكر ميثاقى الذى بينى وبينكم وبين كل نفس حية فى كل جسد فلا تكون ايضا المياه طوفانا لتهلك كل ذى جسد . فمتى كانت القوس فى السحاب ابصرها لاذكر مثياقا ابديا بين الله وبين كل نفس حية فى كل جسد على الأرض . وقال الله لنوح هذه علامة الميثاق الذى انا اقمته بينى وبين كل ذى جسد على الأرض» (ع ١٣ - ١٧) .

أرأيت مقدار تنازل الله وحسن اهتمامه بجنسنا ومقدار ما أظهره من محبته للبشر ؟ ليسِ لأنه رأى تغير الناس ، لكن لكى يفيدنا بهذه الأمور كلها لفرط صلاحه فلا يكون طُوفَان حتى إنه يستأصل ، فمثل هذا لا يحدث البتة ، وهذا كله فعله الله لما شاهد الطبيعة البشرية خائفة من الطوفان ، ولذلك أعطى علامة بأنه لا يأتى بطوفان على المسكونة ولو أن جرائم الناس بلغت مداها .

اعاينت هذا الاهتمام ؟ ألاحظت شرف هذا الميثاق ؟ أرأيت حسن تلطف الله المحب للبشر كيف أنه يفعل كل ما يفعله لا لشىء آخر إلا لأجل خلاصنا ؟ فاذا أمعنا النظر فى هذه الأمور فلا نتوانى ولا نهمل الفضيلة ولا نتجاوز ما رسمه الله لنا من شرائع

« وكــان بنــو نوح الذين خرجوا من الفلك ساما وحاما ويافث . وحام هــو ابــو كنعان . هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض » (ع ١٨ ، ١٩) .

كيف من هؤلاء الثلاثة أصبحت هذه الاعداد الوافرة ؟ وكيف نهضوا بهذه الكثرة؟ كيف من هؤلاء القلة قام هذا العالم كله ؟ كيف ثبتت لهم الأجساد ولم يكن هناك

طبيب يعالج ولا اهتمام آخر ، لأنهم لم يكونوا قد توزعوا على مدن البتة ، لكنهم بعد شقاء التصرف فى الفُلك خرجوا منه كالمعتقلين ، وعاشوا فى وحدة لا توصف ، فكيف لم يهلكوا ؟! كيف لم يفنوا قل لى ، الفزع والهلع أما كانا كافيين أن يزعجا فكرهم ويقلقا خاطرهم ؟! .

فلا تستغرب هذا أيها الخليل ، لأن الله خالق الكل أزال هذه الموانع بأمـــره القائل « اثمروا واكثروا واملأوا الأرض » (تك ١ : ٢٨) ، فهو إذاً الجائد بهذا الاثمار ، فاذا ما أمر الله بشيء لا نلتمس أن تجرى الأمور حسب ما يقتضيه النظام البشرى ، لأنه فوق الطبيعة ولا يحتاج إلى نظام الطبيعة ، لأنه من هؤلاء الثلاثة ملأ المسكونة كلها كقول الكتاب « هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض » .

« وابتدأ نوح يكون فلاحا وغرس كرماً . وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه » (ع ٢٠ ، ٢١) .

إن الكتاب الإلهى لم يسجل فضائل القديسين فقط بل وذنوبهم ، لكى ننافسهم فى الأولى ، ونهرب من الثانية ، وليس هذا فحسب لكن قد يظهر لك الكتاب صديقين قد اخطأوا عدة دفعات ، ومجرمين قد اقلعوا عن خطأهم مرات كثيرة ، لكى إذا ما رأى الناهض ابراراً قد سقطوا ألا يثق ، والمنغمس فى الهفوات إذا ما عاين كثيرين قد اُنتشلوا والى الذروة نفسها وصلوا فلا ييأس .

وقول الكتاب « وشرب من الخمر فسَكَرَ وتعرى داخل خبائه » فاذا ما سمعنا نحن المنغمسين فى مثلِ هذه الجرائم ان هذا الصديق الكامل الذى قَبِل الشهادة من الله ، قد شرب الخمر وسَكَرَ ،. فكيف لا نحرص غاية الحرص فى الهروب من ثقل السُكْر .

إن الصديق لم يشرب من الخمر عن شَرَه ، لكن من قلة خبرته بالحال ، وإما انه لم يشرب الخمر على الاطلاق ، فاسمع الكتاب نفســـه يقيم العذر فـى هـذا بما يقولـــه « وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً » ، إذ إن قوله « وابتدأ » يدل على فرط جهله وقلة خبرته ، فعسى أن يكون نوح قد ذاق الثمرة وعصر عناقيد وتناول منه ، ولما لم يكن قد ذاقه أولاً ، ولا رأى أحد تناول منه شيئا فلم يعرف مقدار المأخوذ منه ، ولا كيف ينبغى أن يستعمل ، فسَكَرَ لجهله بهذه الأمور .

تأمل كيف أنه لما استعمل نوح الاسراف فى تناول الخمر لأجل جهله بالحال ، ليس انه ما نفعه فقط لكن وأضرّ به وأفسد عليه نظامه .

وقوله عن نوح « وتعرى داخل خبائه » إن السكر أيها الخليل لردئ وكاف لأن يظلم المشاعر ويغرق الفكر ، لأنه يقيد الإنسان برباطات لا تنحل فتصيّره كالميت العاطل من الحركة ، والأولى أن نقول أخسّ من المائت ، لأن المائت تعطل من عمل الفضائل والرذائل ، أما هذا فقد تعطل من الفضائل ويعمل الرذائل ويصير مضحكة الكل حوله .

« فأبصر حام ابو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجاً » (ع ٢٢) .

قول الكتاب عن حام « وأخبر اخويه خارجا » عسى أن يكون هناك قوم آخرون فيعلمهم عورة أبيه ، بهذا المقدار كان دهاء هذا الغلام .

« فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على اكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة ابيهما ووجهاهما إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما » (ع ٢٣) .

أرأيت حسن وفاء سام ويافث ؟ إذ إن حام أذاع ، أما هذان فلم يستجيزا النظر لكنهما مشيا إلى الوراء لكى يسترا عورة أبيهما .

انظر وداعة سام ويافث مع عظم هذه النية الجميلة إذ إنهما لم ينهرا اخاهما ولا أنبّاه ، لكن عندما سمعا هذا الأمر اهتما بشيء واحد وهو إصلاح هذا الشيء واظهار ما عاد بكرامة الوالد .

إن خشية سام ويافث لجزيلة وليس يوضحها لنا سترهما لعورة ابيهما فقط ، لكن وانهما لم يحتملا المعاينة ، فلنتعلم من ههنا ونربح الورع من الأمرين معا ، ولنماثل سام ويافث ، أما مما رآه حام فلنهرب .

« فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير [٥٥] . فقال معلون كنعان [٥٦] عبد العبيد يكون لاخوته . وقال مبارك الرب اله سام وليكن كنعان عبداً لهم . ليفتح الله ليافث فيسكن فى مساكن سام وليكن كنعان عبداً لهم . وعاش نوح بعد الطوفان ثلاث مئة وخمسين سنة . فكانت كل ايام نوح تسع مئة وخمسين سنة ومات » (ع ٢٤ - ٢٩) .

قول الكتاب « فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير » فان قال قائل : من أين عرف نوح ؟!! أجيبه : عسى أن الأخوين طالعاه بالحال على سبيل الوشاية بالأخ والطعن عليه .

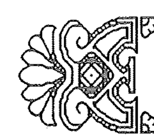
✣ ✣ ✣

(٥٥) الابن الصغير هنا ليس بحام ، وهو ليس بسام بالضرورة والمرجح أنه ابن حام الأصغر الذى هو كنعان ، فالعبرانيون يطلقون اسم الابن على الحفيد .

(٥٦) رأى العلامة أوريجانوس أن كنعان أبصر عورة جده نوح وأخبر أباه حاماً ، وبهذا الرأى نستطيع أن نفهم لماذا لعن نوح كنعان .



الأصحاح العاشر



« وهذه مواليد بني نوح سام وحام ويافث وولد لهم بنون بعد الطوفان . بنو يافث جومر وماجوج ومادای ویاوان وتوبال وماشك وتيراس . وبنو جومر اشكناز وريفاث وتوجرمه . وبنو ياوان اليشة وترشيش وكتيم ودودانيم . من هؤلاء تفرقت جزائر الامم باراضيهم كل إنسان كلسانه حسب قبائلهم بامهم . وبنو حام كوش ومصرايم وفوط وكنعان . وبنو كوش سبا وحويلة وسبتة ورعمة وسبتكا وبنو رعمة شبا وددان . وكوش ولد نمرود الذى ابتدأ يكون جباراً في الأرض . الذى كان جبار صيد أمام الرب . لذلك يقال كنمرود جبار صيد امام الرب . وكان ابتداء مملكته بابل وأرك وأكّد وكلنة في ارض شنعار . من تلك الارض خرج أشُور وبنى نينوى ورحوبوت عير وكالح . ورسن بين نينوى وكالح هي المدينة الكبيرة . ومصرايم ولد لوديم وعناميم ولهابيم ونفتوحيم . وفتروسيم وكسلوحيم الذين خرج منهم فلشتيم وكفتوريم . وكنعان ولد صيدون بكره وحنا . واليبوسي والأمورى والجرجاشي والحوى والعرقي والسيني . والاروادى والصمارى والحماتي . وبعد ذلك تفرقت قبائل الكنعاني . وكانت تخوم الكنعاني من صيدون حينما تجئ نحو جَرار إلى غزة وحينما تجئ نحو سدوم وعمورة وادمة وصبوييم إلى لاشع . هؤلاء بنو حام حسب قبائلهم كالسنتهم باراضيهم وامهم . وسام ابو كل بنى عابر اخو يافث الكبير ولد له ايضاً بنون . بنو سام عيلام واشور وأرفكشاد ولود وأرام . وبنو أرام عوص وحول وجاثر وماش. وارفكشاد ولد شالح وشالح ولد عابر . ولعابر ولد إبنان اسم الواحد فالج لان في أيامه قُسِمَت الأرض . واسم أخيه يقطان . ويقطان ولد الموداد وشالف وحضرموت ويارح . وهدورام واوزال ودقلة . وعوبال وابيمايل وشبا واوفير وحويلة ويوباب . جميع هؤلاء بنو يقطان . وكان مسكنهم من ميشا

حينما تجيء نحو سفار جبل المشرق . هؤلاء بنو سام حسب قبائلهم كالسنتهم باراضيهم حسب اممهم . هؤلاء قبائل بنى نوح حسب مواليدهم باممهم . ومن هؤلاء تفرقت الامم فى الارض بعد الطوفان » (ع ١ - ٣٢)[٥٧] .



(٥٧) عفوا عزيزى القارئ ، لم أجد شرحا لهذا الاصحاح لا فى هذه المخطوطة ولا فى المخطوطات التالية : رقمى ١ ، ٣٥٠ لاهوت بمكتبة البطريركية ، رقم ٢١٨ بمكتبة المتحف القبطى ، رقم ٨٩ بمكتبة الآباء الفرنسيسكان بالقاهرة .



الأصحاح الحادى عشر

« وكانت الأرض كلها لسانا واحداً ولغة واحدة » (ع ١).

قول الكتاب « وكانت الأرض » فليس كلامه هنا عن الأرض لكن عن جنس الناس ، ليفيدنا أن كل الناس كانت لهم لغة واحدة .

وقوله « وكانت الأرض كلها لسانا واحداً ولغة واحدة » أى أن الكل متساوون فى اللسان واللغة .

« وحدث فى ارتحالهم شرقا انهم وجدوا بقعة فى ارض شنعار [٥٨] وسكنوا هناك » (ع ٢) .

انظر كيف أن الطبيعة البشرية لا تحتمل الوقوف فى حدودها ، لكنها دائما تتعدى حدودها الخاصة وتتجاوز قدرها وتقدم إلى العظائم ، وتصبو إلى الجسائم ، وهذا هو المبيد للجنس البشرى ، وهو الجهل بمقدار الطبيعة واشتياق كبائر الأمور ، وتجاوز القدر ، ومن هنا المشغوفون بأمور العالم ، إذا ما استغنوا وتمكنوا يريدون الترفع إلى هذا المقدار من العلو كناسين للطبيعة التى تخصهم ، حتى انهم يهوون إلى القاع نفسه .

« وقال بعضهم لبعض هلم نصنع لبنا [٥٩] ونشويه شيا . فكان لهم اللبِن مكان الحجر وكان لهم الحُمر [٦٠] مكان الطين . وقالوا هلم نبن لانفسنا مدينة وبرجا رأسه بالسماء ونصنع لانفسنا اسما لئلا نتبدد على وجه كل الأرض » (ع ٣ ، ٤) .

قولهم « هلم نبن لانفسنا مدينة وبرجاً رأسه بالسماء » تأمل كيف انهم لم يستعملوا الاتفاق فى اللغة فيما ينبغى ، إذ إن هذا الرأى الثقيل صار سبباً للشرور .

وقولهم « هلم نبن لانفسنا مدينة » ليست لله لكن لهم ، تأمل مقدار تفاقم هذه الرذيلة .

---

(٥٨) أرض شنعار : هى المنطقة التى تمتد بين بابل وآرك واكد وكلنة . وكانت ضمن مملكة نمرود ، وفى هذه المنطقة اقيم برج بابل ، وقد اخذ بعض اليهود فى السبى إلى هذا المكان .

(٥٩) اللبِن : كتلة من الطين على شكل مربع أو مستطيل . ثم تقسى بحرارة الشمس أو بالأتون .

(٦٠) الحمر : نوع من القار المعدنى شبيه بالقطران الشديد ويتحول إلى زفت إذا ما جمد تماماً .

وقولهم « ونصنع لانفسنا اسما لئلا نتبدد على وجه كل الأرض » ، أنظرت أصل الشر إذ إن كثيرين الآن يماثلون هؤلاء ، و يريدون أن يذكروا مثل هذه الاعمال ، وهم البانون المنازل المضيئة والحمامات والطرقات ، لأنك إن سألت واحداً من هؤلاء : لأى حال تتعب وتشقى وتخسر هذه الخسارة البينة فى غير واجبها ؟! فلن تسمع منه شيئا آخر إلا انه يفعل هذا لكى يذكر دائما ، فيقال هذه دار فلان ، هذا حقل فلان ، إلا أن هذا لا يؤهل للذكر بل للمذمة .

فان كنت تهوى الذكر الدائم بالكمال فانا أوضح لك السبيل : أن توزع هذه المقتنيات على الفقراء وتتخلى عن الحجارة والعمارات البهية والحقول والحمامات ، هذا هو الذكر الذى لا يموت ، هذا هو الذكر المسبب لك ربوات كنوز ، هذا هو الذكر المخفف لرباطات الزلات المسبب لك عظم الدالة عند الرب .

« فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما » (ع ٥) .

قول الكتاب « فنزل الرب لينظر المدينة والبرج » لكى نتعلم بهذا ألا نحكم على اخوتنا البتة ولا نقضى من السماع دون أن نتحقق الأمر أولاً تحقيقاً شافياً ، فكل ما فعله الله لهذا السبب فعله واستعمل من التنازل هذا مقداره رغبة فى تعليم الناس .

وقوله « فنزل الرب لينظر المدينة والبرج » تأمل كيف أن الله لم يقبض جنونهم من بداية الأمر لكنه تمهل تمهلاً كثيراً .

وقوله « فنزل الرب لينظر المدينة والبرج » ليصير لهم معلما لمباشرة الأمور ، إذ إنه لما رأى رذيلتهم نامية ومرضهم وافراً ، لم يترك الأمر أن يتناهى لكن أعلن ما يخصه من الصلاح كالطبيب الماهر ، لما رأى وجعهم متزايداً وقبحهم يحسر شفاؤه بادر بالمشرط ليستأصل بالكمال سبب المرض .

« وقال الرب هوذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداؤهم بالعمل والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه . هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض . فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض فكفوا عن بنيان المدينة . لذلك دعى اسمها بابل [٦١] لأن الرب بلبل لسان كل الأرض ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الارض » (ع ٦ - ٩) .

وضع الرب لهم هذا العقاب كمعلم دائم ليمتد مع الدهر كله ولا ينسيهم إياه أحد .

« هذه مواليد سام . لما كان سام ابن مئة سنة ولد ارفكشاد بعد الطوفان بسنتين وعاش سام بعد ما ولد ارفكشاد خمس مئة سنة وولد بنين وبنات . وعاش ارفكشاد خمسا وثلاثين سنة وولد شالح [٦٢] . وعاش ارفكشاد بعد ما ولد شالح اربع مئة وثلاث سنين وولد بنين وبنات ومات . وعاش شالح ثلاثين سنة وولد عابر [٦٣] وعاش شالح بعد ما ولد عابر اربع مئة وثلاث سنين وولد بنين وبنات . وعاش عابر اربعاً وثلاثين سنة وولد فالج [٦٤] . وعاش عابر بعد ما ولد فالج اربع مئة وثلاثين سنة وولد بنين وبنات . وعاش فالج ثلاثين سنة وولد رعو [٦٥] . وعاش فالج بعدما ولد رعو مئتين وتسع سنين وولد بنين وبنات . وعاش رعو اثنتين وثلاثين سنة وولد سروج [٦٦] . وعاش رعو بعدما ولد سروج مئتين وسبع سنين وولد بنين وبنات . وعاش سروج ثلاثين سنة وولد ناحور [٦٧] . وعاش سروج بعدما ولد ناحور مئتى سنة وولد بنين وبنات . وعاش ناحور تسعا وعشرين سنة وولد تارح [٦٨] . وعاش ناحور بعد ما ولد تارح مئة وتسع عشرة سنة وولد بنين وبنات وعاش تارح سبعين سنة وولد أبرام [٦٩] وناحور وهاران [٧٠] . وهذه مواليد تارح . ولد تارح أبرام وناحور

---

(٦١) بابل : فى الآرامية بمعنى « باب الله » .
(٦٢) شالح : اسم سامى معناه « برعم » أو « نبتة » .
(٦٣) عابر : اسم عبرى معناه « عبر » .
(٦٤) فالج : اسم عبرى معناه « قسمة » أو « إنقسام » .
(٦٥) رعو : اسم عبرى معناه « صديق » .
(٦٦) سروج : اسم سامى معناه « غصن » .
(٦٧) ناحور : اسم سامى معناه « متثاقل الانفاس » .
(٦٨) تارح : اسم عبرى معناه « عنزة الجبل » .
(٦٩) أبرام : « الآب الرفيع » أو « الأب المكرم » .
(٧٠) هاران : « ساكن الجبل » .

وهاران وولد هاران لوطا [٧١] . ومات هاران قبل تارح ابيه فى ارض ميلاده اور الكلدانيين [٧٢] . واتخذ أبرام وناحور لانفسهما امرأتين اسم امرأة أبرام ساراى [٧٣] واسم امرأة ناحور ملكة [٧٤] بنت هاران ابى ملكة وابى يسكة . وكانت ساراى عاقرا ليس لها ولد . واخذ تارح أبرام ابنه ولوطا بن هاران ابن ابنه وساراى كنتّه امرأة إبراهيم ابنه فخرجوا معاً من أور الكلدانيين ليذهبوا الى أرض كنعان فاتوا الى حاران واقاموا هناك . وكانت ايام تارح مئتين وخمس سنين . ومات تارح فى حاران » (ع ١٠ - ٣٢) [٧٥].



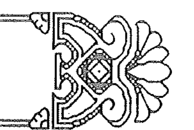
(٧١) لوط : « غطاء » أو « ستر » .

(٧٢) اور الكلدانيين : مكانها اليوم خرائب تدعى « المعبر » ، وهى فى منتصف المسافة بين بغداد والخليج العربى .

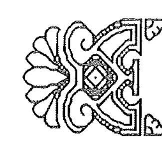
(٧٣) ساراى : اسم عبرى معناه « المجاهدة » .

(٧٤) ملكة : اسم سامى معناه « مشورة » .

(٧٥) عفوا عزيزى القارئ ، لم أجد شرحا لهذه الاعداد ، لا فى هذه المخطوطة ولا فى المخطوات التالية : رقمى ١ ، ٣٥٠ لاهوت بمكتبة البطريركية ، رقم ٢١٨ بمكتبة المتحف القبطى ، رقم ٨٩ بمكتبة الآباء الفرنسيسكان بالقاهرة .



الأصحاح الثانى عشر



« وقال الرب لأبرام اذهب من ارضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أُريك (ع ١) .

تأمل كيف أن الله من بداية القول طلب من أبرام أن يفضل ما خفى علي ما ظهر، الاشياء المستقبلة على الموجودات في الأيدى ، والدليل على ذلك أنه أمره بأن يخلى التى بناها وعاش فيها مدة من الزمان هو وسائر اقربائه وكافة منزل أبيه وأن يذهب إلى مكان لا يعلم عنه شيئاً .

« فأجعلك أمة عظيمة واباركك وأعظِّم اسمك وتكون بركة » (ع ٢) .

قول الرب لأبرام « فأجعلك أمة عظيمة » لهذا السبب يفتخر اليهود كثيراً بأب الآباء إذ ارادوا أن يكونوا له انسباء فقالوا « ابونا هو ابراهيم » (يو ٨ : ٣٨) ، وقصد المسيح أن يعلمهم أنهم لا يستحقون الانتساب إلى ابراهيم لردئ سيرتهم وذميم تصرفهم فقال لهم : « لو كنتم اولاد ابراهيم لكنتم تعملون أعمال ابراهيم » (يو ٨ : ٣٩) ، أرأيت كيف أن اسم ابراهيم عظيم عند الكل ؟.

وقوله « وأباركك واعظِّم اسمك » أى سأؤهلك لبركة هذا تقديرها .

وقوله « وتكون بركة » أى أن كل واحد يتناهى فى اكرامك ويبعث نفسه على الاختصاص بك .

« وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض» (ع ٣) .

قول الرب « واباركك مباركيك ولاعنك ألعنه » انظر تنازل الله ، وكم مقدار ما أظهر من المودة ، وكأنه يقول : ان الذين يخلصون لك المودة سيكونون لى إخوانا والذين يضادونك يكونون لى أضداداً .

وقوله « وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض » أى أن كل قبائل الأرض تجتهد فى أن تتبارك باسمك وأن يجمّلوا ذواتهم باسمك ، وهذه البركة تدل على نوع آخر من الجود .

« فذهب أبرام كما قال له الرب وذهب معه لوط وكان أبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران[٧٦] » (ع ٤) .

قول الكتاب « فذهب أبرام كما قال له الرب » فلم يقل ذهب أبرام وحسب لكنه قال « كما قال له الرب » أى انه امتثل لجميع ما اقتضاه الأمر إذ أمره الرب بهجران الكل ، وبالذهاب إلى الأرض التى لا يعرفها ، فترك الأهل والمنزل وآمن بما قاله له الرب ولم يتشكك ولا ارتاب ، لكنه توجه بنية ثابتة وعزيمة مشددة ، فقد كان يمكن لأبرام أن يقول للرب : ان كنت واحداً من جماعة ، فلأى حال تقودنى إلى ارض غريبة ، وتأمرنى بالتوجه إلى الغربة ، فإن كنت تريد الإحسان إلىّ ، لأى سبب ما تفعله ههنا ؟ لأى حال ما تؤهلنى لبركتك ما دمت فى منزل أبى متصرفا فإن اتفق لى أن أموت من تعب الطريق قبل وصولى إلى الموضع الذى أمرتنى بالسير اليه ، فأية فائدة تعود إلىّ مما وعدتنى به ؟ إلا أن أبرام لم يخطر بباله ولا يلقى فى خلده شيئا من هذا ، لكنه رضخ للأمر وحده كعبد أمين .

وقوله « وذهب لوط معه » فإن قال قائل : لأى حال أخذ أبرام لوط معه فى حين أن الله قال له : « إذهب من ارضك ومن عشيرتك » (ع ١) ؟! أجيبه : لم يفعل أبرام هذا على سبيل المخالفة للرب بل لصغر سن لوط ولدونة عوده ، لأن أبرام كان بمثابة أبيه ، فلهذا الحال لم يستجز الصديق ترك لوط .

ولكى تعلم أن أب الآباء لما رسم له الرب فعل هذه الأمور لم يكن شاباً ، بل ألمّت به الشيخوخة ، وآلت حاله إلى الكسل جاريا على المألوف على اكثر البشر ، فى أنهم يتخلفون عن السفر فى وقت الشيخوخة لذلك قال الكتاب « وكان أبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران » أرأيت كيف أنه لا السن عاقته ، ولا شىء آخر مما يكن يمنعه ويجذبه إلى البقاء فى المنزل ؟ لكنه إشتاق إلى الله على الكل لهذا الحال مزق هذا الصديق كافة رباطات الحواجز والعوائق من شيخوخة وغيرها وسارع إلى إظهار أوامر الله إلى الفعل كأنه شابا لاشىء يمانعه ولا أمر يدافعه .

(٧٦) حاران : مدينة بين النهرين على نهر يلينح وهو فرع للفرات ، وتقع على مسافة ٢٨٠ ميلاً إلى الشمالى الشرقى من دمشق . وكانت المدينة مركزا تجاريا .

« فأخذ أبرام ساراى امرأته ولوطا إبن أخيه وكل مقتنياتهما التى اقتنيا والنفوس التى إمتلكا فى حاران وخرجوا ليذهبوا إلى ارض كنعان (٧٧) . فأتوا إلى ارض كنعان » (ع ٥) .

قول الكتاب « فأخذ أبرام ساراى إمرأته ولوطا ابن أخيه وكل مقتنياتهما » رغبة فى أن نعلم أن أب الآباء لم يجتهد فى شئ مما للكلدانيين ، لكن كل ما كان لأبيه سمح به لابن أخيه ، وخرج على هذا الحال وأخذ معه ما كان لامرأته وللوط فقط ، ولم يفعل هذا على سبيلِ الاغتناء به وانه محب للقنيان ، بل رغبة لأن يقيم الدليل عند الكنعانيين بحسن حاله .

وقوله « وخرجوا ليذهبوا الى أرض كنعان » فإن قال قائل : من أين عرف أبرام ان غاية سفره تنتهى إلى أرض كنعان ، وقد قال له الرب من قبل : « اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت ابيك الى الأرض التى أُريك » (ع ١) ؟ ! أجيبه : يجوز أن يكون الرب قد أطلعه على ذلك وألقاه إلى باله وقلبه .

« واجتاز ابرام فى الأرض إلى مكان شكيم (٧٨) إلى بلوطة مورة (٧٩) وكان الكنعانيون حينئذ فى الأرض » (ع ٦) .

قول الكتاب « وكان الكنعانيون حينئذ فى الأرض » ، إن الطوباوى موسى لم يوضح هذا على الاطلاق بل رغبة فى أن نعرف من هنا الرأى المتفلسف وذلك أن الكنعانيين كانوا مالكى تلك المواضع واضطر أبرام إلى الحلول بها كضال وغريب ، وواحد من الضعفاء والمطروحين ، ولم يكن يقدر ولا على بيت .

« وظهر الرب لأبرام وقال لنسلك أعطى هذه الأرض فبنى هناك مذبحاً للرب الذى ظهر له » (ع ٧) .

قول الكتاب « وظهر الرب لأبرام » لما أنهض الرب أبرام من منزله ، وأمره بالتوجه إلى الغربة وسار كضال وغريب طالباً موضعاً يسكن فيه ، والكنعانيون كانوا مالكين تلك

(٧٧) أرض كنعان : هى الأرض التى سكنتها ذرية كنعان وقد إستولى عليها العبرانيون فيما بعد، وكانت حدودها الأصلية مدخل حماة إلى الشمال وبادية سوريا والعرب إلى الشرق وبادية العرب إلى الجنوب وساحل البحر المتوسط إلى الغرب وبعد أن فتح العبرانيون أرض كنعان اطلق عليها إسم أرض فلسطين .

(٧٨) شكيم : بلدة قديمة ، اقام إبرهيم خيامه بالقرب منها وكان الكنعانيون يسكنون فيها .

(٧٩) بلوطة مورة : اسم كنعانى معناه « بلوطة المعلم » وهو موضع بقرب شكيم .

المواضع ، ففى ذلك الحينِ أراد الرب الصالح أن يعزيه ويقوى عزيمته خوفا من أن تفتر حرارة نشاطه ويرتاب فيما وعد به ، لذلك « ظهر الرب لأبرام » .

وقول الرب لأبرام « لنسلك أعطى هذه الارض » ان هذا الوعد لعظيم ، ومناسب للوعد الذى نقله من وطنه ، إن هذا الوعد لعذب جداً عند الصديق وتأمل كيف أن الرب قد أنهض خاطر أبرام ونبه عقله بهذا الوعد وجازاه المجازاة الملائمة لأتعابه .

وقول الكتاب عن أبرام « فبنى هناك مذبحا للرب الذى ظهر له » أى أن أبرام شكر الرب عن تلك المواعيد التى وعده بها ، فكما أن الناس لفرط ودّهم وعزيز محبتهم يبنون لأقاربهم الخاصين بهم منازل حيث يألفون . وكثيرون ينشئون مدناً ويطلقون عليها القابا، هكذا جرى أمر هذا الصديق ، فإنه بنى مذبحاً للرب فى المكان الذى استحق فيه ظهوره .

« ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقى بيت ايل [٨٠] ونصب خيمته وله بيت ايل من المغرب وعاى من المشرق فبنى هناك مذبحاً للرب ودعا باسم الرب . ثم ارتحل أبرام ارتحالاً متوالياً نحو الجنوب » (ع ٨ ، ٩) .

فإن سأل سائل : لأى حال مضى أبرام من هناك ؟ أجيبه : يجوز أن يكون أبرام لما اظهر فرط وداعته وكثرة حرصه على السكون ورغبته فى التفرد ، وقد رأى أن هناك طائفة من الناس لا يوافقونه ، لأجل ذلك مضى إلى الجبل .

« وحدث جوع فى الأرض فانحدر أبرام إلى مصر ليتغرب هناك لان الجوع فى الارض كان شديداً » (ع ١٠) .

ليسمع الذين ينطقون من غير تمييز ولا روية بل على الاطلاق يتشائمون ويقولون لما جاء فلان حدث جوع وحين جاء فلان حدث كذا وكذا ، ها قد حدث مع قدوم الصديق جوع شديد فلم ينزعج ، ولا عرض له عارض بشرى ، ولقد سمح الرب أن ينحدر أبرام إلى مصر ليعلم أهلها مقدار فضيلته .

« وحدث لما قرب ان يدخل مصر أنه قال لساراى امرأته انى قد علمت انك امرأة حسنة المنظر » (ع ١١) .

---

(٨٠) بيت إيل : بيت الله .

انظر مقدار حُسن المرأة كم كان ، على الرغم أنهما كانا كلاهما باشرا الشيخوخة ، إلا أن جمالها بعد سنين هذا عددها ثبت ناضراً ، ونور وجهها اقام مستقراً بعد شقاء وسوء حال ، في ضنك ، وانتقال من موضع إلى موضع ، إذ إنها انتقلت من أرض الكلدانيين إلى حاران ومن حاران إلى أرض كنعان ومن هناك إلى مصر ، أما كانت هذه الأسفار المتعاقبة والتنقلات المتكاثفة تحطم وتغير من الرجال الشبان ، إلا أن هذه العجيبة بعد شقاء هذا صفته كان جمال وجهها وحسن منظرها يسطع .

« فيكون إذا رآك المصريون إنهم يقولون هذه إمرأته فيقتلونني ويستبقونك » (ع ١٢) .

بهذه الكلمات جذب أبرام ساراى رغبة في استعطافها ولاستمالتها إلى الحنو والترائف ، إذ قد عرف أن هذا الأمر مقنع لها اقناعاً شافياً .

« قولى انك اختى [٨١] ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك » (ع ١٣) .

ينبغي لك أيها الخليل ألا توجب القضية على الصديق على الاطلاق ، لكن نتفهم من هذا الأمر شهامته وحكمته ، أما شهامته ، فإنه صبر على هذا الأمر وقد استولى عليه قلق الفكر وتقسمه فأشار بما أشار به .

وإذ قد تكلمنا على شهامته فينبغي لنا أن نذكر حكمته أيضا ، إذ قدر على استنباط سبيل يقل فيها الشر ، والدليل على ذلك أنه لو كان قال انها إمرأته ولم يميز هذا الفعل ، ولم يجعلها اخته ، لكان جمالها وحسنها قد أعجب المصريين فينتزعونها منه ويقتلونه ولرغبة الصديق أن ينجو من هذين الأمرين الرديئين (أخذ ساراى وقتله) قال لها « قولى إنك أختى » ، أرأيت عقل الصديق كيف أنه وجد مخرجا يتمكن به من النجاة من قتل المصريين له .

---

(٨١) حقيقة أن ساراى أخت أبرام من ابيه وليست من أمه كقول أبرام نفسه « وبالحقيقة ايضا هى أختى ابنة ابى غير انها ليست إبنة أمى » (تك ٢٠ : ١٢) ، لكن ما فعله أبرام هنا لا يخرج عن دائرة الكذب ، أما القديس يوحنا الذهبى الفم فله رأى آخر إذ إنه يبرئ أب الآباء من هذا الكذب ويلتمس له الاعذار فيما فعله كما سترى فى شرح هذه الآية .

أرأيت رجلا جسر على مفاوضة امرأة فى هذا المعنى هكذا ؟ ألاحظت امرأة نجحت فى هذه المشورة كما نجحت هذه من غير أن تيأس ولا تتكره بل انها بذلت المجهود فى كتم هذا الأمر ؟.

« فحدث لما دخل أبرام إلى مصر ان المصريين رأوا المرأة انها حسنة جداً » (ع ١٤) .

تأمل كيف ظهر إلى الواقع ما تقدم وتوقعه الصديق إذ لما دخل إلى مصر رأى المصريون أن المرأة حسنة وليست حسنة فقط بل زائدة فى ذلك ، حتى إنها جذبت كل الناظرين اليها .

« ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون فأُخذَت المرأة إلى بيت فرعون » (ع ١٥) .

قول الكتاب « ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون » ، أيها الخليل لا تعبر المقولات على الاطلاق بل تعجب كيف أنه لم يعنف أحد من المصريين المرأة ولا أخذها قسراً على أنها غريبة ومن أرض شاسعة قادمة ، ولا تهاونوا بالرجل بل دخلوا إلى الملك وأوضحوا له الأمر ، حتى إذا ما حدث الانتقام لا يلُم بمن كان من الناس بل بالملك نفسه ، فيشهر الأمر فى كل مكان .

وقوله « فأُخذَت المرأة إلى بيت فرعون » انظر مقدار أناة الله ، وكيف أنه لم يظهر اهتمامه الخاص من بداية الأمر ، لكنه سمح بصيرورة جميع ما صار وبان ، واذ المرأة فى فم الوحش وحينئذ أعلن قوته للكل .

وقوله « فأُخذَت المرأة إلى بيت فرعون » أترى فى أى حال كان فكر هذه المرأة فى ذلك الوقت ؟! كيف انزعج قلبها ؟! كيف حدثت الأمواج ؟! كيف لم يتمهل الهلاك ؟! إنها صبرت على هذه المصائب كلها كالهضبة الثابتة ، ناظرة إلى الحنو الالهى ماذا اقول فى نفس هذين ، أعنى الرجل والمرأة عندما دخلت تلك إلى دار فرعون.

« فصنع إلى أبرام خيرا بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء واتن وجمال » (ع ١٦) .

هذه الأشياء التى دفعت إلى أبرام إكراماً واحساناً كيف لم تلهبه ولا أحرقت قلبه .

« فضرب الرب فرعون وبيته ضربـــات عظيمة بسبب ساراى امرأة أبرام » (ع ١٧) .

قول الكتاب « فضرب الرب فرعون » أى أوجـــب عليه القضية من جراء إقدامه الردئ .

وقوله « فضـرب الرب فرعون وبيته » فإن سأل سائل : لأى حال لما أجرم الملك حظى بالعـذاب أهل بيتـه ؟! أجبت : ان عـقـاب بيت فـرعـون كـان لأجل تواطئـهم وتضافرهم فى الشر ، إذ إن رؤساء فرعون لما عاينوا المرأة مدحوها وادخلوها إلى قصر فرعون رغبة فى إكرام الملك ، لذلك لم يعاقب الملك وحده بل كل مَنْ اشترك فى هذا الأمر الشنيع .

« فدعا فرعون أبرام وقال له ما هذا الذى صنعت بى لماذا لم تخبرنى انها امرأتك » (ع ١٨) .

قول فرعون لأبرام « ما هذا الذى صنعت بى » تأمل خطاب الملك المغتصب ضابط مصر يقول هذا القول لأبرام ، انظر كم مقدار تحول الأمر ، الملك يخاطب العامى « ما هذا الذى صنعت بى » ، وكأن فرعون يقول لأبرام : انت بعثت الله على إيقاع السوء بى وجلبت علىّ غضبه واوجبت علىّ القضية وجعلتنى مطالبا مع اهل بيتى بحمل ما جسرته عليك .

ولو سأل سائل فرعون فقال : يا فرعون من اين عرفت انها امرأة الصديق ؟ لاجابه : ان عقوبة الشر ادت إلى معرفة ذلك .

وقوله « لماذا لم تخبرنى انها امرأتك » وكأن فرعون يقول : لأى سبب لم تطالعنى بأنها امرأتك حتى ما كنت أخذتها لى امرأة عازماً على الخطية معها ، ولا شرعت فى ما هذا سبيله .

وقـوله « لماذا لـم تخبـرنى انهـا امـرأتك » ترقب كيـف ازعج عنيف العقـاب خـاطر فرعون، حتى انه جاوب الصديق بهذه المجاوبة وبالغ فى اللطف به ، فلو لم يكن حنو الله ملِيناً عزم فرعون ومودعا اخلاقه داخلاً بالرعب إلى نفسه لقد كان من اللازم أن تزايد

فى الانتقام والمبالغة فى إهلاك الصديق كخادع له ، إلا انه لم يفعل شيئا من هذا ، لأن خوف العقاب والرهبة من العذاب أطفيا غضبه فآلت حاله إلى شيء واحد وهو اللطف بالصديق وجميل المعاملة له والرفق به لأنه علم ان الذى حظى بهذه النية الحسنة ليس هو رجلاً خاملاً مجهولاً .

« لماذا قلت هى اختى حتى أخذتها لى لتكون زوجتى والآن هوذا امرأتك خذها واذهب » (ع ١٩) .

أى لسان وأى خاطر يتمكنان من الاستعجاب مما حدث كما ينبغى ، امرأة ذات جمال ، اجتمعت برجل مصرى مغتصب هائم بالفسق فخرجت من عنده بمعزل من الدنو اليها حافظة لعفتها سالمة .

« فأوصى عليه فرعون رجالاً فشيعوه وامرأته وكل ما كان له » (ع ٢٠) .

لقد كان الصديق عندهم بمنزلة مَنْ يُرهب موضعه فلذلك حرصوا على تجهيزه وارساله بأحسن ملاطفة مستعطفين سيده بما يفعلونه به .

تأمل الآن وتعجب من صبر الصديق وقوة الله المحب للبشر الذى أعاد الصديق النازل إلى مصر بغاية الخوف بمجد جزيل وشرف ليس بقليل .





الأصحاح الثالث عشر

«فصعد أبرام من مصر هو وامرأته وكل ما كان له ولوط معه إلى الجنوب» (ع ١) .

إن الألفاظ التى خاطب بها الطوباوى داود الذين عادوا من سبى بابل تليق بالصديق، إذ قال داود « الذين يزرعون بالدموع يحصدون بالابتهاج . الذاهب ذهابا بالبكاء حاملا مبذر الزرع مجيئا يجئ بالترنم حاملاً حزمه » (مز ١٢٦ : ٥ ، ٦) ، لقد كان الصديق مكرّماً عند المصريين والفلسطينيين ، فمَنْ ذا الذى لا يكرم مَنْ حفظه الله وراعاه هذه المراعاة .

« وكان أبرام غنياً جداً فى المواشى والفضة والذهب » (ع ٢) .

فإن سألت : لأى حال قال الكتاب هذا ؟ أجبتك : لتعرف لطف الله وفرط إهتمامه بالصديق ، وقوته التى لا نهاية لها ، لأن الذى سافر إلى مصر هرباً من شدّة الجوع وقصوراً عن احتمال الضراء بكنعان استغنى بغتة ولم يستغن فقط بل وكان « غنياً جداً » لا « فى المواشى » فقط بل وفى « الفضة والذهب » .

أرأيت مقدار اهتمام الله ، لقد مضى أبرام ملتمسا فرجاً مما كان فيه فحظى بثروة جمة ؟.

« وسار فى رحلاته من الجنوب إلى بيت ايل إلى المكان الذى كانت خيمته فيه فى البداءة بين بيت إيل وعاى » (ع ٣) .

انظر كيف أن أبرام لم يتكبر من الثروة وحُسن الحال بل حرص فى العودة إلى المكان الذى كان فيه اولاً قبل أن يتوجه إلى مصر .

« إلى مكان المذبح الذى عمله هنـاك اولا ودعا هناك أبرام باسم الرب » (ع ٤) .

امعن النظر فى هذا المرء الصديق وكيف مال إلى السكون ، وآثر الهدوء ، وهجر الاستكثار معتمداً على تفضل الله ، فأتم قول داود النبى الذى قال « اخترت الوقوف على العتبة فى بيت إلهى على السكنى فى خيام الاشرار » (مز ٨٤ : ١٠) ، إذ إن أبرام فضل دعوة اسم الرب الاله على المدن ، لمعرفته أن شرف المدينة ليس هو جمال المنازل ولا كثرة البناء بل فضيلة سكانها .

« ولوط السائر مع أبرام كان له أيضاً غنم وبقر وخيام » (ع ٥) .

لم تَحسُنْ حال أب الآباء فقط ، بل وحال لوط أيضاً .

« ولم تحتملهما الأرض أن يسكنا معا إذ كانت املاكهما كثيرة فلم يقدرا أن يسكنا معاً » (ع ٦) .

تأمل كيف أن كثرة القنيان صارت سببا سريعا للفراق وأوجبت القسمة وقطعت اتفاق الاغراض وجزعت لُحمة النسب .

« فحدثت مخاصمة بين رعاة مواشي أبرام ورعاة مواشي لوط وكان الكنعانيون والفرزيون حينئذ ساكنين في الأرض (ع ٧) .

أنظر كيف أخذت الاتباع الفراق ، فمن هنا دائما تنشأ كل الشرور ، أعنى من عداوة الخدم ، لأن الكتاب يقول : « فحدثت مخاصمة بين رعاة مواشي أبرام ورعاة مواشي لوط » إذ كان هؤلاء قد بعثوا على القسمة ، ووزعوا الرأى ، وأشهروا فرط الغدر .

« فقال أبرام للوط لا تكن مخاصمة بيني وبينك وبين رعاتي ورعاتك لأننا نحن أخوان » (ع ٨) .

قول أبرام للوط « لا تكن مخاصمة بيني وبينك » ينبغي لنا أن ننظر عزم أب الآباء المحب للوط ، فان هذا القول لقول وداعة مفرطة .

وقوله « وبين رعاتي ورعاتك » ماذا يكون اكثر وداعة من هذه النفس وأوفر سلامة ، أنظر كيف أنه لما علم يقيناً أن الرعاة يتنازعون شرع في اطفاء النار الثائرة .

وقوله « لأننا نحن اخوان » تأمل تفاقم هذا الاتضاع ، لاحظ هذه الفلسفة ، الشيخ الكبير يدعو الشاب ابن الأخ أخاً ويرقيه إلى كرامته ولا يوجد لنفسه التكريم .

أرأيت هذه الوداعة ؟ اشاهدت هذه الملاطفة ؟ .

« أليست كل الارض امامك اعتزل عني ان ذهبت شمالاً فأنا يميناً وان يميناً فأنا شمالاً » (ع ٩) .

انظر وداعة الصديق ، والدليل على ذلك انه يقيم البرهان بالأمور أنه ما يفعل هذا طوعاً ولا يريد الانفصال اختياراً بل لأجل المنازعة ، وخوفا من أن تتمادى الحرب فى المنزل ، إن فلسفة الصديق وإن حكمته لجسيمة ، وذلك أنه يبذل المجهود فى أن يصير محبوباً عند إبن أخيه .

« فرفع لوط عينيه ورأى كل دائرة الاردن أن جميعها سقى قبلما اخرب الرب سدوم وعمورة كجنة الرب كأرض مصر حينما تجئ إلى صوغر . فاختار لوط لنفسه كل دائرة الأردن وارتحل لوط شرقا فاعتزل الواحد عن الآخر » (ع ١٠ ، ١١) .

أرأيت فضيلة أب الآباء ، وكيف أنه لم يترك للرذيلة مكاناً لكنه استأصل ما كان من الشر على نية البروز ، بدماثة طبيعته وشرف نفسه ، وأوضح للكل أن السلام عنده اكرم من كل ثروة ، ولئلا يذم ذام الصديق ويستجهله فيما فعله مع لوط ، ويتخيل أن إخراجه إياه من منزله ووفوده إلى الغربة إنما كان عن بغضة ، لكن علينا أن نعرف كلنا أن الشيء الذى بعثه على ما فعل هو الرغبة فى السلام والتماس الهدوء ، إذ فوض اليه الاختيار ، ولما اختار الاجود لم يستصعب ذلك ، دليلا على صلاح نيته وجميل شخصيته .

« أبرام سكن فى أرض كنعان ولوط سكن فى مدن الدائرة ونقل خيامه إلى سدوم » (ع ١٢) .

وهنا بدأ يتحقق الوعد الذى قاله الرب « واجتاز أبرام فى الارض إلى مكان شكيم إلى بلوطة مورة وكان الكنعانيون حينئذ فى الأرض وظهر الرب لأبرام وقال لنسلك أعطى هذه الأرض (تك ١٢ : ٦ ، ٧) .

« وكان اهل سدوم اشراراً وخطاة لدى الرب جداً » (ع ١٣) .

أرأيت كيف نظر لوط فى طبيعة الارض فقط ولم يتأمل شر سكانها ، قل أية فائدة تأتى من جودة أرض وخصب ثمرها وأهلها أشرار ؟ وأى ضرر يتولد من أرض بسيطة إذ كان اصحابها ودعاء ؟ لأن رأس الخيرات وفاء الساكنين ، إلا أن لوطا نظر إلى شيء واحد وهو جمال الأرض .

ولم يقل الكتاب ان أهل سدوم كانوا « اشراراً » فقط بل « وخطاة » ، ولم يقل « خطاة » وحسب بل وأضاف إلى ذلك « لدى الرب » ، ولما رأى هفواتهم متزايدة ومكرهم متفاقماً فلذلك عطف القول فقال « جداً » .

أشاهدت جسامة الرذيلة ؟ أعاينت مقدار شر الوثوب على هذه الأمور واهمال القصد لما يوافق ؟ ألاحظت شرف الوداعة والسماحة بما جلِ وكرم ؟ أرأيت أن الذى اختار الافضل لم ينتفع بطائل ؟ أما الذى إختار الأقل فَشَرُف صيته وتكاثرت حاله وعظُم قدره فى الكل .

« وقال الرب لأبرام بعد اعتزال لوط عنه ارفع عينيك وانظر من الموضع الذى انت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا » (ع ١٤) .

تأمل اهتمام الله بالصديق ومجازاته له ، وكأن الرب يقول له هنا : إذ كنت قد أبحت لابن أخيك المكان الافضل لفرط وداعتك ، وأظهرت من الاتضاع أوفره ، ومن لين الجانب أخطره وعفيت بالأشياء الداعية إلى السلام ، وبذلك المجهود فى استئصال المنازعة، فلهذا السبب تنال منى جوائز عظيمة ومنحاً جسيمة .

أرأيت هذه المكافأة التى تفوق ما فعله أبرام الى أبعد غاية ؟ أشاهدت هذا الكرم اللائق بصلاح الله ؟ أعاينت ما سمح به أبرام ومقدار ما صار اليه ؟ .

« لأن جميع الأرض التى انت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد » (ع ١٥) .

وكأن الرب يقول لأبرام : أنت سمحت بجزء من الأرض فها أنا أعدك بكلها ، وليس هذا فقط بل وسأجود بذلك على نسلك إلى الأبد .

« واجعل نسلك كتراب الارض حتى اذا استطاع احد ان يَعُد تراب الأرض فنسلك ايضا يُعَد » (ع ١٦) .

حقاً إن هذا الوعد ليفوق الطبيعة البشرية إذ إن الرب لم يَعِدْ أب الآباء بأنه يكون أباً مع هذه الموانع التى هذا مقدراها (هَرَمه وعقرية سارة) فقط بل وأن اولاده يكثرون حتى يضاهوا تراب الأرض وتزيد كثرتهم على العدد ، وقد أبان ذلك بالمثال الذى أورده .

امعن النظر فى عزم أب الآباء الوثيق ومن مدة الزمان المعترض ما بين الوعد واتمامه، وكيف طرح سائر الشئون البشرية ومد ذهنه إلى قوة الواعد ولم ينزعج ولا قلق ، فالواجب علينا أن نثق بوعد الله ناظرين إلى عظيم قدرته ولا نرتاب ، بل متحققين أن كل ما يتفوه به لابد أن يظهر إلى الفعل .

« قم امش فى الأرض طولها وعرضها لأنى لك اعطيها » (ع ١٧) .

أى خذ جزاء اتضاعك ووداعتك اللتين استعملتهما مع ابن الأخ واقبل الوعد وتأمل جملة الأرض التى أنت ستملكها .

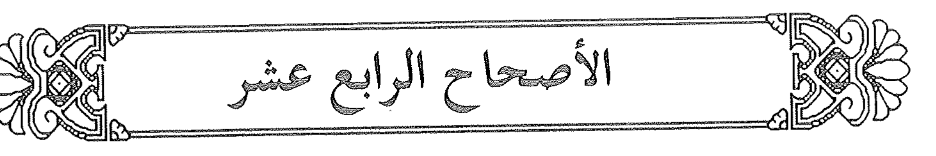
« فنقل أبرام خيامه وأتى وأقام عند بلوطات ممرا [٨٢] التى فى حبرون وبنى هناك مذبحا للرب » (ع ١٨) .

قول الكتاب « فنقل أبرام خيامه وأتى وأقام عن بلوطات ممرا التى فى حبرون » . انظر هذه الهمة العالية ، وكيف تحول بسهولة فلم يكره الاستبدال في المواضع لكنه تنقل من هنا إلى هناك ومن هناك إلى هنا كأنه غريب وحرص فى إظهار محبته لله فى كل مكان بما كان يعمله .

وقوله « وبنى هناك مذبحاً للرب » أرأيت هذا الأمر وهذا العزم الشكور ؟ إذ لما ضرب خيامه شكر الرب للوقت على ما صار اليه من الوعد ، إذ انك تجده فاعلاً هذا الأمر فى سائر المواضع التى سكنها ومهتما به قبل كل الأمور مظهراً الشكر والحمد للرب فى سائر الأحوال ، فإنه لم ينتظر ظهور ما وعده به إلى الفعل بل شكر على الوعد وبذل فى ذلك المجهود ليبعث الرب على إتمامه .



(٨٢) ممرا : هى رامة الخليل التى تقع شمالى الخليل بمقدرا ميل ونصف الميل .



الأصحاح الرابع عشر

« وحدث فى ايام أمرافل ملك شنعار واريوك ملك الاسار وكدرلعومر ملك عيلام وتدعال ملك جوييم . أن هؤلاء صنعوا حرباً مع بارع ملك سدوم وبرشاع ملك عمورة وشنآب ملك أدمة وشمئيبر ملك صبوييم وملك بالع التى هى صوغر . جميع هؤلاء اجتمعوا متعاهدين إلى عمق السديم الذى هو بحر الملح . اثنتى عشرة سنة استعبدوا لكدرلعرمر والسنة الثالثة عشرة عصوا عليه . وفى السنة الرابعة عشرة اتى كدرلعومر والملوك الذين معه وضربوا الرفائيين فى عشتاروث قرنايم والزوزيين فى هام والايميين فى شوى قريتايم . والحوريين فى جبلهم سعير إلى بطمة فاران التى عند البرية . ثم رجعوا وجاءوا إلى عين مشفاط التى هى قادش وضربوا كل بلاد العمالقة وأيضاً الأموريين الساكنين فى حصون تامار . فخرج ملك سدوم وملك عمورة وملك أدمة وملك صبوييم وملك بالع التى هى صوغر ونظموا حرباً معهم فى عمق السديم . مع كدرلعومر ملك عيلام وتدعال ملك جوييم وأمرافل ملك شنعار وأريوك ملك ألآسار اربعة ملوك مع خمسة . وعمق السديم كان فيه آبار حُمر كثيرة فهرب ملكا سدوم وعمورة وسقطا هناك والباقون هربوا إلى الجبل » (ع ١ - ١٠) .

تأمل ايضاح الكتاب وكيف أنه ذكر أسماء هؤلاء الملوك وعزمهم الوحشى ، إذ إن اتباع الملك كدرلعومر قاتلوا ملكا سدوم وعمورة واتباعهما ، وبعد ذلك يذكر السبب الداعى إلى القتال ومن أين كان مبدأه فقال « اثنتى عشرة سنة استعبدوا لكدرلعومر والسنة الثالثة عشرة عصوا عليه » (ع ٤) .

فلا نعبر هذه المقولات على الاطلاق ولا نظن أن هذا الشرح لا منفعة فيه ، لأن الكتاب الالهى يشرح لنا كل ذلك شرحا شافيا كافيا رغبة لأن نعلم قوة أتباع كدرلعومر الجبابرة وفرط بسالتهم ، هؤلاء الاقوياء قد أبادوا كل منْ صادفوه من الامم (ملوك سدوم وعمورة وأدمة وصبوبييم وبالع) وحار اعداؤهم من فرط بسالتهم فانهزموا ، وهرب ملكا سدوم وعموره وسقطا أما الباقون فهربوا ، أرأيت مقدار قوة هؤلاء الرجال إذ إنهم من المنظر ارهبوا أولئك ودفعوهم إلى الفرار ؟.

« فأخذوا جميع أملاك سدوم وعمورة وجميع اطعمتهم ومضوا » (ع ١١) .

وانظر كيف أن أتباع الملك كدرلعومر قد أخذوا جميع املاك سدوم وعمورة وجميع اطعمتهم بغاية السهولة مع هرب كافتهم .

« واخذوا لوطا ابـــن اخى أبرام واملاكه ومضوا إذ كان ساكنا فى سدوم » (ع ١٢) .

قد ظهر الآن إلى الفعل أن لوطا لم ينتفع بشئ مما إختاره لنفسه ، بل جعلته الأمور ألا يهوى البتة اختيار الأجود ، وليس انه ما انتفع من هذه الجهة فقط بل وصار اسيراً وقد تحقق تحققا لا ريب فيه أنه كان له من الأفضل التمتع بالاجتماع بالصديق أب الآباء دون أن ينفصل عنه .

وقد ظن لوط أن بانفصاله عن أب الآباء قد نال من الراحة أوفرها ومن الفسحة أجزلها وقد حظى بالاشياء الجليلة والثروة الجمة فصار بغتة اسيراً ، لا منزل له حتى يعلم مقدار شر الانفصال ، ومقدار صلاح الاتفاق ، فكان له من له أن يكون مع أب الآباء واحتمال سائر الأمور دون أن يباعد ذاته واختيار الأفضل ، ثم مصادفة مخاطر هذا مقدارها .

« فأتى مَنْ نجا وأخبر أبرام العبرانى وكان ساكنا عند بلوطات ممرا الأمورى أخى أشكول واخى عانر وكانوا اصحاب عهد مع أبرام » (ع ١٣) .

قول الكتاب « فأتى مَنْ نجا واخبر أبرام العبرانى » وان سأل سائل : كيف لم يشعر أب الآباء بهذه الحرب الهائلة ؟! أجيبه : يجوز أن المسافة بينهم كانت بعيدة جداً ، فلذلك خفى عنه الأمر ولم يدركه .

وقوله « أبرام العبرانى » ، لما سكن أبرام أرض كنعان عَبَرَ نهر الفرات ، لذلك سمى العبرانى .

« فلما سمع أبرام ان اخاه سُبى جر غلمانه المتمرنين ولدان بيته ثلاث مئة وثمانية عشرة وتبعهم الى دان » (ع ١٤) .

فان سأل سائل لأى حال عدّ أبرام اهل بيته فإذا هم « ثلاث مئة وثمانية عشرة » ؟! أجيبه : لتعلم انه اخذ كل أهل بيته الذين تربوا مع لوط ليشتركوا فى المحاماة عن لوط .

« وانقسم عليهم ليلاً هو وعبيده فكسرهم وتبعهم إلى حوبة التى عن شمال دمشق » (ع ١٥) .

اتجهت لهم الغلبة لأن اليد العلوية كانت شاملة لهم ومدبرة ، ولذلك لم تحوجهم إلى سلاح ولا إلى إحتيال .

« واسترجع كل الاملاك واسترجع لوطا اخاه ايضا واملاكه والنساء ايضا والشعب » (ع ١٦) .

ولكن لماذا أُسر لوط عند هرب الباقين ؟! لكى تستقر فضيلة أب الآباء ، ويحظى لأجله جمع غفير بالخلاص .

إن أب الآباء لم يغلب هذه الغلبة لا بقوة بشرية ولا بقدرة جسدية ، بل باليد العلوية الفاعلة كل هذا .

أشاهدت كيف أن الصديق على سائر الاحوال وفى جميع الأمور ذو صيت خطير ، وبهاء ليس بحقير مقيما للبرهان فى كل اوان عند سائر الناس على إهتمام الله به ؟

« فخرج ملك سدوم لاستقباله بعد رجوعه من كسرة كدرلعومر الذين معه إلى عمق شوى الذى هو عمق الملك » (ع ١٧) .

تأمل مقدار ما تتمتع به الفضيلة من مؤازرة الله ، إذ الملك خرج لاستقبال الشيخ الغريب وتناهى فى إكرامه .

« وملكى صادق ملك شاليم أخرج خبزاً وخمراً وكان كاهنا لله العلى » (ع ١٨) .

فإن قال قائل : ما الغرض من قول الكتاب « وملكى صادق ملك شاليم » ؟ أجيبه : هذا ما ذكره الطوباوى بولس فقال « لأن ملكى صادق هذا ملك ساليم كاهن الله العلى الذى استقبل إبراهيم » (عب ٧ : ١) إذ فسر اسمه مع المدينة بنوع من الاشتقاق فقال « ملكى » اى ملك ، « صادق » أى العدل ، ولما جاء إلى اسم المدينة قال « ملك شاليم » لأن شاليم تعنى السلامة .

وقوله « اخرج خبزاً وخمراً » واذا ما شاهدت الرسم فتأمل الحق وتعجب من افصاح الكتاب الالهى وكيف أنه تقدم منذ البدء فانذر بما سيحدث .

وقوله عن ملكى صادق « وكان كاهنا لله العلى » ، فيجوز أن يكون ملكى صادق هذا كاهنا بذاته من غير أن يسميه غيره ، لأن الكهنة فى ذلك الوقت هكذا كانوا ، وإما أن يكون أصحابه أكرموه لأجل كبر سنه بهذه الكرامة وإما انه اكرم ذاته بالكهنوت كهابيل وأبرام عندما قدما الذبائح .

« وباركه وقال مبارك أبرام من الله العلى مالك السموات والأرض » (ع ١٩) .

وملكى صادق لم يبارك أبرام فقط ، بل ولله مجّد والدليل على ذلك أنه قال « مباركِ إبرآم من الله العلى مالك السموات والأرض » .

« ومبارك الله العلى الذى اسلم اعداءك فى يدك . فأعطاه عُشرا من كل شىء » (ع ٢٠) .

قول ملكى صادق لأبرامٍ « ومبارك الله العلى الذى اسلم اعداءك فى يدك » تأمل كيف أن ملكى صادق لم يشْد بذكر الصديق وحسب بل وعلم بمساندة الله له ، لأنه لم يكن بالذى يقدر على الفتك بهؤلاء الأقوياء وهو بمعزل عن النصرة الالهية .

وقول الكتاب « فأعطاه عُشراً من كل شىء » وهذا ما ذكره بولس إذ قال « لأن ملكى صادق هذا ملك ساليم كاهن الله العلى الذى استقبل ابراهيم راجعا من كسرة الملوك وباركه والذى قسم له إبراهيم عُشراً من كل شىء » (عب ٧ : ١ ، ٢) ، ومن هنا صار أبرام معلما للكل بما أوضحه من حسن الوفاء اذ قدم مما أنعم الله به عليه .

« وقال ملك سدوم لأبرام اعطنى النفوس واما الأملاك فخذها لنفسك . فقال أبرام لملك سدوم رفعت يدى إلى الرب الإله العلى مالك السموات والأرض » (ع ٢١ ، ٢٢) .

لقد حار ملك سدوم من كرم أب الآباء فقال له « اعطنى النفوس وأما الاملاك فخذها لنفسك » فما أجمل وفاء الملك ، لكن تأمل فلسفة الصديق الذى قال « رفعت يدى إلى الرب الإله العلى مالك السموات والأرض » ، إن زهد أب الآباء فى القنيان لعظيم وان امتهانه له لجسيم .

فإن قال قائل : ولِمَ إمتنع أب الآباء من الأخذ من ملك سدوم ؟ أجيبه : أراد أب الآباء أن يُعلم ملك سدوم أن عطية الله أفضل مما يعطيه هو ، وأراد أيضا أن يعلمه الإيمان بالله .

« لا آخذ لا خيطا ولا شراك نعل ولا من كل ما هو لك فلا تقول انا اغنيت أبرام » (ع ٢٣) .

أى لا آخذ ولا مهما كان صغيراً ، ولا ما كان قدره قليلا ، وهذا تنفيذ لتلك الوصية التى أوصاها السيد المسيح لتلاميذه « مجانا اخذتم مجانا اعطوا » (مت ١٠ : ٨)

« ليس لى غير الذى أكله الغلمان واما نصيب الرجال الذين ذهبوا معى عانر واشكول [٨٣] وممرا فهم يأخذون نصيبهم » (ع ٢٤) .

وقد توافق قول أبرام مع وصية السيد المسيح لتلاميذه التى تقول « واقيموا فى ذلك البيت آكلين وشاربين مما عندهم لأن الفاعل مستحق اجرته » (لو ١٠ : ٧) .

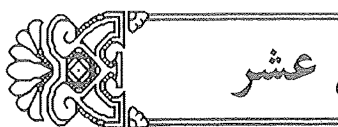
أشاهدت بيان فضيلة أب الآباء ، وكيف أنه تفلسف فى ألا تتطرق عليه الكبرياء فى امتناعه عن أخذ القنيان ، وبذل المجهود حتى ازال عنه التهمة بانه متعظم بالظفر ومعجب بالفتك ؟.



(٨٣) اشكول : اسم عبرى معناه « عنقود من العنب » .



الأصحاح الخامس عشر



« بعد هذه الأمور صار كلام الرب إلى أبرام فى الرؤيا قائلاً لا تخف يا أبرام انا ترس لك اجرك كثير جداً » (ع ١) .

قول الكتاب « بعد هذه الامور صار كلام الرب إلى أبرام فى الرؤيا » فان قال قائل : لِمَ كان ذلك فى الرؤيا ؟ أجيبه : ليقبل المقولات فى هدوء .

وقول الرب لأبرام « لا تخف يا أبرام » أى لا تخش من أنك قد أُطرحت ورُفضت ، فلا تحزن ولا تجزع .

وقوله « يا أبرام » إن ذكر اسم المدعو لهو شيء عظيم فى الإنهاض .

وقوله « أنا ترس لك اجرك كثير جداً » تأمل محبة الرب للبشر ، وكيف أنه قابل الصديق سريعا بالإحسان وانهضه للجهاد .

وقوله « أنا ترس لك اجرك كثير جداً » أى اننى ادافع عنك وأناضل واهتم بك ، واسهِّل لك كل ما صعب .

أرأيت فخامة هذا الكلام ؟ ألاحظت كيف أنعش المناضل عن حسن الايمان ؟ أرأيت كيف أن الرب قوى عزيمة أبرام ؟ لأن العارف بالضمائر علم ان الصديق شديد الحاجة إلى التعزية بهذا الكلام .

« فقال أبرام ايها السيد الرب ماذا تعطينى وأنا ماض عقيما ومالك بيتى هو اليعازر الدمشقى » (ع ٢) .

قول أبرام للرب « ماذا تعطينى وأنا ماض عقيماً » لما بشر الرب أبرام بجزيل العطاء ووعده بجليل المساعدة فأظهر أبرام هنا وجع نفسه وكآبته الزائدة وذلك لعقمه .

وقوله « وأنا ماض عقيما » أنظر الصديق كيف أنه قد تفلسف بتسميته انتقاله من العالم بقوله « أنا ماض » إذ إن المنعكفين على الفضيلة انعكافا شافيا ، إذا ما انتقلوا من هذه الحياة كانوا على الحقيقة بمنزلة من قد مضوا من هذه الجهادات وانعتقوا من هذه الرباطات ، لأن نقلة الافاضل انما هى من الأدنى إلى الاشرف ومن الحياة الوقتية إلى الحياة الدائمة غير المتناهية .

« **وقال أبرام ايضا انك لم تعطنى نسـلاً وهوذا ابـن بيتى وارث لى** » (ع ٣) .

إن هذا القول ليدل على تزايد ألم نفس أبرام وانزعاج عقله .

« **فاذا كلام الرب اليه قائلاً لا يرثك هذا بل الذى يخرج من احشائك هو يرثك** » (ع ٤) .

وللحين لم يترك الرب الصديق فى الكآبة بل بادر اليه سريعاً بالتعزية ، واستأصل جسيم حزنه بتلك الالفاظ التى فاوضه بها فى ذلك الوقت ، وكأن الرب يقول له : لا تنظر إذاً إلى الطبيعة البشرية ، ولا تر فى شيخوختك ولا فى عقرية سارة ، بل ثق بقوتى أنا الواعد لك والمبشر إياك وكن بمعزل عن هذه الكآبة وتعزى تعزية لا مزيد عليها وقرر فى نفسك أنه سيكون لك وارث وهو المولود منك .

« **ثم اخرجه إلى خارج وقال انظر الى السماء وعُدَّ النجوم ان استطعت ان تعدها وقال له هكذا يكون نسلك** » (ع ٥) .

ان هذا العدد لنجوم السماء لجليل وعظيم ، إلا اننا إذا أمعنا النظر فى قوة الواعد لا نستعظم هذا ، والدليل على ذلك ان الذى خلق الجسم من الأرض وابدع كل المبصرات من العدم إلى الوجود ، هو قادر أن ينعم بما يفوق الطبيعة .

« **فآمن بالرب فحسبه له براً** » (ع ٦) .

أرأيت كيف جوزى أبرام المجازاة الوافية على ايمانه بقول الرب قبل ظهور الموعود به إلى الفعل ؟ لأن ثقته عظيمة بوعد الله .

« **وقال له انا الرب الذى اخرجك من اور الكلدانيين [٨٤] ليعطيك هذه الأرض لترثها** » (ع ٧) .

انظر مقدار عناية الرب بأبرام من بداية الأمر إذ يحقق فى نفسه أنه سيحسن اليه إحسانا جزيلاً ، ويفى له بما وعده به ، وكأن الرب يقول له : ألعلنى نشلتك من أهلك

---

(٨٤) اور الكلدانيين : مسقط رأس أبرام التى ولد ونشأ فيها ، ولكنه خرج منها اطاعة لدعوة الرب وذهب إلى حاران ومنها ذهب إلى كنعان .

باطلاً ، وتُخلى المنزل الأبوى وتأتى إلى هذه الأرض ، فضع فى فكرك إذاً مقدار ما حظيت به من مؤازرتى منذ تركت بلدك وإلى هذه الغاية ، وكيف علا قدرك وكبر شأنك وانتشر صيتك واشرق ضياؤك من معاضدتى إياك ، فثق إذاً بما ذكرته لك .

أشاهدت تفاقم محبة الله للبشر ؟ اعاينت جسامة هذا التنازل وكيف يريد تقوية نفس الصديق وتوطيد ايمانه حتى لا يلتفت فيما بعد إلى موانع الطبيعة ؟.

« **فقال ايها السيد الرب بماذا أعلم إنى أرثها** » (ع ٨) .

انظر أيضا إلى أب الآباء ، وذلك أنه لما حدثت له دالة من المفاوضات مع الرب التمس زيادة فى التحقيق فقال « أيها السيد الرب بماذا اعلم انى أرثها » إذ أن الكتاب الإلهى وان كان قد تقدم فشهد لأبرام بقوله « فآمن بالرب فحسبه له براً » (ع ٦) إلا إنه عندما سمع من الرب يقول له « أنا الرب الذى اخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها » (ع ٧) .

فكأن أبرام يقول هنا للرب ، أما ما ذكرته فلا يمكننى إنكاره ، إلا اننى على كل حال أريد أن اعرف على أى معنى يكون ذلك ، وكيف أرثها مع شيخوختى ، واننى إلى هذه الغاية كضال فلست ادرك هذا الأمر بفكر بشرى ، وان كنت قد تقدمت فصدقت ما قلته لى أنت القادر على أن تُبدع من العدم إلى الوجود ومكوّن الاشياء كلها وخالقها، إذاً فليس سؤالى عن هذا الأمر على سبيل الانكار والشك بل على جهة اخرى وهى انك تبارك اسمك ، لما كنت قد ذكرتنى بالميراث أيضا أردت من تفضلك دليلاً واضحا جليا فيه كفاية على تلافى ضعف افكارى البشرية .

« **فقال له خذ لى عجلة ثلاثية وعنزة ثلاثية وكبشا ثلاثيا ويمامة وحمامة . فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه واما الطير فلم يشقه فنزلت الجوارح على الجثث وكان أبرام يزجرها** [٨٥]» (ع ٩ - ١١) .

لاحظ إلى أى مقدار تنازل الرب من جراء تحقيق أب الآباء إذ لما كان المألوف عند القدماء تقرير العهد ، لذلك سلك الرب هذا المسلك [٨٦] .

---

(٨٥) يزجرها : يمنعها .

(٨٦) كانت الطريقة المألوفة فى بابل لقطع العهد أن تقطع الذبيحة نصفين لبيان ان مَنْ يخلف الوعد يُقطع كما قطعت الذبيحة على ما يستفاد من نبوة إرميا (إر ٣٤ : ١٨ - ٢٠) .

وقول الرب لأبرام « خذ لى عجلة ثلاثية وعنزة ثلاثية وكبشا ثلاثياً » أى خذ ما له ثلاث سنين لكى تكون الذبيحة كاملة .

« ولما صارت الشمس إلى المغيب وقع على أبرام سُبات واذا رعبة مظلمة عظيمة واقعة عليه » (ع ١٢) .

إن سأل سائل : لأى حال كان ذلك « ولما صارت الشمس إلى المغيب » ؟ أجيبه : لأن الرب أراد أن يجعل أبرام أشد اصغاءً وأوفر تيقظا وتأملاً بهذه الفنون كلها .

وقول الكتاب « واذا رعبة مظلمة عظيمة واقعة عليه » لأن هذا الأمر مألوف عند الرب دائما ، والدليل على ذلك أنه لما عزم بعد هذا أن يفوض إلى موسى الناموس والوصايا على جبل سيناء حدث للوقت ظلام وزوبعة ودخان فى الجبل ولهذا قال الكتاب « وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار وصعد دخان كدخان الأتون وارتجف كل الجبل جداً » (خر ١٩ : ١٨) .

« فقال لأبرام اعلم يقينا ان نسلك سيكون غريباً فى ارض ليست لهم ويُستعبَدون لهم فيذلونهم اربع مئة سنة . ثم الأمة التى يستعبدون لها أدينها وبعد ذلك يخرجون بأملاك جزيلة » (ع ١٣ ، ١٤) .

قول الرب لأبرام « اعلم يقينا ان نسلك سيكون غريباً فى أرض ليست لهم ويُستعبَدون لهم فيذلونهم اربع مئة سنة » ان هذه الاقوال تحتاج إلى نفس شهمة وعن سائر الأمور البشرية مترفعة ، ولها تاركة ، ولو لم يكن أب الآباء ذا نفس حكيمة لكانت هذه الأمور تقلقه .

ولم يقل الرب لأبرام أن نسلك سيكون غريبا فى مصر ولا ذكر اسم هذه الأرض بل قال « أن نسلك سيكون غريبا فى أرض ليست لهم » ، ولم يقل انهم يستعبدون لمدة قليلة بل قال « ويستعبدون لهم فيذلونهم أربع مئة سنة » .

وقوله « ثم الأمة التى يُستعبَدون لها أدينها وبعد ذلك يخرجون باملاك جزيلة » ها الرب ينذر أبرام بما سيكون فيما بعد انذاراً شافيا ويوضح له الغضب الذى يلم بالمصريين من جرائمهم ، وعودة نسله بالنباهة وعظم الصيت .

« واما انت فتمضى إلى آبائك بسلام وتدفن بشيبة صالحة » (ع ١٥) .

لم يقل الرب لأبرام أما انت فتموت لكنه قال « وأما أنت فتمضى » كأنه عازم على السفر والتحول من وطن إلى وطن .

وإن سألت إلى منْ يشير الرب بقوله « فتمضى إلى آبائك » ؟ أجيبك : يشير إلى الابرار كهابيل ونوح وأخنوخ .

وقول الرب لأبرام « وتدفن بشيبة صالحة » ربما يعترض معترض ويقول : وأى أمر حميد ستراه هذه الشيخوخة التى انصرفت مدتها وتقضى وقتها بأصناف المصائب والمحن ؟! فاجيبه : لاتنظر إلى هذا الأمر ، بل انظر إلى عظم صيت الصديق فى كل أوان وكيف شَرّف قدره على الرغم من أنه كان غريبا لا بلد له ولا منزل وتمتع بمعاونة الله مدة الزمان تمتعا شافياً .

« وفى الجيل الرابع يرجعون إلى ههنا لأن ذنب الأموريين ليس إلى الآن كاملاً » (ع ١٦) .

ولما كان الرب محبا للبشر ، ليس انه ما عاقب عقاباً جسيماً فقط لكنه اقتصر فى ذلك غاية الاقتصار واستعمل نهاية الأناة مع الأموريين حرصا على خلاصهم .

أشاهدت كيف عرّف الرب أبرام جميع ذلك تعريفاً شافياً رغبة فى أن يقوى إيمانه من سائر الجهات ؟.

« ثم غابت الشمس فصارت العتمة واذا تنور دخان ومصابيح نار يجوز بين تلك القطع » (ع ١٧) .

فكان التنور والدخان وشعاع النار قد حققوا لأبرام صحة المواثيق ، ومعرفة إياه بحضور فعل الرب .

« فى ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقاً قائلاً لنسلك اعطى هذه الأرض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات » (ع ١٨) .

قول الرب لأبرام « لنسلك اعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات » ليعلمه من مساحة الأرض امتداد نسله .

« القينين [٨٧] والقنزيين [٨٨] والقدمونيين [٨٩] والحيثيين [٩٠] والفرزيين [٩١] والرفائيين [٩٢] والأموريين [٩٣] والكنعانيين [٩٤] والجرجاشيين [٩٥] واليبوسيين [٩٦] » (ع ١٩ - ٢١) .

تأمل كيف يحقق الرب وعده لأبرام أيضاً بالإسهاب .



(٨٧) القينيون : قبيلة من قبائل العرب .
(٨٨) القنزيون : قبيلة فى كنعان ايام أبرام .
(٨٩) القدمونيون : اسم عبرى معناه « شرقيون » .
(٩٠) الحيثيون : هم ذرية حث ثانى ابناء كنعان ونقرأ عن إبراهيم انه اشترى مغارة المكفيلة من عفرون الحثى (تك ٢٣ : ١٠) .
(٩١) الفرزيون : اسم كنعانى معناه « اهل الريف » .
(٩٢) الرفائيون : اسم عبرى معناه « ظلال الموتى » .
(٩٣) الأموريون : شعب كان يتكلم لغة سامية وقد حكموا أجزاء من فلسطين وسوريا وبابل بعض الوقت .
(٩٤) الكنعانيون : سكان ارض كنعان ، وقد حكم على الكنعانيين بالهلاك لسبب شناعة خطاياهم .
(٩٥) الجرجاشيون : احدى قبائل كنعان .
(٩٦) اليبوسيون : اسم قبيلة كنعانية سكنت اورشليم والجبال التى حولها .



الأصحاح السادس عشر

« وأما ساراى امرأة أبرام فلم تلد له وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر[٩٧] » (ع ١) .

قول الكتاب « وأما ساراى امرأة أبرام فلم تلد له » وكأنه يقول إن أبرام لم يحزن ولا ارتاب حين رأى انه ولا شيء قد تم مما قيل له بعد تلك المواثيق معه بل ان كل ما يلاحظه يناقض ما قيل له .

وقوله عن ساراى « وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر » ولم يذكر لنا ههنا الجارية عبثا ، بل رغبة فى أن نعلم من أين كانت لها ولذلك اضاف إلى القول انها « مصرية » ولنعلم انها من جملة ما أفاضه فرعون على ساراى ، لأنها لما حظيت بنصرة الله أخذت هاجر جارية لها وعادت إلى كنعان .

« فقالت ساراى لأبرام هوذا الرب قد أمسكنى عن الولادة . اُدخل على جاريتى لعلى ارزق منها بنين فسمع أبرام لقول ساراى » (ع ٢) .

تأمل حسن وفاء هذه المرأة ، وذلك انها لم تقل ما قالته راحيل ليعقوب « هب لى بنين وإلا فأنا أموت » (تك ٣٠ : ١) ، لكنها قالت « هوذا الرب قد امسكنى عن الولادة » إذ أن هذا القول ليدل دلالة وافية شافية ويشهر قوة الله التى لا توصف .

وقول ساراى لأبرام « اُدخل على جاريتى لعلِى أرزق منها بنين » ، ان فلسفة هذه المرأة لكثيرة لا توصف والدليل على ذلك أنه لم يُسمع عن إمرأة فعلت فعل هذه ، ولا اشارت على رجلها بمثل هذه المشورة ، وسمحت للجارية من الدنو إلى المضجع ، أشاهدت كيف انها فعلت هذا بمعزل عن كل ألم ؟.

وقول ساراى « اُدخل على جاريتى لعلى أرزق منها بنين » إذ أوضحت الغرض الذى لأجله استجازت فعل هذا الأمر .

وقول ساراى « اُدخل على جاريتى لعلى أرزق منها بنين » إذ علمت انها هى السبب فى عدم الولادة ، ولذلك لا تريد ان تعدم السلوى والعزاء من رجلها ، وقد يجوز

---

(٩٧) هاجر : اسم سامى معناه « هجرة » .

أن تكون ساراى قد ظنت أن امتناع البنين ليس منها وحدها بل ومن رجلها ، فلذلك آثرت أن يتحقق من الأمر بنفس العمل ، فسمحت للجارية بالدنو من المضجع .

وقول الكتاب « فسمع أبرام لقول ساراى » ان حكمة الصديق لجزيلة ، لأنه لم يطلب هذا الأمر اولاً ، ولكنه لما شملته الشيخوخة أجاب ساراى الى طلبها واطاعها واقام البرهان على أنه لم يستجز الجماع من أجل الشهوة بل رغبة فى أن ينجب ولداً .

« فاخذت ساراى امرأة أبرام هاجر المصرية جاريتها من بعد عشرسنين لاقامة ابرآم فى أرض كنعان وأعطتها لأبرام رجلها زوجة له » (ع ٣) .

تأمل ايضاح الكتاب والدليل على ذلك أنه لرغبته فى أن يعلمنا بأن أب الآباء لم يدخل على هاجر بعد مخاطبة ساراى له بل قال « فأخذت ساراى امرأة أبرام هاجر المصرية جاريتها بعد عشر سنين لاقامة أبرام فى ارض كنعان » . فكأنه يوضح لنا أن قبول أبرام لهذا الأمر من زوجته هو على سبيل التعزية لها .

وقول الكتاب « من بعد عشر سنين » ولم يذكر الزمان عبثا ، بل لنعلم عدد السنين التى صبر فيها أب الآباء صبر الابطال وكان ذا عفة وافية جزيلة عالية .

« فدخل على هاجر فحبلت ولما رأت انها حبلت صغرت مولاتها فى عينيها» (ع ٤) .

قول الكتاب عن أبرام « فدخل على هاجر فحبلت » أنظر كيف ان امتناع الحبل لم يكن من قِبَل الصديق بل كان بسبب عقرية سارة ، والدليل على ذلك سرعة الحبل .

وقوله عن هاجر « ولما رأت انها حبلت صغرت مولاتها فى عينيها » وهذه العادة عادة العبيد ، وذلك انهم إذا ما حسنت حالهم ينسون بسرعة نظامهم فيجاوزون قدرهم ويأتون من الخيانة وسوء المعاملة ما يشين ولا يزين ، وهذا الأمر فقد عرض لهذه العبدة ، لأنها لما رأت كبر بطنها ولم تمعن النظر لا فى فلسفة سيدتها التى لا توصف ولا فى حقارة طبيعتها وخمول منزلتها بل رفعت وعجبت فاذدرت سيدتها .

« فقالت ساراى لأبرام ظلمى عليك انا دفعت جاريتى إلى حضنك فلما رأت انها حبلت صغرت فى عينيها ، يقضى الرب بينى وبينك » (ع ٥) .

قول ساراى لأبرام « ظلمى عليك » أيتها المرأة : ألعل الرجل سارع إلى الجماع من نفسه ؟! وهل نهض إلى هذا الأمر عن شهوة ؟! انما فعل هذا الشيء على سبيل الطاعة لكِ والامتثال لأمرك ، فأى ظلم ظلمك إذاً ؟! .

وقولها « أنا دفعت جاريتى إلى حضنك » فان كنت تعترفين بانك أنت التى أعطيتها إياه ولم يأخذها هو من نفسه ، فلأى حال تتهمينه بالظلم والغشم ؟! .

وقولها « فلما رأت انها حبلت صَغُرتُ فى عينيها » وكأن ساراى تقول : يا هذا الرجل حتى وان كنت انا الدافعة إياها اليك فقد كان سبيلك حين رأيت إقدامها أن تقمعها وتكبحها عن هذا الفعل الذميم .

وقولها « يقضى الرب بينى وبينك » حقا إن هذه المخاطبة مخاطبة المرأة وتنم عن طبيعة ضعيفة ، فكأنها تقول لرجلها : اننى فضلت أن أزيل ما بك من اللوعة لأجل عدم الولادة فتلطفت تلطفا هذا تقديره ، حتى اننى اخذت جاريتى بكلتى يدى وبعثتها على الجماع ، أما أنت فقد كان الخليق بك حين رأيت كبرياءها بحبلها أن منعتها من ذلك .

وقولها « يقضى الرب بينى وبينك » هذا خطاب نفس متوجعة ، ولو لم يكن أب الآباء فيلسوفا حكيماً حليما واستحياءه من ساراى كثيراً ، فقد كانت هذه المفاوضة آلمته ونالت منه وتثقل بها ، إلا انه سامحها آخذاً بالأجمل ورجوعاً إلى الأفضل عالما بضعف طبيعتها .

« فقال أبرام لساراى هوذا جاريتك فى يدك إفعلى بها ما يحسن فى عينيك فاذلتها ساراى فهربت من وجهها » (ع ٦) .

قول أبرام لساراى « هوذا جاريتك فى يدك افعلى بها ما يحسن فى عينيك » إن فلسفة أب الآباء لعظيمة وأناته لجسيمة ، والدليل على ذلك حُسن الاجابة واللطف فى المخاطبة ، وكأنه يقول لساراى : أتظنين أيتها المرأة اننى السبب فيما صار اليك من السبّ، واننى افرح بما يأتيك من جهة هذه الجارية ؟ فان كنت ضاجعتها دفعة واحدة فاعلمى اننى استجزت هذا طاعة لك ، ولولا ذلك لما كنت بالذى أهلتها لفراشك ، والآن فها هى تحت يديك وفى قبضتك فاصنعى بها ما تريدين ، ألعل إنسانا عارضك فى أمرك ،

أترى أن سيادتك قد انتزعت منك ؟ ، اننى وان كنت استجزت جماعها إلا أن السلطة لك، وهى تحت يديك ، عاقبى ، أدّبى انتهرى كما ترغبين ، افعلى هذا بها ولا تخزى ، لأنها نسيت ما يجب لك علىّ من الاكرام ، وما يحق لك من الإجلال ، ولا أجهل غدر الجوارى ، فلا محل لها عندى ولا منزلة ، وليس لى غرض إلا اكرامك وإعزازك أن تكونى بمعزل عن كل حزن وانزعاج .

هذا هو الزواج الحقيقى ، هذا هو الزوج الصريح الذى لا ينافس المرأة على خطابها ، ولا يحاكمها على ما تتكلم به بل يعفو عنها ، ويرق لضعف طبيعتها ويبالغ فى إزالة حزنها .

فليسمع الرجال وليماثلوا وداعة هذا الرجل الصديق ويجلوا نساءهم هذا الإجلال ويشفقوا عليهن اشفاق الإناء الضعيف لتتأكد المحبة وتتزايد المودة ، لأن هذا الأمر هو الثراء الحقيقى والغنى العظيم .

وقول الكتاب « فاذلتها ساراى فهربت من وجهها » لجأت هاجر إلى الهرب لأن الجوارى هذه العادة عادتهم وهى أنهم اذا لم يتمكنوا من استعمال ما يخصهم ومنعوا من الشروع فيما ألفوه حينئذ يسارعون إلى الانفصال من مواليهم والهرب من قدامهم .

« فوجدها ملاك الرب على عين الماء فى البرية على العين التى فى طريق شور » (ع ٧) .

قول الكتاب عن هاجر « فوجدها ملاك الرب » أنظر مقدار ما تمتعت به هذه الجارية من الاهتمام الالهى إكراماً لأب الآباء وذلك انها لما حبلت من الصديق اُهلت لمشاهدة الملاك .

وقوله « فوجدها ملاك الرب على عين الماء فى البرية » تأمل صورة الرب المحب للبشر ، وكيف انه ما يهمل أحداً لكنه يهتم به ولو كان عبداً أو جارية ، لأنه لا ينظر إلى نية المناصب بل إلى نية النفس ، فلم يقف الملاك لهاجر على سبيل انها اهلاً لذلك بل اجلالاً لأب الآباء .

« وقال يا هاجر جارية ساراى من اين اتيتِ والى اين تذهبين فقالت انا هاربة من وجه مولاتى ساراى » (ع ٨) .

قول الملاك « يا هاجر » تأمل أيها الخليل كيف أن الملاك يذكرها بمكانتها ، واذ دعاها باسمها رغبة لأن يجعلها أشد اصغاءً ، والدليل على ذلك أننا اعتدنا على نداء المنادين إيانا باسمائنا .

وقوله « يا هاجر جارية ساراى » فذكرها بسيدتها لتعلم إنها وإن ساهمت فى المضجع السيدى فعلى كل حال فساراى سيدتها من الواجب .

وقوله « من أين اتيت والى أين تذهبين » انظر كيف أن الملاك بسؤاله إياها يضطرها إلى الاجابة .

وقول هاجر للملاك « أنا هاربة من وجه مولاتى ساراى » أما ترى كيف أن هاجر ما تجحد السيادة لكنها تعترف بكل شىء اعترافاً صادقاً .

وقولها « أنا هاربة من وجه مولاتى ساراى » أنظر كيف أن هاجر تذكر ساراى ذكراً لا كراهية فيه ، فلم تقل عنها انها فلانة التى عاملتنى بالقبيح وأساءت إلىّ فهربت ، ولا تفوهت عنها بشىء بشع بل طعنت على نفسها إذ هى هاربة ، أشاهدت حسن وفاء هاجر ؟.

« **فقال لها الملاك ارجعى إلى مولاتك واخضعى تحت يديها** » (ع ٩) .

أى كونى تحت يديها ، لأن هذا الأمر يجدى عليك نفعاً ، اعرفى العبودية ولا تجهلى السيادة ولا تتبجحى ولا تجاوزى قدرك ، تذللى لها وبالغى فى الطاعة والخدمة .

إن خطاب الملاك قاتلها قتالاً وافيا وقمع كبرياءها قمعا شافياً وألجم غضبها .

« **وقال لها ملاك الرب تكثيراً اكثر نسلك فلا يُعد من الكثرة . وقال لها ملاك الرب ها انت حُبلى فتلدين ابنا وتدعين اسمه اسمعيل** [٩٨] **لأن الرب قد سمع لمذلتك** » (ع ١٠ ، ١١) .

وكأن ملاك الرب يقول لهاجر إننى أنذرك بالولادة واضع اسم الصبى المولود لتزدادى تحققاً وتتلافى ما فرط منك من هفوة فإن الرب قد سمع خضوعك .

من هنا نعلم مقدار الفائدة من الأحزان فان هاجر لما ابتعدت وشملتها الأحزان فى

(٩٨) اسمعيل : اسم عبرى معناه « يسمع الله » .

الوحدة فصارت فى ضيق من العيش بعد حسن حال وجميل منزلة تقارب منزلة مولاتها ، لذلك سارعت اليها المعونة قائلة « ها أنت حبلى وتلدين ابنا وتدعين اسمه اسمعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك » .

« وانه يكون إنسانا وحشيا يده على كل واحد ويد كل واحد عليه وامام جميع إخوته يسكن » (ع ١٢) .

ها هو الملاك ينذر هاجر بأن ابنها سيكون باسلاً محارباً شديد الاهتمام بالأرض .

« فدعت اسم الرب الذى تكلم معها انت ايل رُئى [٩٩] لانها قالت اههنا ايضا رأيت بعد رؤية . لذلك دعيت البئر بئر لحى رئى [١٠٠] ها هى بين قادش وبارد » (ع ١٣ ، ١٤) .

لاحظ حُسن وفاء الجارية ، وكيف أنها تناهت فى الحكمة وبالغت فى حُسن الوفاء عما صار إليها من تفضل الله .

« فولدت هاجر لأبرام ابنا ودعا أبرام اسم ابنه الذى ولدته هاجر إسمعيل » (ع ١٥) .

من هذا الموضع نعرف مقدار صلاح الوداعة والربح المستفاد من الأحزان : الوداعة فقد شاهدناها فيما فعله أب الآباء عندما هدئ وجّد ساراى وأمكنها من التسلط على هاجر ، أما الربح المستفاد من الأحزان فقد علمناه من خبر هاجر عندما هربت لما ساءت مولاتها اليها وشقيت كثيراً وتضرعت إلى الرب وللحين اُهلت للاشراق الالهى .

« وكان أبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسمعيل لأبرام » (ع ١٦) .

لقد عاينت مودة الله للبشر التى لا توصف وكيف لم تعد هاجر من المهمة حائرة تائهة ومن مولاتها خائفة هاربة من المنزل فقط ، بل وانعم عليها بولادة اسمعيل اكراما لأب الآباء وتعزية له ومجازاة عن صبره .

✣ ✣ ✣

---

(٩٩) ايل رُئى : إله الرؤية .

(١٠٠) بئر لحى رئى : بئر الرؤية الحيوية ، أى رؤيتها الله وهى حية . أو البئر التى حيث رئى الله والرائى لم يزل حياً .



الأصحاح السابع عشر

« ولما كان أبرام إبن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لأبرام وقال له انا الله القدير سر أمامى وكن كاملاً » (ع ١) .

قول الكتاب « ظهر الرب لأبرام » اى ان الله أهّل أبرام لافتقاده ورأى أنه مستحق لاهتمامه فتنازل معه هذا التنازل الجميل .

وقول الرب لأبرام « انا الله القدير سر أمامى وكن كاملاً » وكأن الرب يقول : أنا هو المدبر شئونك ، أنا هو الذى أنهضتك من منزلك واوردتك إلى ههنا ، ودافعت عنك فى كل أوان وانقذتك من سائر المكائد .

« فأجعل عهدى بينى وبينك واكثرك كثيراً جداً » (ع ٢) .

لم يقل الرب « واكثرك » وحسب ، بل اضاف إلى ذلك « كثيراً جداً » دلالة على الوفرة والكثرة ، كما قال من قبل « انظر إلى السماء وعدّ النجوم ان استطعت أن تعدها وقال له هكذا يكون نسلك » (تك ١٥ : ٥) .

« فسقط إبرآم على وجهه وتكلم الله معه قائلاً » (ع ٣) .

قول الكتاب « فسقط إبرآم على وجهه » إن حُسن وفاء أب الآباء لجزيل وإن وداد الله الصالح له لجزيل جداً لأن النفس الوفية هذه الصورة صورتها ، وذلك إنها اذا عظمت حالها تزايدت فى الخشوع من الله .

وقوله « فسقط إبرآم على وجهه » إذ إن أب الآباء لما نظر إلى ذاته وضعف الطبيعة البشرية وبعد هذه الدالة لم يتبجح بل سقط إلى أسفل وبالغ فى المخافة .

« أما انا فهوذا عهدى معك وتكون ابا لجمهور من الامم فلا يدعى اسمك بعد أبرام [١٠١] بل يكون اسمك إبراهيم [١٠٢] لأنى اجعلك ابا لجمهور من الأمم» (ع ٤ ، ٥) .

---

(١٠١) أبرام : « الأب الرفيع » أو « الأب المكرم » .

(١٠٢) إبراهيم : « ابو جمهور » .

إن امعنا النظر فى عمر أب الآباء والشيخوخة التى قد ألمت به ذُهلنا من فرط أمانته وتفاقم قدرة الله المحب للبشر إذ إنه اوضح أن نسل أب الآباء يتزايد إلى أن يصير عدة من القبائل تبرز من إنسان مائت متوقع الموت كل يوم .

« واثمرك كثيراً جداً واجعلك امما وملوك منك يخرجون » (ع ٦) .

قول الرب لإبراهيم « واثمرك كثيراً جداً » فلم يضاعف التأكيد عبثا بقوله « كثيراً جداً » بل أراد أن يقرر فى نفس أب الآباء توافر الكثرة ، وبذلك وثّق الرب الوعد وجعله وكأنه نقش على حجر .

وليس هذا فقط قال الرب لإبراهيم بل قال « وأجعلك امما وملوك منك يخرجون » .

« واقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهداً ابديا لاكون الها لك ولنسلك من بعدك » (ع ٧) .

تأمل كيف أن الرب يرفع نفسية أب الآباء بوعده إياه بأنه سيراعى نسله أشد مراعاة . وتأمل ايضا قوة هذا العهد التى بلغت إلى أن يصير الرب إلهاً لأب الآباء ولنسله من بعده .

« وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا ابديا واكون الههم » (ع ٨) .

وهذا الأمر سيكون بداية الخيرات إذ إن الرب سيجود على أب الآباء وعلى نسله من بعده بهذه الأرض التى يسكنها كلها .

« وقال الله لإبراهيم واما انت فتحفظ عهدى انت ونسلك من بعدك فى اجيالهم » (ع ٩) .

أى أن الله لا يطلب منهم إلا الطاعة وحسن الوفاء ، وهو سيوافيهم بكل ما وعدهم به .

« هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك يُختن منكم كل ذكر » (ع ١٠) .

تأمل حكمة السيد الرب ، وكيف أنه لما علم بقلة وفاء الآتين فيما بعد تقدم اليهم بالختانة وألجمهم بها وكبح شروعهم من أن يمازجوا الأمم ، ورسم لهم حدوداً لا

يتعدونها بل يقيمون فى قبيلتهم ولا يختلطون بالأم البتة بل يكون نسل أب الآباء مميزاً مفرداً لتظهر المواعيد إلى الفعل .

لقد رسم لهم قطع الغلفة وجعلها كالقيود فى الأرجلِ حتى اذا ما ذكروا ذلك فى ذواتهم لا يحتاجون إلى تعليم آخرين ، لأن اليهود الغَدَرة المكَرَه الذين لا حس لهم يحفظون الآن الختانة وليس ذلك أوانها . يا صاح أنا اسألك: فلأى حال يختتنون الآن ؟! فى ذاك الاوان رسم اليهم الرب هذا الأمر خوفا من أن يمازجوا الأم ، أما الآن ، فبنعمة الله قد انقاد الكل الى نور الحق ، ولذلك فأية فائدة إذاً فى الختانة ألعل إطراح الغلفة يؤول إلى حرية النفس ؟! .

« فتختتنون فى لحم غرلتكم فيكون علامة عهد بينى وبينكم » (ع ١١) .

فكأن الله يقول هنا مفصحاً انهم احتاجوا إلى هذه العلامة لفرط غدرهم ووافر خبثهم ، وقد يجرى مثل هذا فى الأمور البشرية ، وذلك عندما لا نثق بقوم من الناس نجتهد فى أن نأخذ منهم رهنا على سبيل العلامة ، وهكذا فعل إله الكل ، فإنه لما علم سهولة انقلابهم التمس منهم هذه السمة لا على انها تبقى دائما لكن اذا انتهت الأمور زالت الحاجة اليها .

« ابن ثمانية ايام يُختن منكم كل ذكر فِي اجيالكم وليد البيت والمُبتاع بفضة من كل ابن غريب ليس من نسلك . يختن ختانا وليد بيتك والمُبتاع بفضتك فيكون عهدى فى لحمكم عهداً أبدياً . وأما الذكر الاغلف الذى لا يُختن فى لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها انه قد نكث عهدى » (ع ١٢ - ١٤) .

لنعلم أن الختان لا يتولد منه فضيلة للنفس ، والدليل على ذلك أن الرب قال لإبراهيم « ابن ثمانية ايام يختن منكم كل ذكر » وعلى ما اظن أن الرب المحب للبشر حدد هذا الزمان لسببين : أولهما : ليخفف إحتمال ألم قطع الغلفة فى هذا السن ، وثانيهما : لنعلم أن هذا الأمر لا ينفع النفس بل هو مجرد علامة ، فالطفل الصغير أى منفعة تنفع نفسه من هذا الأمر .

إلا أن اليهود المكره ، لما وضح الحق جلسوا فى الظل وعند اشراق شمس البر وارسال شعاعه إلى كل مكان استمسكوا أيضا بالسراج ، وبعد الغذاء القوى اغتذوا باللبن ، ولم يحتملوا سماع ما يقوله الطوباوى بولس عن أب الآباء « لاننا نقول أنه حسب لإبراهيم الايمان براً . فكيف حُسبَ . أو هو فى الختان أم فى الغرلة ليس فى الختان بل فى الغرلة وأخذ علامة الختان ختماً لبر الإيمان الذى كان فى الغرلة ليكون أبا لجميع الذين يؤمنون وهم فى الغرلة كى يحسب لهم أيضاً البر » (رو ٤ : ٩ - ١١) .

« وقال الله لإبراهيم ساراى إمرأتك لا تدعو اسمها ساراى [١٠٣] بل اسمها سارة [١٠٤] » (ع ١٥) .

وكأن الله يقول لإبراهيم كما اننى غيرت اسمك لتصير أباً لأمم كثيرة ، هكذا غيرت اسم ساراى إلى سارة لكى تعلم أنه قد حان الوقت الذى تظهر فيه المواعيد القديمة إلى الفعل .

« واباركها واعطيك ايضا منها ابنا . اباركها فتكون امما وملوك شعوب منها يكونون » (ع ١٦) .

لقد ظن أب الآباء أن وعد الله قد تم فى اسمعيل إذ كان قد قال له « واعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان » (ع ٨) ، ولما لم يميز أن النسل هو المولود من سارة توهم فى نفسه أن الوعد قد ظهر الى الفعل ، فلما سمع الآن الرب قائلاً عن سارة « وأباركها واعطيك أيضا منها إبنا » لن يقدر أن يقول شيئاً .

« فسقط إبراهيم على وجهه وضحك وقال فى قلبه هل يولد لابن مئة سنة وهل تلد سارة وهى بنت تسعين سنة » (ع ١٧) .

لما نظر إبراهيم إلى سنه وإلى عقرية سارة وما انتهت اليه من السن شملته الحيرة ، وذهل من وعد الله فسقط على وجهه متفكراً كيف يتم هذا الأمر مع اللوازم البشرية ويولد ولد لمن هو ابن مئة سنة ، وكيف تنهض عاقر ولها تسعون سنة إلى الولادة بغتة ؟!

---

(١٠٣) ساراى : اسم عبرانى معناه « المجاهدة » .
(١٠٤) سارة : اسم عبرانى معناه « أميرة » .

« وقال إبراهيم لله ليت اسمعيل يعيش امامك » (ع ١٨) .

فكأن أب الآباء يقول أيها السيد الرب لقد عزيتني عزاءً كافياً ، ونقلت حزنى بسبب عدم الانجاب بهبة اسمعيل لى ، وإذ قد ولد هذا ، فلم يخطر ببالى أنه سيجئ من سارة ولد ، نعم ، ولا هى أيضا تتوقع مثل هذا ، وقد تعزينا تعزية شافية بولادة اسمعيل ، وهذا الذى تفضلت به ليعيش قدامك ، فإن لنا بذلك غاية العزاء .

« فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابنا وتدعو اسمه اسحق واقيم عهدى معه عهدا ابديا لنسلك من بعده » (ع ١٩) .

لما اختبر الله ايمان إبراهيم وسارة بطول الزمان وابصرهما كليهما انهما منكران لما وعدهما به ، فالرجل لأجل شيخوخته وأما هى فلأجل العقرية مع الكبر وكأن الله يقول لإبراهيم هنا : إن كان الأمر قد بان عندك أنه ممتنع فانا لهذا السبب تأنيت لأقيم الدليل على أن ما أجود به يفوق الطبيعة البشرية، ولكى تعلم أنت وكل مَنْ سواك بالأمور نفسها اننى سيد الطبيعة ، وانها ترضخ لما أريده وتنقاد لأوامرى ، وكن على ثقة وتحقق غاية ما أنا قائله لك أن سارة إمرأتك التى تظن أن ولادتها ممتنعة من جراء العقرية ومن قبل الشيخوخة ستلد لك ولداً ولرغبتى أن أرفع من قلبك الشك هانذا انذرك باسمه وأقول لك انك ستسمى المولود إسحق ومعه أقرر عهدى تقريراً مؤبداً ومع نسله من بعده ، هذا هو الذى وعدتك به سابقا وفيه تتم مواعيدى ، لذلك انذرك بكل شيء من ذلك ، لا انها تلد فقط بل وكيف تسميه وأن أضع معه عهدى ، وليس هذا فقط بل ومع نسله من بعده .

« واما اسمعيل فقد سمعت لك فيه ها انا اباركه واثمره واكثره كثيراً جداً . اثنى عشر رئيسا يلد واجعله أمة كبيرة . ولكن عهدى اقيمه مع اسحق الذى تلده لك سارة فى هذا الوقت فى السنة الآتية . فلما فرغ من الكلام معه صعد الله عن إبراهيم » (ع ٢٠ - ٢٢) .

تأمل ههنا يا صاح كيف أن أب الآباء قد حظى فى أقل وقت بجوائز كل الزمان ، وتم ماقاله المسيح لتلاميذه « وكل مَنْ ترك بيوتا أو اخوة أو اخوات أو أبا أو أما أو أمرأة أو اولاداً أو حقولاً من أجل اسمى يأخذ مئة ضعف ويرث الحيوة الابدية » (مت ١٩ : ٢٩) ، وامعن النظر فى هذا الصديق ليتضح لك البرهان ، فإنه لما أطاع

لأمر الـرب وترك وطنه وتغرب عن بلده وأظهر من الصبر أجمله ، ومن الإحتمال أنفسه وأفضله ، وسما إلى ذروة الفضيلة وعظم صيته وتنبه قدره حتى ساوى أولاده النجوم فى الكثرة .

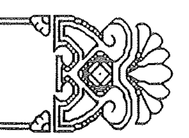
« فاخذ إبراهيم اسمعيل ابنه وجميع ولدان بيته وجميع المبتاعين بفضته كل ذكر من اهل بيت إبراهيم وختن لحم غرلتهم فى ذلك اليوم عينه كما كلمه الله . وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين خُتن فى لحم غرلته . وكان اسمعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين خُتن فى لحم غرلته . فى ذلك اليوم عينه خُتن إبراهيم واسمعيل ابنه . وكان رجال بيته ولدان البيت والمبتاعين بالفضة من ابن الغريب ختنوا معه » (ع ٢٣ - ٢٧) .

قول الكتاب « وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين خُـتن فى لحم غرلته » لا تظن أن الكتاب دلنا على عدد السنين عبثا بل رغبة فى أن نعلم صبر أب الآباء ، والدليل على ذلك انه احتمل الوجع وهو فى غاية الكِبر إمتثالاً لأمر الله ، ولم يختتن هو وحده بل واسمعيل وعبيده .

ودليل آخر على تزايد صبر الصديق أن قطع الجسم الصحيح ليس كقطع الجسم المريض ولا المشقة فيهما متساوية ، فإن أب الآباء احتمل الألم بغاية السهولة مع شيخوخته، وذلك أنه كان ابن مئة سنة وأتم أمر الله وحث إبنه وعبيده على تكميل مراسم الله بحرص ونشاط دون تقاعد .

أرأيت مقدار هذا المرء الفاضل ؟ وكيف جعل كافة أصحابه أن يقتفوا إثره ويتبعوه ؟.





الأصحاح الثامن عشر

« وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس فى باب الخيمة وقت حر النهار » (ع ١) .

فإن سأل سائل : لأى حال قال الكتاب عن ابراهيم « وظهر له الرب » ؟! أجيبه : لما ظهر الله لأب الآباء فيما سبق ورسم له مع سائر الأشياء الأخرى أن يختتن سارع هذا العجيب إلى تنفيذ ذلك دون أن يتقاعس أو يتراخى ، فاختتن وختن اسمعيل وكافة أهل بيته ، فلما أظهر هذه الطاعة عاوده الرب بالظهور ، فإن للرب هذه الصورة إذا ما رأى عبيده ذوى طاعة وإحسان فى المعاملة يواصل جميله بما سلف مجازياً لوفائهم ، وهذا هو السبب فى ظهور الرب لابراهيم .

وقول الكتاب عن ابراهيم « وهو جالس فى باب الخيمة » وهذا دليل على محبة أب الآباء للضيافة ، فقد كان له ثلاثة مئة وثمانية عشر غلاماً وهو مع هذا رجل شيخ لأنه كان ابن مئة سنة ، لكنه لم يستجز التخلف عن الجلوس فى باب الخيمة محبة للضيافة ، فهناك طائفة من الناس ليس انهم ما يجتهدون فى هذا المعنى هذا الاجتهاد فقط ، بل ويفعلون ما يضاد ويخالف ، وذلك أنهم يمتنعون عن لقاء الناس والانبساط معهم فى المحادثة خوفا من أن تدعوهم الضرورة إلى ضيافتهم كرها إلا أن هذا الصديق لم تكن هذه العادة عادته .

وقوله « وقت حر النهار » مما يدل على أن المسافرين يفتقرون إلى الراحة فى هذا الوقت ، لذلك اختار هذا الوقت الملائم وجلس يتصيد المجتازين حرصا على حمل الثقل عنهم ومقابلة تعبهم بالراحة وإدخالهم إلى خيمتـــه واعفائهم من لهيب الشمس وشدة الحر .

« فرفع عينيه ونظر واذا ثلاثة رجال واقفون لديه فلما نظر ركض[١٠٥] لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض » (ع ٢) .

قول الكتاب عن ابراهيم « فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة » أسرع الشيخ لأنه لاحظ الصيد متوجه نحوه ولم يتحجج بالضعف ، ولم يستدع غلمانا ، ولا

---

(١٠٥) ركض : جرى ، حرك رجليه .

أمر عبداً ، ولا تراخى ولا تكاسل بل اسرع بنفسه قائلا ان هذا الكنز عظيم ومتجر جسيم ، وأنه يجب عليّ أن أتاجر فيه أنا دون غيرى لئلا يفوتنى ربح هذا مقداره .

وقوله « فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة » الشيخ الهرم ابن المئة سنة اسرع وجرى وبالغ فى النشاط .

وقوله « وسجد إلى الأرض » فلم يحفل بشيخوخته ولا تهاون بسن الحاضرين ، لأنه يجوز أن يكونوا بالنسبة له شبانا .

وقوله « وسجد إلى الأرض » رغبة لاشهار فضيله أب الآباء ، إذ إنه بهذا السجود أقام البرهان على فرط نشاطه وغزير اتضاعه ووافر حبه للضيافة .

« وقال يا سيد ان كنت قد وجدت نعمة فى عينيك فلا تتجاوز عبدك . ليؤخذ قليل ماء واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة » (ع ٣ ، ٤) .

قول ابراهيم « يا سيد ان كنت قد وجدت نعمة فى عينيك فلا تتجاوز عبدك » هذه صورة الضيافة الحقيقية إذ يعتقد فاعلها أن العطية للوافد وليس له .

ولا ننكر أن خطاب أب الآباء بدأ لشخص واحد إذ قال « يا سيد » وإن كان الضيوف به ثلاثة ؛ فإنه يجوز أن يكون أشار بخطابه إلى الذى وضح له أنه الوجيه فيهم والمقدم عندهم وبعد ذلك عمم فى خطابه لأنه قال « ليؤخذ قليل ماء واغسلوا ارجلكم» .

وقوله « ليؤخذ قليل ماء واغسلوا ارجلكم واتكئوا تحت الشجرة » أرأيت كيف أن أب الآباء لا يعلم مَنْ هم هؤلاء ، إذ إنه يخاطبهم مخاطبة أناس مجتازين به ؟ .

« فآخُذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون لانكم قد مررتم على عبدكم فقالوا هكذا نفعل كما تكلمت » (ع ٥) .

قول ابراهيم « فآخُذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم » انظر كيف ينذر ببساطة المائدة لابجلالتها .

وقوله « لأنكم قد مررتم على عبدكم » وانظر أيضا كيف يدعو نفسه عبداً .

أرأيت كيف استعمل أب الآباء اسبابا مختلفة رغبة فى اجتذاب الوافدين ؟ .

وقول الضيوف « هكذا نفعل كما تكلمت » ولما بلغ أب الآباء فى الاجتهاد والانتهاض ظفر بالصيد .

« فأسرع ابراهيم إلى الخيمة إلى سارة وقال اسرعى بثلاث كيلات دقيقاً سميذا اعجنى واصنعى خبز ملة » [١٠٦] (ع ٦) .

فكما انه حين توجه نحو اصطيادهم تناهى فى النشاط وانتهاز الفرصة ، هكذا والآن ، فإنه لما احكم ما كان ملتهفاً عليه ، لم تبرد حرارة نشاطه ، بل تزايد شوقه توقداً، ولا لما اطمأن بكونهم عنده تراخى قليلاً كما نفعل نحن عدة مرات ، إلا أن هذا الصديق لم تكن حاله هذه الحال ، فإن سألت : وماذا كان ؟ اجيبك : « فأسرع ابراهيم إلى الخيمة إلى سارة وقال اسرعى بثلاث كيلات دقيقا سميذا اعجنى واصنعى خبز ملة » .

تأمل كيف أن أب الآباء يأخذ سارة معه مساهمة وكيف علمها مماثلته فى الفضيلة والدليل على ذلك أنه استنهضها إلى مشاركته فى اكرام الضيوف من غير كسل بل بنشاط .

فان سأل سائل : قل لى لأى حال لم يتقدم ابراهيم إلى واحدة من الجوارى بما تقدم به إلى سارة المرأة العجوز لأنها كانت ابنة تسعين سنة ؟! أجيبه : إنما فعل ذلك ليسمع الرجال والنساء ، فالرجال ليعلّموا نساءهم إنه اذا ما ظهر ربح روحانى ألا يعتمدن على الجوارى فيه ، بل يقمن بنفوسهن بكل الاجتهاد ، أما النساء فليحرصن على مساهمة رجالهن فيما يناسب هذه الأمور ولا يستحيين أن يخدمن بنفوسهن من أجل المسيح لكى يماثلن سارة العجوز التى تعبت وهى فى هذه السن وأتمت، عمل الشباب ، فلذلك استحقت أن تكون لأب الآباء ، وكما سارع أب الآباء إلى الخيمة هكذا سارة أطاعت ما قاله لها .

« ثم ركض ابراهيم إلى البقر وأخذ عجلاً رخصا وحيداً واعطاه للغلام فأسرع ليعمله » (ع ٧) .

لقد أسرع أيضا أب الآباء بنفسه إلى قطيع البقر ، آه لشبيبة شيخ ! وقوة نفس ، أسرع إلى قطيع البقر ، ولم يأمر واحداً من خدمه أن يذهب ، فأظهر للوافدين بهذا كله مقدار سروره .

« ثم أخذ زبداً ولبنا والعجل الذى عمله ووضعها قدامهم وإذ كان هو واقفا لديهم تحت الشجرة اكلوا » (ع ٨) .

(١٠٦) خبز ملة : عجين يخبز على الحجارة المحماة ، ويُعد من الخبز النفيس .

لم يكتف أب الآباء بما فعله لكنه رتب ترتيب الخدم ووقف وقوف الحشم إذ يقول عنه الكتاب « ثم أخذ زبداً ولبنا والعجل الذى عمله ووضعها قدامهم » ، كل هذا تولاه بنفسه ، ولم يعتقد أنه أهل للجلوس معهم ، لكنه كان قائما تحت الشجرة وهم يأكلون .

يا لجلالة هذه الضيافة ، وآها لفرط هذا الاتضاع ، ما أغزر هذه النية فى محبة الله، وقف ابن المئة سنة وهم يأكلون ، وعلى ما أرى أن شدة شوقه ووافر نشاطه أعفياه من الضعف وقوياه ، والدليل على ذلك أنه من المألوف فى اكثر الأحيان أن نشاط النفس يستولى على ضعف الجسد .

وقف أب الآباء كعبد معتقدا أن تأهيله لخدمتهم وازالة ما بهم من تعب الطريق إكرام وافر وإحسان متكاثر.

أشاهدت مقدار ما قام به هذا الصديق من ضيافة ؟ ولا تتأمل هذا فقط إذ كان قد قدم لهم خبزاً وعجلا لكن تفكر فى مقدار الإكرام والاتضاع اللذين أظهرهما فى الضيافة .

« وقالوا له أين سارة امرأتك فقال ها هى فى الخيمة » (ع ٩) .

فأوضحوا بالسؤال لأب الآباء أن الوافدين عليه ليسوا كباقى الضيوف إذ قد عرفوا اسم امرأته .

« فقال انى ارجع اليك نحو زمان الحيوة ويكون لسارة امرأتك ابن وكانت سارة سامعة فى باب الخيمة وهو وراءه » (ع ١٠) .

هذا ثمر الضيافة ، هذا جزاء النشاط البالغ عن أتعاب سارة .

« وكان ابراهيم وسارة شيخين متقدمين فى الأيام وقد انقطع ان يكون لسارة عادة كالنساء . فضحكت سارة فى باطنها قائلة أبعد فنائى يكون لى تنعم وسيدى قد شاخ » (ع ١١ ، ١٢) .

ولرغبة الكتاب الإلهى فى الاعتذار عما فعلته سارة تقدم فأوضح قائلاً « وكان ابراهيم وسارة شيخين متقدمين فى الأيام » ولم يكتف بهذا بل قال « وقد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء » إذ جف الينبوع ، عميت العين ، عطل الشىء الفاعل لذلك شكّت فيما قيل لها ، وفكرت فى سنها وشيخوخة أب الآباء وقال عنها الكتاب « فضحكت سارة فى باطنها » .

« فقال الرب لإبراهيم لماذا ضحكت سارة قائلة افبالحقيقة ألد وانا قد شخت » (ع ١٣) .

وبينما سارة مفكرة فى الخفاء أراد الخبير بالضمائر أن يُظهر تفاقم قوته وتزايد قدرته ، وأنه لا شيء من الخفايا يستتر عنه فقال لابراهيم « لماذا ضحكت سارة » ؟! .

« هل يستحيل على الرب شيء فى الميعاد أرجع اليك نحو زمان الحيوة ويكون لسارة ابن » (ع ١٤) .

قول الرب « هل يستحيل على الرب شيء » ها قد أعلن ذاته ، إذ إنه هو سيد الطبيعة يقدر على كل شيء وقد أراد أن يحيى هذا الرحم المائت ، لأنه هو فاعل كل شيء ومكونه ، أليس له السلطان على الحياة والموت ؟ ! أيمتنع على الله قول أو ما تقدم به ووعد لا يظهر إلى الفعل ؟ لذلك قال الرب « فى الميعاد أرجع اليك نحو زمان الحيوة ويكون لسارة ابن » حينئذ تعلم سارة بالأمور أن الشيخوخة لم تكن لها عائقا ولا العقرية مانعاً .

« فأنكرت سارة قائلة لم اضحك لأنها خافت فقال لا بل ضحكت » (ع ١٥) .

لما سمعت سارة أن الحاضر لا يُخفى عنه وقد علم فكرها لذلك انكرت قائلة « لم اضحك » لأن الخوف ازعج ذهنها .

ولما نظر الكتاب الإلهى أن كل ما كان من سارة إنما سببه الضعف البشرى قال « لأنها خافت » .

« ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم وكان إبراهيم ماشياً معهم ليشيعهم » (ع ١٦) .

قول الكتاب « ثم قام الرجال » يعنى الرب والملاكين لأن الرب ظهر فى الخيمة مع الملاكين .

« فقال الرب هل أخفى عن ابراهيم ما أنا فاعله » (ع ١٧) .

إن تنازل الله لعظيم ، وأن الإكرام الواصل للصديق لجسيم إذ فاوضه مفاوضة الخليل لخليله ، رغبة لأن يقيم الدليل عندنا على ما يستوجبه الأفاضل من الإجلال عنده .

« وابراهيم يكون أمة كبيرة وقوية ويتبارك به جميع أمم الأرض » (ع ١٨) .

قول الرب هذا لابراهيم رغبة أن يعلمه أن هذا جزاء جميل نيته المحُبة له .

« لأني عرفته لكي يوصي بنيه وبيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب ليعملوا برا وعدلاً لكي يأتي الرب لإبراهيم بما تكلم به » (ع ١٩) .

إذا امعنت النظر عرفت مقدار فضيلة أب الآباء من قول الرب عنه «لأني عرفته» .

ومعنى قوله « طريق الرب » أي أوامره ووصاياه .

« وقال الرب إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر وخطيتهم قد عظمت جداً » (ع ٢٠) .

قول الرب « إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر » وعلى ما أظن أنه يشير بقوله هذا إلى أن القوم قد ارتكبوا مظالم عدة مع زيادة الشر الذى لا يوصف .

وقوله « وخطيتهم قد عظمت جداً » أى أنهم سلكوا فى الشر مسلكا غريبا وشرعوا فى الجماع غير الشرعى وغير المعهود ، وزادت الرذيلة فيهم وفسدوا عن بكرة أبيهم .

« أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتى اليّ وإلا فأعلم . وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم واما ابراهيم فكان لم يزل قائما أمام الرب » (ع ٢١ ، ٢٢) .

قول الرب « أنزل وأرى » ليوضح لهم احتماله بعد قلة الفضيلة واضمحلالها تأنى هذا التأنى ، وقد يجوز أن يكون الغرض لمعنى آخر وهو انه انما أوضح لأب الآباء حنوه ورأفته وليوجده حجة .

« فتقدم إبراهيم وقال أفتهلك البار مع الاثيم » (ع ٢٣) .

يا أب الآباء الطوباوى ماذا تفعل ؟ هل الرب يحتاج إلى سؤالك ؟! .

« عسى أن يكون خمسون باراً فى المدينة أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين باراً الذين فيه . حاشا لك أن تفعل مثل هذا الامر أن تميت البار مع الأثم فيكون البار كالاثيم . حاشا لك أديان كل الأرض لا يصنع عدلاً فقال الرب إن وجدت فى سدوم خمسين باراً فى المدينة فانى اصفح عن المكان كله من أجلهم » (ع ٢٤ ـ ٢٦) .

انظر كيف أن أب الآباء يوضح محبته لله فى سؤاله ويقرّ أنه القاضى العادل لسائر الأرض ويتضرع اليه ألا يبيد البار مع الأثيم فقبل الله شفاعته .

« فاجاب ابراهيم وقال انى قد شرعت اكلم المولى وانا تراب ورماد . ربما نقص الخمسون باراً خمسة أتهلك كل المدينة بالخمسة . فقال لا اهلك إن وجدت هناك خمسة واربعين » (ع ٢٧ ، ٢٨) .

ينبغى لنا أن ننظر إلى أب الآباء كيف أنه تجاسر وسأل ثانية ثقة بمحبة الله للبشر .

مَنْ ذا الذى ينهض بتمجيد إله الكل كما ينبغى ذلك المتأنى أناة هذا حدودها المتنازل تنازلاً هذا قدره ، أو يطوب الصديق الذى حظى بهذه الدالة الوافرة .

« فعاد يكلمه أيضا وقال عسى ان يوجد هناك أربعون فقال لا افعل من اجل الاربعين . فقال لا يسخط المولى فأتكلم عسى ان يوجد هناك ثلاثون فقال لا افعل ان وجدت هناك ثلاثين . فقال انى قد شرعت أن أكلم المولى عسى ان يوجد هناك عشرون فقال لا أهلك من اجل العشرين . فقال لا يسخط المولى فاتكلم هذه المرة فقط عسى ان يوجد هناك عشرة فقال لا اهلك من اجل العشرة . وذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع إبراهيم ورجع ابراهيم إلى مكانه » (ع ٢٩ ـ ٣٣) .

تأمل مقدار حرصٍ أب الآباء إذ إنه اجتهد غاية الاجتهاد فى اجتناب أهل سدوم وعمورة من العقاب الملم بهم كأنه هو العازم على التزام القضية .

أعرفت قوة الفضلاء ؟ أشاهدت تنازل الرب ؟ .





الأصحاح التاسع عشر

« فجاء الملاكان إلى سدوم مساءً وكان لوط جالسا فى باب سدوم فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض » (ع ١) .

قول الكتاب « فجاء الملاكان إلى سدوم مساءً » لكى يتمما الأمر ، وانظر إيضاح الكتاب ولطيف تحفظه وكيف بيّن لنا الوقت الذى فيه جاء الملاكان ، فإن سألت عن العلة الموجبة ذكر ذلك ؟ اجيبك : ليوضح لنا فرط محبة لوط للضيافة ، إذ كان يجلس إلى هذا الوقت خوفا من أن يفوته كنز فيعدم الفائدة التى تأتى من الضيافة .

وقوله « فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض » ليسمع الجفاة القساة الذين يرقدون ويطردون الوافدين اليهم المتوسلين ، وتأمل هذا الصديق الذى لم يتقاعد بل جرى أمره مجرى أب الآباء . وتمعن فضيلة هذه النفس التى اعتقدت أن ظفرها بهذين الرجلين غاية الإحسان من الله ، وأنها قد بلغت المُنى باستقبالهما ، ولا تقل لى انهما كانا ملاكين ، بل اعلم ان الصديق لن يتصور هذا الأمر فيهما ، بل إنه استقبلهما كأنهما رجلان مجهولان مجتازان .

« وقال يا سيدىّ ميلا إلى بيت عبدكما وبيتا واغسلا ارجلكما ثم تبكران وتذهبان فى طريقكما فقالا لا بل فى الساحة نبيت » (ع ٢) .

قول لوط للملاكين « يا سيدىّ ميلا إلى بيت عبدكما » إن هذا القول يقيم الدليل على الفضيلة الكامنة فى نفس هذا الرجل الصديق ، فكما سمى هذين سيدين ودعا نفسه عبداً لهما لذلك ينبغى لنا أن نسمع هذه المخاطبة ونتأدب بها .

«فألحَّ عليهما جداً فمالا إليه ودخلا بيته فصنع لهما ضيافة وخبز فطيراً فأكلا » (ع ٣) .

قول الكتاب « فألحَّ عليهما جداً فمالا اليه ودخلا بيته » إذ لما رأى لوط أن الملاكين لمشورته غير موافقين بعد تضرع هذا صفته وخضوع هذا صورته ، لم يفتر عن الاجتهاد ، ولا حدث له ما يحدث لنا نحن فى كثير من الاوقات فإننا إذا ما سألنا إنسانا للحضور عندنا ورأيناه قد تقاعد بنا قليلاً ، للحين نمسك عنه ، إلا أن لوطا لم يسلك هذا المسلك ، فإن سألت وماذا كان منه ؟ اجيبك : انه لما رأى الملاكين مخالفين

وللاستراحة فى الساحة مفضلين ، لم يستجز أن يتوسل اليهما بالكلام فقط بل واجبرهما على الدخول فى بيته واضطرهما واكرههما على ذلك ، فما أجمل الاكراه وأحمد الاضطرار بحيث يكون للربح الروحانى .

وقوله « فصنع لهما ضيافة وخبز فطيرا فأكلا »(١٠٧) أرأيت كيف كانت محبة لوط للضيافة ؟ فإنه لما تمكن من ادخالهما إلى داره للحين أظهر ما توجبه الضيافة وتهيأ لخدمتهما وبالغ فى إكرامهما ظانا انهما شخصان مجتازان .

« وقبلما اضطجعا أحاط بالبيت رجال المدينة رجال سدوم من الحدث إلى الشيخ كل الشعب من أقصاها . فنادوا لوطا وقالوا له اين الرجلان اللذان دخلا اليك الليلة اخرجهما الينا لنعرفهما » (ع ٤ ، ٥) .

علينا ألا نعبر هذه المقولات على الإطلاق ولا نتأمل هذا الأمر وحسب ، وهو هؤلاء الفجرة والوحوش المكرة الاشرار الذين لا يستوجبون عفواً ولا يستحقون صفحاً بل سبيلنا أن نمعن النظر فى هذا الرجل الصديق الفاضل كيف سكن بينهم ، وأظهر من الفضائل العالية ما سطع لمعانه وأشرق نوره وكيف احتمل شرهم ، ولم يهرب من السكنى هناك وكيف استجاز مخاطبتهم ، فإن سألتنى كيف احتمل ذلك وصبر عليه ؟ ! أجيبك : لما تقدمت معرفة الله بفرط شرهم رأى من الرأى أن يسكن هذا الصديق هناك ليكون كالطبيب الفاضل الذى فيه كفاية لمعالجة أمراضهم ، إلا أن الله لما رأى مرضهم ذا عضال ، وأنهم لا يريدون الشفاء ، ولا بعد هذا تخلف عن النظر فى علاجهم وهذه صورة الطبيب الأعظم الذى إذا رأى الآلام قاهرة لم يكفّ عن المجهود رغبة فى أن يشفى المريض بطول المدة والدليل على ذلك أن هذا الصديق ظل متصرفا بين قوم هذه صفتهم ، ولم يفارق الخيرية وجميل النباهة ، وأما هم فلهذا السبب عدموا إلى عفو الله لأنهم ما كفوا عن الرذيلة فقط ، بل وبالغوا فيها .

وقول الكتاب « أحاط بالبيت رجال المدينة رجال سدوم من الحدث إلى الشيخ كل الشعب من اقصاها » فلم تكن الأحداث طالبة هذه الأمور الشنيعة فقط ، بل والشيوخ

---

(١٠٧) يقول القديس أغسطينوس « الإنسان يأكل ليعيش والملاك يأكل ليكون مثل الإنسان ، وهكذا أكل المسيح بعد قيامته لا لاحتياج جسده إلى الطعام بل ليقنع التلاميذ أنه فى جسده حقيقة » .

وكافة الشعب ولم يستحوا من هذا الإقدام الثقيل ولا اخطروا ببالهم تلك العين التى لا تنام ، ولا احتشموا من الصديق ولا شفقوا على هذين المظنونين غريبين النازلين عند الصديق بل وثبوا إلى الفسق من غير خجل ، وبرأس مكشوف كما يقال .

« فخرج اليهم لوط إلى الباب واغلق الباب وراءه » (ع ٦) .

تأمل خوف الصديق على الغريبين وتحصينه لهما والدليل على ذلك أنه لم يغلق الباب وراءه فقط بل ومراقبته لهجوم أهل المدينة .

« وقال لا تفعلوا شرا يا إخوتى » (ع ٧) .

وآهاً لطول أناة هذا الصديق ، يا لفرط اتضاعه ، هذه هى الفضيلة ، انظر كيف انه يدعو هؤلاء الاشرار إخوة تحشما لهم واستعطافا وبعثاً لهم على الابتعاد عن هذا الشروع الدون .

« هوذا لى ابنتان لم تعرفا رجلاً اخرجهما اليكم فافعلوا بهما كما يحسن فى عيونكم واما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئا لانهما قد دخلا تحت ظل سقفى » (ع ٨) .

ما اعظم فضيلة هذا الرجل الصديق ، لأنه أتى فى الضيافة بكل ما شرف ولطف ، فمَنْ ذا الذى يقدر أن يصف فضله كما ينبغى ، هذا الذى استجاز ألا يشفق ولا على ابنتيه إكراما لضيفيه رغبة فى أن ينقذهما من شر أهل سدوم ، أما هذا الرجل الفاضل فقد أسلم ابنتيه لينتشل هذين الضيفين الغريبين المسافرين اللذين لم يكن لهما معرفة بهؤلاء الفجرة الاشرار ، وأما نحن فاذا ما رأينا إخوتنا قد وقعوا تحت قبضة الشيطان ما نستجيز ولا لمخاطبتهم ، ولا نتشاور فى وعظهم بالقول وإختطافهم من الرذيلة وارشادهم إلى الفضيلة ، فاذا كان لوط هذا قد بلغ فضله إلى أنه لم يشفق على ابنتيه مراعاة لضيفيه ، فأى عذر لنا نحن على إخوتنا .

إننى أضرع أن نماثل هذا الرجل الصديق ولا نمتنع من بذل المجهود فى خلاص القريب ولو قاسينا فيه أعظم التعب ، لأن هذا التعب يصير سبباً إلى خلاصنا .

« فقالوا أبعد إلى هناك ثم قالوا جاء هذا الإنسان ليتغرب وهو يحكم حكما . الآن نفعل بك شراً أكثر منهما . فألحّوا على الرجل لوط جداً وتقدموا ليكسروا الباب » (ع ٩) .

قول أهل سدوم للوط « أبعد إلى هناك ثم قالوا جاء هذا الإنسان ليتغرب وهو يحكم حكما الآن نفعل بك شراً أكثر منهما » تأمل كيف أن الصديق يلاطفهم فى الخطاب وهم يغلظون له فى الجواب ، لأنهم انتصبوا إزاءه انتصاب مَنْ قد اسكره الشيطان وحبسه ، وضارعوا المجانين المحاولين إهلاك الطبيب .

وقول الكتاب عن أهل سدوم « فألحّوا على الرجل لوط جداً وتقدموا ليكسروا الباب » انظر هذا الصديق مبارزا لهذا الجمع الكثير مبارزة ذات شهامة وبسالة إذ إنه لما عزم على الخروج اليهم فلسابق معرفته بجنونهم أغلق الباب وراءه ، ولما لم يصغ هؤلاء الأنجاس الأرجاس إلى وعظه ، عنفوا به وحاولوا كسر الباب .

« فمد الرجلان ايديهما وادخلا لوطا اليهما إلى البيت واغلقا الباب . وأما الرجال الذين على باب البيت فضرباهم بالعمى من الصغير إلى الكبير فعجزوا عن أن يجدوا الباب » (ع ١٠ ، ١١) .

قول الكتاب « وأما الرجال الذين على باب البيت فضرباهم بالعمى من الصغير إلى الكبير » أرأيت كيف أن لوطا حظى للحين بالجوائز عن الضيافة ، وكيف قاسى هؤلاء الأشرار من العذاب انكده وأشده ؟ .

وقوله « وأما الرجال الذين على باب البيت فضرباهم بالعمى » وإذ هم يطلبون الباب انحلت أعضاءهم وشملهم عمى النظر رغبة فى أن يعلموا أنه لا فائدة لهم من العيون الجسدية إذا ما اظلمت اللواحظ العقلية .

وقوله « فضرباهم بالعمى من الصغير إلى الكبير فعجزوا عن أن يجدوا الباب » ولما كانت الكافة عن بكرة أبيهم قد اشتهرت بالرذيلة ولم تمتنع شبانهم ولا شيوخهم من هذا الشروع المشين والفعل الذميم لذلك شمل العمى جميعهم .

« وقال الرجلان للوط مَنْ لك ايضا ههنا أصهارك وبنيك وبناتك وكل مَنْ لك فى المدينة أخرِج من المكان » (ع ١٢) .

انظر كيف يجازى الملاكان الصديق عن ضيافته إياهما ويرغبان فى الإنعام عليه بخلاص الجماعة .

« لأننا مهلكان هذا المكان إذ قد عظم صراخهم امام الرب فأرسلنا الرب لنهلكه » (ع ١٣) .

قول الملاكين « لأننا مهلكان هذا المكان » هذا ما قاله داود النبى « الصانع ملائكته رياحاً وخدامه ناراً ملتهبة « (مز ١٠٤ : ٤) .

وقولهما « إذ قد عظم صراخهم » وهذا ما قاله الرب لأب الآباء « ان صراخ سدوم وعمورة قد كثر » (تك ١٨ : ٢٠) .

« فخرج لوط وكلم أصهاره الآخذين بناته وقال قوموا اخرجوا من هذا المكان لأن الرب مهلك المدينة فكان كمازح[١٠٨] فى اعين أصهاره » (ع ١٤) .

قول الكتاب « فخرج لوط وكلم أصهاره الآخذين بناته » فإن قال قائل ان لوطا قال فيما سبق لرجال سدوم « هوذا لى ابنتان لم تعرفا رجلاً » (ع ٨) ، فكيف يقول هنا « وكلم أصهاره الآخذين بناته » ؟ ! أجيبه : لا تظن أيها المرء أن هذا الأمر يناقض ما قاله لوط اولاً ، إذ إنه من المألوف عند القدماء أن يسمحوا للخطيب أن يسكن مع الخطيبة ويقيما مع الوالدين ، فلما كانت خطبة ابنتى لوط قد تمت ، لذلك دعاهما صهرين له إذ ذكر الكتاب « وكلم اصهاره الآخذين بناته » لأنهما قد كانا اخذا بهما بالنية .

وقوله عن لوط « فكان كمازح فى أعين أصهاره » تأمل كيف أن هذين الخطيبين من تلك الخميرة الشريرة ، ولذلك أراد الله أن يعتق الصديق منهما فلم يفسح باجتماعهما مع ابنتى الصديق لكنه اباده‍ما مع أولئك الاشرار ليتخلص الصديق مع ابنتيه من القرب منهما .

وقوله « فكان كمازح فى أعين أصهاره » لما سمعا من الصديق هذا الوعيد الشديد فاعتقدا فيما قاله أنه هذيان ، إلا أن الصديق بذل المجهود رغبة فى استخلاصهما من العذاب وانقاذهما من العقاب ، إذ كانا قد خطبا ابنتيه ، أما هما فما احفلا بذلك بل اقاما على حالهما ، وقد علما بعد ذلك علما لا يشوبه شك أن رفضهما ما أشار به الصديق على غير ما ينبغى .

---

(١٠٨) المزاح : الهزل والمداعبة .

« ولما طلع الفجر كان الملاكان يُعجّلان لوطا قائلين قم خذ امرأتك وابنتيك الموجودتين لئلا تهلك بإثم المدينة » (ع ١٥) .

أى لا تكسل لأن الهلاك سيحل بهؤلاء ، فانجُ بنفسك وبامرأتك وابنتيك ، أما خطيبيهما اللذان لم يهتما بما أشرت به فليسا ببعيدين عن مشاركة رجال سدوم ، فلا تبطئ لئلا تساهم هؤلاء الاشرار فى هذا البلاء .

« ولما توانى أمسك الرجلان بيده وبيد امرأته وبيد ابنتيه لشفقة الرب عليه واخرجاه ووضعاه خارج المدينة » (ع ١٦) .

قول الكتاب « ولما توانى أمسك الرجلان بيده وبيد امرأته وبيد ابنتيه » وبذلك قويا سلامتهم وشدا من عزمهم خوفا من أن تخور قوتهم لفرط ما ألمّ بهم من الخوف .

« وكان لما اخرجاهم إلى خارج أنه قال اهرب لحياتك لا تنظر إلى ورائك ولا تقف فى كل الدائرة اهرب إلى الجبل لئلا تهلك » (ع ١٧) .

أى لا تلتفت إلى وراء ، ولا ترغب معاينة ما يحل بهؤلاء الاشرار ، بل اجتهد أن تكون بعيداً لتتمكن من النجاة من العقاب الواقع عليهم .

« فقال لهما لوط لا يا سيد . هوذا عبدك قد وجد نعمة فى عينيك وعظمت لطفك الذى صنعت إلىّ باستبقاء نفسى وانا لا اقدر ان اهرب إلى الجبل لعل الشر يدركنى فأموت . هوذا المدينة هذه قريبة للهرب اليها وهى صغيرة أهرب إلى هناك أليست هى صغيرة فتحيا نفسى » (ع ١٨ ـ ٢٠) .

ولما خشى الصديق ألا يقدر على الوصول إلى الموضع الذى حدداه له ، إذكان لا طاقة له على إدراك الجبل ، فلكى لا تنله الشرور فيموت ، لذلك نظر إلى المدينة القريبة اليه ليفر اليها ، وإن كانت صغيرة ففيها يخلص وتحيا نفسه .

« فقال له إنى قد رفعت وجهك فى هذا الأمر أيضا أن لا اقلب المدينة التى تكلمت عنها . اسرع اهرب إلى هناك لانى لا استطيع أن افعل شيئا حتى تجئ إلى هناك لذلك دعى اسم المدينة صوغر » [١٠٩] **(ع ٢١ ، ٢٢) .**

---

(١٠٩) صوغر : اسم سامى معناه « صِغرَ » وهى احدى مدن الدائرة ويبدو أنها كانت أصغرها .

أى لوجاهتك عندى قد قبلت توسلك وسابلغ لك غرضك واشفق على هذه المدينة من أجلك فسارع إذاً بالدخول إلى هناك لنجاتك .

« واذ أشرقت الشمس على الارض دخل لوط إلى صوغر فأمطر . الرب على سدوم وعمورة كبريتا وناراً من عند الرب من السماء . وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض » (ع ٢٣ ـ ٢٥) .

أى أن الرب جلب العقوبة ، ولم يبد المدن فقط وكل ما حولها من الساكنين ، بل واستأصل النبات الذى نشأ من الأرض ، إذ إنه لما كان ساكنوها قد اثمروا اثماراً ردية لذلك أفسد هذا الثمر لتكون تذكرة دائمة للأجيال القادمة فيما بعد .

أرأيت مقدار الفضيلة ومنزلة الرذيلة ، وكيف نجا الصديق وعوقب هؤلاء العقاب الملائم لشرهم ، وكما أن الرجل الفاضل خلص ابنتيه ، هكذا لفرط قبائحهم لم يهلكوا فقط بل واهلكوا الأرض .

« ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح » (ع ٢٦) .

لما سمعت امرأة لوط الملاكين راسمين للصديق ألا يلتفت إلى وراء بل أن يبعد بغاية جهده ، فلم تطع بل خالفت ، لذلك قوصصت عن فشلها .

« وبكر إبراهيم فى الغد إلى المكان الذى وقف فيه أمام الرب . وتطلع نحو سدوم وعمورة ونحو كل أرض الدائرة ونظر وإذا دخان الأرض يصعد كدخان الأتون » (ع ٢٧ ، ٢٨) .

لقد اشتهى أب الآباء أن يعلم شيئا من أمر لوط إذ كانت هذه العادة مألوفة عند القديسين التى هى حسن الوداد والحنو .

« وحدث لما اخرب الله مدن الدائرة ان الله ذكر إبراهيم وارسل لوطا من وسط الانقلاب حين قلب المدن التى سكن فيها لوط » (ع ٢٩) .

فإن سألت عن معنى قول الكتاب « أن الله ذكر إبراهيم وأرسل لوطا من وسط الانقلاب » ؟ اجيبك : أى أن الله ذكر تضرع إبراهيم الذى قاله « أفتهلك البار مع الأثيم » (تك ١٨ : ٢٣) .

وان سأل سائل فقال : هل خلص لوط لأجل توسل أب الآباء أو لأجل زكاته هو فى نفسه ؟ أجيبه : خلص لوط لأجل زكاته هو فى نفسه ، ولأجل تضرع أب الآباء .

فإذا ما عرفنا هذا الأمر فينبغى لنا أن نلجأ إلى شفاعات القديسين ، ونضرع اليهم أن يسألوا فينا ، إلا أنه يجب علينا ألا نعتمد على سؤالهم ، فقط نسوس نحن ذواتنا أحسن سياسة وننتقل إلى أجمل السبل لنجعل موضعاً للتشفع فينا .

ينبغى لنا إذاً ألا نضجع بل نبادر أولاً بالإهتمام بنفوسنا ونرحض درن هفواتنا ، ثم نلجأ بعد ذلك إلى تشفع القديسين ، فإننا إذا ما تيقظنا وانتهضنا وتضرعنا بانفسنا لننتفع منفعة عظيمة ، والدليل على ذلك أن ربنا محب البشر لا يصغى إلى تشفع غيرنا بنا كإصغائه إلى تشفعنا نحن بنفوسنا .

« وصعد لوط من صوغر وسكن فى الجبل وابنتاه معه لأنه خاف ان يسكن فى صوغر فسكن فى المغارة هو وابنتاه » (ع ٣٠) .

لما كان خوف العقاب بأهل سدوم متزايداً مع لوط بَعُد عن المكان وسكن فى الجبل مع ابنتيه وعاشوا فى سكون .

« وقالت البكر للصغيرة ابونا قد شاخ وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض . هلم نسقى أبانا خمراً ونضطجع معه فنحيى من أبينا نسلا » (ع ٣١ ، ٣٢) .

ينبغى لنا أن نسمع ما يتضمنه الكتاب الإلهى بغاية الخشوع ، فليس ما جاء فيه عبثا بل كل ما فيه نافع وملائم وإن كنا نحن نجهل ذلك ، فإن كنا نحاول أن نوفى علل بعض ما فيه بحسب مقدرتنا ، إلا أنه يحتوى على كل كنز غامض على جماعة وعسر الفهم عندهم .

وتأمل الكتاب الإلهى كيف أنه يوضح كل ما جاء إيضاحاً شافياً ويفيدنا غرض لوط وابنتيه ويعتذر عنهم غاية الاعتذار .

فإن قلت وكيف يعتذر الكتاب عن البنتين ؟ أجيبك : أنه يقول « وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض . هلم نسقى أبانا خمراً ونضطجع معه فنحيى من أبينا نسلاً » فانظر المعنى واكشف عن الغرض واعفهما من كل لائمة وزلة ، فإنهما ظنتا بأن الهلاك قد شمل الكل ، وأنه لم يبق ولا واحد من الناس ، ومع هذا فنظرتا إلى كِبر ابيهما وتشاورتا فى الاجتماع معه خوفا من

أن يباد الجنس البشرى ويضيع اسمهم ، فقد كان القدماء يجتهدون فى إنماء الجنس رغبة فى بقاء الخلق .

« فسقتا اباهما خمراً فى تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع ابيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها . وحدث فى الغد أن البكر قالت للصغيرة انى قد اضطجعت البارحة مع أبى . نسقيه خمراً الليلة ايضا فادخلى اضطجعى معه فنحيى من ابينا نسلاً . فسقتا اباهما خمراً فى تلك الليلة ايضا وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها » (ع ٣٣ ـ ٣٥).

أرأيت كيف أن الكتاب الإلهى يعتذر عن لوط ليس دفعة واحدة بل اثنتين عندما اضطجعتا معه ابنتيه إذ يقول عن اضطجاعه مع البكر « واضطجعت مع ابيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها » ويقول عن اضطجاعه مع الصغيرة « وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها » .

ويلاحظ أن ابنتا لوط سقتا أبيهما خمراً لأنهما لم تقدرا على اقناعه أن يتقبل هذا الأمر ويجيب اليه .

وعلى ما أظن أن لوطا لم يشعر بشىء البته عند مضاجعته لابنتيه ليكون بمعزل عن اللائمة وبريئا من الذنب إذ إن الذنوب التى توجب لنا العقاب وتسبب لنا العذاب هى التى اخطأناها طوعاً بمعرفة ، إذ إن الكتاب يشهد للصديق بأنه لم يعلم ما جرى .

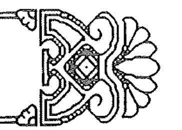
فلا يجسر احد إذاً على إيجاب القضية على الصديق وابنتيه ، وأن لمن الجهل المتزايد والجنون المتعاظم أن يوجب القضية الممتلئون من المآثم على مَنْ قد أعفاه الكتاب الإلهى من كل لائمة وبرأه من كل ذنب وجناية وليس هذا فحسب لكنه اعتذر عنه غاية الاعتذار المزكى .

«فحبلت ابنتا لوط من ابيهما . فولدت البكر إبنا ودعت اسمه موآب [١١٠] وهو أبو الموآبين إلى اليوم . والصغيرة ايضا ولدت ابنا ودعت اسمه بَنْ عَمّى وهو أبو بنى عمون إلى اليوم » (ع ٣٦ ـ ٣٨) .

(١١٠) موآب : اسم سامى ربما كان معناه « مَنْ أبوه ؟ » .

أرأيت كيف أن ما حدث لم يكن عن رغبة فى فسق ، إذ إنهما أسمتا المولودَين وذكرتا ما كان ، فكأنهما جعلتا ذكرى ما جرى فى اسمـاء الصبيين شبيها فى نقر حجر ، وتنبأتا أنه سيكون منهما أمما وأن جنسيهما يتوافر ويتكاثر ، والدليل على ذلك أن البكر تقول عن مولودها « وهو أبو الموآبيين » والصغيرة تقول عن مولودها انه يصير « أبو بنى عمون » .





الأصحاح العشرون

« وانتــقل ابراهيم من هناك إلى ارض الجنوب وسكن بين قــادش[111] وشور[112] وتغرب فى جرار[113]» (ع ١) .

قول الكتاب « وانتقل ابراهيم من هناك » ، فان سألت من أين انتقل ابراهيم ؟ أجيبك : من المكان الذى كان فيه ساكنا حيث أُهِلَ لقبول رب الكل مع الملاكين .

وقوله « إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرب فى جرار » تأمل سيرة الأبرار وكيف هى بمعزل عن الاستكثار ، وكيف أنهم ينتقلون بسهولة ويدبرون أمرهم تدبير الفلاحين والضيوف ، فهم تارة يقيمون خيامهم هنا ومرة هناك ، كأنهم غرباء ليس كما نفعل نحن إذ نسكن الموضع الغريب كأنه وطن وننشئ فيه منازل حسنة وطرقات وحقول وحمامات وغير ذلك مما يكثر حصره .

تأمل الصديق ذا الثروة الكثيرة بالعبيد والرعاة لم يستقر فى مكان ، بل تارة نصب خيامه فى بلوطات ممرا وطوراً جاء إلى مصر ، وها هو الآن يسكن فى جرار ، صابراً على هذه الأمور ، مظهراً جميل الوفاء لربه فى جميعها .

« وقال ابراهيم عن سارة امرأته هى أختى فأرسل أبيمالك[114] ملك جرار وأخذ سارة » (ع ٢) .

قول الكتاب « وقال ابراهيم عن سارة امرأته هى أختى » خوفا من أن يقتله رجال المدينة من أجلها .

وقوله « فأرسل أبيمالك ملك جرار وأخذ سارة » امعن النظر أيها الخليل فيما كان الصديق صابر عليه من انزعاج الفكر حتى نظر امرأته مقودة وهو لا يقدر على النصرة

---

(١١١) قادش : اسم سامى معناه « مقدس » .

(١١٢) شِورِ : اسم عبرى معناه « سور » وهو موضع فى البرية جنوب فلسطين » .

(١١٣) جـرار : اسم عبرى معناه « جرة » وهى آنية خزفية ، وهى مدينة قديمة شهيرة فى جنوب فلسطين على بعد ثمانية أميال جنوبى شرقى غزة .

(١١٤) أبيمالك : اسم عبرى معناه « أبو ملك » أو « الأب ملك » .

والمساعدة إذ احتمل كل ذلك صامتاً لعلمه أن الرب لا يهمله لكنه يبادر إلى مساندته ويسارع إلى معونته .

« فجاء الله إلى أبيمالك فى حُلم الليل وقال ها أنت ميت من أجل المرأة التى اخذتها فانها متزوجة بعل » (ع ٣) .

تأمل محبة الله للبشر ، فإنه لما لاحظ الصديق صابراً على أخذ سارة صبر الأبطال خوفاً من الموت وأن أبيمالك قد اجتازها على انها اخت الصديق ، حنيئذ رفع الرب من قدر الصديق وأعلا صيته وانقذ سارة من الهوان ومنع الملك من الشر .

« ولكن لم يكن أبيمالك قد اقترب اليها فقال يا سيد أأمة بارة تقتل . ألم يقل هو لى انها اختى وهى ايضا نفسها قالت هو أخى بسلامة قلبى ونقاوة يدىّ فعلت هذا » (ع ٤ ، ٥) .

أوضح الكتاب الإلهى أن أبيمالك لم يقترب من سارة لقوله : « يا سيد أأمة بارة تُقتل » وكأن أبيمالك يقول : ألعلنى فعلت ما فعلت على أساس اننى علمت بأنها امرأته ، أترانى رغبت ظلم هذا الغريب ؟ ألعلنى أخذتها على أنها امرأته ؟ إنما فعلت ما فعلت متصوراً اننى اخذت أخته ، وتخيلت أننى مُكَرِّم لها وله ، أتبيد أمة بارة جاهلة ؟ .

وقول أبيمالك عن ابراهيم وسارة « ألم يقل هو لى انها أختى وهى أيضا نفسها قالت هو أخى » تأمل كيف كان إبراهيم وسارة متوافقين متآلفين ، لأنه عندما قال هو هذا الأمر وافقته هى عليه .

وقول أبيمالك للرب « بسلامة قلبى ونقاوة يدى فعلت هذا » وكأنه يقول : لم أصنع ما صنعت إلا بقلب طاهر ، ويدين بارتين .

« فقال له الله فى الحلم انا ايضاً علمت انك بسلامة قلبك فعلت هذا وانا ايضاً امسكتك عن ان تخطئ إلىّ لذلك لم ادعك تمسها » (ع ٦) .

انظر مقدار تنازل رب الكل وما أشهره من صلاحه بسائر الأمور ، وكأنه يقول لأبيمالك : أنا قد علمت أنك فعلت هذا بقلب نقى وعرفت انهما كليهما عملا هذا العمل إذ انخدعت بقولهما ففعلت ما فعلت ، فلذلك أشفقت عليك أن تخطئ إلىّ ، وهذان عبدان لى وأنا شديد العناية بهما بما يصير اليهما إن كان خيراً أم شراً ، فلذلك

لم اتركك أن تدنو منها وهذا لعظيم مراعاتي إياهما ولعلمي أن ما عزمت عليه من الإهانة لها هو عن جهل وقلة خبرة .

« فالآن رد امرأة الرجل فإنه نبي فيصلي لأجلك فتحيا وان كنت لست تردها فاعلم انك موتا تموت انت وكل مَنْ لك » (ع ٧) .

قول الرب لأبيمالك « فالآن رد امرأة الرجل فإنه نبي فيصلي لأجلك فتحيا » تأمل كيف يعلن الرب فضيلة الصديق بوصفه إياه بالنبوة ، فكأنه يجعل الملك عبداً له لأنه يقول « فيصلي لأجلك فتحيا » .

وقوله « وان كنت لست تردها فاعلم انكِ موتا تموت أنتِ وكل مَنْ لك » لقد تناهى الرب في إخافة أبيمالك فأنذره بوفود ما عَظُم من العذاب وَجسم من العقاب .

« فبكر أبيمالك في الغد ودعا جميع عبيده وتكلم بكل هذا الكلام في مسامعهم فخاف الرجال جداً » (ع ٨) .

انظر كيف صار أبيمالك منادياً بفضيلة الصديق ومُشهراً إياه في الكافة ، والدليل على ذلك أنه استدعى جميع أصحابه وعبيده وشرح لهم كلَ ما أوضحه له الرب رغبة في أن يعلموا جميل نية الرب فيه وما استحقه من المراعاة .

أرأيت كيف أن تنقل الصديق لم يكن عبثا والدليل على ذلك أنه لو كان قد أقام في خيامه الأول ما كان كل مَنْ في جرار عرفوا مقدار ما له من الدالة عند الله .

« ثم دعا أبيمالك إبراهيم وقال له ماذا فعلت بنا وبماذا أخطأت اليك حتى جلبت عليّ وعلى مملكتي خطية عظيمة اعمالاً لا تعمل عملت بي . وقال أبيمالك لإبراهيم ماذا رأيت حتى عملت هذا الشيء » (ع ٩ ، ١٠) .

امعن النظر أيها الخليل فِي مقدار الجلالة التي أتى فيها الصديق إلى الملك ، ذلك الذي كان منذ قليل عندهم مهاناً.

« فقال ابراهيم إني قلت ليس في هذا الموضع خوف الله البتة فيقتلونني لأجل امرأتي » (ع ١١) .

انظر كيف يؤنبهم ويعلمهم معا بهذه الألفاظ القليلة أنه ينبغي على المرء أن يجيل

فى خاطره ذكر إله الكل فلا يفعل شيئا من الشرور ، ويراقب تلك العين التى لا تنام .

« وبالحقيقة ايضا هى اختى ابنة أبى غير انها ليست ابنة أمى . فصارت لى زوجة » (ع ١٢) .

وكأن أب الآباء يقول هنا : لا تظنوا اننى قد كذبتكم لأنها أختى من أبى لا من أمى ولدت لتكون لى زوجة .

تأمل فرط حرص الصديق على إقامة الدليل فى هذا الأمر .

« وحدث لما اتاهنى الله من بيت ابى انى قلت لها هذا معروفك الذى تصنعين إلىّ فى كل مكان نأتى اليه قولى عنى هو اخى » (ع ١٣) .

قول ابراهيم « وحدث لما اتاهنى الله من بيت أبى » تمعن هنا حكمة الصديق وكيف أنه يفيدهم على سبيل الشرح أنه خصيص بالله منذ الابتداء ، وأن الله قاده من وطنه إلى هذا المكان ، ليعلم الملك انه ممَنّ له عند الله دالة .

« فأخذ أبيمالك غنماً وبقراً وعبيداً واماء واعطاها لابراهيم ورد اليه سارة امرأته » (ع ١٤) .

أشاهدت أيها الخليل لطف حكمة الله ، والدليل على ذلك ان الذى كان خائفاً من الموت باذلاً المجهود فى النجاة منه ، ليس أنه خلص من الموت فقط بل واُهِل لدالة كبرى ومنزلة ليست بصغرى وارتفع شأنه وعظم صيته ؟ .

« وقال أبيمالك هوذا أرضى قدامك اسكن فى ما حَسُنَ فى عينيك » (ع ١٥) .

انظر كيف أن الملك يخدم الصديق ، فإنه لم يجّل قدره فقط بل وأمكنه من التسلط على السُكنى فى ما يشاء من تلك الأرض .

« وقال لسارة انى قد اعطيت اخاك الفاً من الفضة [١١٥] هل هو لك غطاء عين من جهة كل ما عندك وعند كل واحد فأُنْصِفْتِ » (ع ١٦) .

---

(١١٥) الألف من الفضة : ألف شاقل ، والشاقل يقدر بنحو خمسة عشر جراماً .

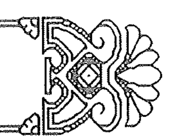
قول أبيمالك لسارة « إنى قد أعطيت اخاك الفا من الفضة » انظر كيف أن أبيمالك لما قَبِل تعليم الصديق وصدّق قوله دعاها أخاها .

وقوله « انى قد أعطيت اخاك الفا من الفضة ها هو لك » اى أننى دفعت تلك الفضة اليه عوضا عن إهانتى مكانك وأخذى إياك إلى دارى جهلاً أنك امرأته .

« فصلى إبراهيم إلى الله فشفى الله أبيمالك وامرأته وجواريه فولدن . لأن الرب كان قد اغلق كل رحم لبيت أبيمالك بسبب سارة امرأة إبراهيم » . (ع ١٧ ، ١٨) .

تأمل كيف أن الله عندما أراد إعلاء شأن الصديق ورفع مكانته تفضل على الملك وعلى كل مَنْ فى قصره بالشفاء .





الأصحاح الحادى والعشرون

« وافتقد الرب سارة كما قال وفعل الرب كما تكلم . فحبلت سارة وولدت لابراهيم ابناً فى شيخوخته فى الوقت الذى تكلم الله عنه » (ع ١ ، ٢) .

قول الكتاب « وافتقد الرب سارة كما قال وفعل الرب كما تكلم » لاحظ أيها الخليل كيف أن الصديق بعد زوال الكوارث نال رأس الخيرات ، وهو ظهور الوعد الذى وعده به الله إلى الفعل .

وان قال قائل ما معنى قوله « فى الوقت الذى تكلم الله عنه » ؟ أى حسب ما وعد الله ابراهيم عندما كان ضيفه مع الملاكين عند « بلوطات ممرا وهو جالس فى باب الخيمة » (تك ١٨ : ١) إذ قال الرب « فى الميعاد أرجع اليك نحو زمان الحيوة ويكون لسارة ابن » (تك ١٨ : ١٤) ؛ هذا هو الذى ظهر إلى الفعل ، لقد شاهد ابراهيم ما هو غريب على الطبيعة قد تم لا بحسب لوازم البشرية بل بحسب تفضل الله .

« ودعا ابراهيم اسم ابنه المولود له الذى ولدته سارة اسحق[116] » (ع ٣) .

لم يقل الكتاب ودعا ابراهيم ابنه المولود له اسحق فحسب بل أضاف إلى ذلك « الذى ولدته سارة » أى تلك الهرمة التى بَعُدَتْ منها الولادة .

« وختن ابراهيم اسحق ابنه وهو ابن ثمانية أيام كما أمره الله » (ع ٤) .

ختن ابراهيم اسحق لأن الله كان قد أمره أن يختن المولودين فى اليوم الثامن « ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر فى أجيالكم » (تك ١٧ : ١٢) .

« وكان ابراهيم ابن مئة سنة حين ولد له اسحق ابنه » (ع ٥) .

ولكى نعلم أن قوة الله لا توصف وأن المستحيل عند الناس ممكن عنده ، فلهذا دلنا الكتاب الالهى على الوقت الذى تمت فيه الولادة فقال « وكان ابراهيم ابن مئة سنة » .

« وقالت سارة قد صنع إلىّ الله ضحكا كل مَنْ يسمع يضحك لى » (ع ٦) .

---

(١١٦) اسحق : اسم عبرى معناه « يضحك » .

إن قال قائل : ما معنى قول سارة « قد صنع إليّ الله ضحكا » ؟ أى أن المولود يبعث الكل على الاستعجاب ، إذا ما علموا انها صارت أماً فجأة تلك التى لا فرق بينها وبين الأموات وولدت ولداً مع ميتوتة الرحم .

« وقالت مَنْ قال لابراهيم سارة تُرضع بنين حتى ولدت إبناً فى شيخوخته . فكبر الولد وفُطِم وصنع ابراهيم وليمة عظيمة يوم فطام اسحق » (ع ٧ ، ٨) .

قول سارة « مَنْ قال لابراهيم سارة تُرضع بنين » وكأنها تقول : ما هذا الأمر الطريف الذى فوّض إليّ وولدت فى شيخوختى ، فى زمن فيه الكفاية أن يمنع عن الولادة، إلا أن الرب استأصل هذه الموانع كلها بالكمال وتفضل عليّ بالولادة ودرّ اللبن.

« ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذى ولدته لابراهيم يمزح[١١٧] . فقالت لابراهيم اُطرد هذه الجارية وابنها لان ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى اسحق » (ع ٩ ، ١٠) .

تأمل أيها الخليل سارة هنا ، وكيف انها ما تطيق دالة اسمعيل الزائدة ، ولا الصبر على تصرفه مع ابنها .

وقول سارة لابراهيم « اُطرد هذه الجارية وابنها » وكما ألجأتها من قبل إلى الهروب هكذا والآن أيضاً إذ أرادت أن تمنع اسمعيل من الجرأة مع ابنها من بداية الأمر .

وقولها « اُطرد هذه الجارية وابنها » لعلمها أن أب الآباء قد كبر ولئلا يموت فجأة ويصير اسمعيل شريكا لاسحق فى الميراث لأنه ابن لأب الآباء .

« فقبح الكلام جداً فى عينى ابراهيم لسبب ابنه . فقال الله لابراهيم لا يَقبُح فى عينيك من اجل الغلام ومن أجل جاريتك فى كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها لأنه باسحق يدعى لك نسل . وابن الجارية ايضا سأجعله اُمة لأنه نسلك » (ع ١١ - ١٣) .

تأمل هنا تنازل الله المحب للبشر ، إذ إنه لما رأى ما قد حل بسارة من شدة تكرهها بتساوى الولدين فى الكرامة ، وأن أب الآباء لا يستسهل إخراج اسمعيل

---

(١١٧) المزاح : الهزل والمداعبة .

والجارية ، لذلك تقدم الله على ما يقتضيه صلاحه فوطد المودة بينهما والائتلاف وأوصى ابراهيم ألا يستثقل ما قيل فى أمر ابنه وجاريته وأن يسمع مِنْ سارة كل ما تقوله له فى أمر اسمعيل وهاجر وأن يقبله منها ، فلا يجوز أن يحزن مَنْ قد بالغت له فى إخلاص المودة وأسلمت نفسها مرة ومرتين رغبة فى إنقاذه من الموت ، وصارت سببا فى رفع شأنه واعلاء مكانه ، فهى أولاً جاءت له من مصر بثروة كثيرة وثانياً أهلته لإجلال عظيم وإكرام جسيم من أبيمالك ، فلا يفعل إذاً ما يناقض رأيها فإن الأمور ستجرى على ما يصلح ، إذ إن المولود منها هو المدعو نسله وهو الوارث له ، أما ابن الجارية فسينميه ويجعله جمع كثير لأجل أنه نسله أيضا .

« فبكر ابراهيم صباحا وأخذ خبزا وقربة ماء واعطاهما لهاجر واضعا إياهما على كتفيها والولد وصرفها فمضت وتاهت فى برية بئر سبع » (ع ١٤) .

تأمل حُسن وفاء الصديق وكيف أنه يُظهر فى جميع الأمور طاعته لله ، فإنه لما سمع سارة تقول « اطرد هذه الجارية وابنها » (ع ١٠) تبرم بذلك لمحبته لاسمعيل ، ولكن لما تقدم الرب اليه بقوله « فى كل ما تقوله لك سارة اسمع لقولها » (ع ١٢) حينئذ سارع ولم يتباطئ إذ يقول الكتاب هنا : « فبكر ابراهيم صباحا وأخذ خبزا وقربة ماء واعطاهما لهاجر واضعا اياهما على كتفيها والولد وصرفها » .

« ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الاشجار . ومضت وجلست مقابله بعيداً نحو رمية قوس لانها قالت لا انظر موت الولد فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت . فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها مالك يا هاجر لا تخافى لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو . قومى احملى الغلام وشدى يدك به لأنى سأجعله أمة عظيمة » (ع ١٥ ـ ١٨) .

إن الله المحب للبشر ، المراعى له ، المهتم بنا اكثر من الأم والأب قد سمع صوت اسمعيل من الموضع الذى كان فيه وترآف عليه ، وتعطف على هاجر ، ورق لمصابها ، ولم يسمح أن ينالها إلا مضض الوحدة ومعاناة المهمة فقط ، وللحين بادر للمساندة والمساعدة .

وآها لمحبة الرب للبشر إذ إنه لم يهمل هاجر لأجل أنها جارية ، لكنه دعاها لما سبق له من الوعد مع أب الآباء بأن اسمعيل هذا من نسله .

« وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام » (ع ١٩) .

قول الكتاب عن هاجر « وفتح الله عينيها » لا لأنها كانت قبل ذلك لا تستطيع فتح عينيها ، بل ان عينيها كانتا مفتوحتين ، ولم تحصل منهما منفعة قبل هذا الاشراق السماوى ، إذ إن الرب لما أراد اظهار العناية بها حينئذ قال عنها الكتاب « وفتح الله عينيها » أى أنهض عقلها وأطلعها على معرفة ما كانت تجهله ، وهداها الى أن أبصرت الموضع الذى كان به بئر الماء ، فمضت وملأت القربة وسقت ابنها ، وهذا من نعم الله وجوده وكرمه عليها .

« وكان الله مع الغلام فكبر وسكن فى البرية وكان ينمو رامى قوس . وسكن فى برية فاران [١١٨] وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر » (ع ٢٠ ، ٢١) .

إن الله يرعانا ويشملنا ويعضدنا سواء كنا فى السراء أو فى الضراء ، فإن نحن استعطفنا الله فلن يستولى علينا أمر ، بل نصير أسعد الكل .

« وحدث فى ذلك الزمان أن أبيمالك وفيكول[١١٩] رئيس جيشه كلما ابراهيم قائلين الله معك فى كل ما انت صانع . فالآن احلف لى بالله ههنا انك لا تغدر بى ولا بنسلى وذريتى كالمعروف الذى صنعت اليك تصنع إلىّ وإلى الأرض التى تغربت فيها . فقال ابراهيم انا احلف . وعاتب ابراهيم أبيمالك لسبب بئر الماء التى اغتصبها عبيد أبيمالك . فقال أبيمالك لم اعلم مَنْ فعل هذا الأمر انت لم تخبرنى ولا انا سمعت سوى اليوم . فأخذ ابراهيم غنما وبقراً واعطى أبيمالك فقطعا كلاهما ميثاقا . واقام ابراهيم سبع نعاج من الغنم وحدها . فقال أبيمالك لابراهيم ما هى هذه السبع النعاج التى اقمتها وحدها . فقال انك سبع نعاج تأخذ من يدى لكى تكون لى شهادة بأنى حفرت هذه البئر . لذلك دعا ذلك الموضع بئر سبع لانهما هناك حلفا كلاهما . فقطعا

---

(١١٨) برية فاران : تقع فى جنوب يهوذا وشرق برية بئر سبع وشور .

(١١٩) فيكول : ربما كان اسمه مصريا معناه « ليكى » أى من ليكية فى آسيا الصغرى .

ميثاقا فى بئر سبع ثم قام أيمالك وفيكول رئيس جيشه ورجعا إلى ارض الفلسطينيين . وغرس ابراهيم اثلا[١٢٠] في بئر سبع ودعا هناك باسم الرب الإله السرمدى . وتغرب ابراهيم فى أرض الفلسطينيين اياماً كثيرة » (ع ٢٢ - ٣٤) [١٢١] .



(١٢٠) الاثل : شجر يشبه شجر السرو ، ولكنه أخشن ورقاً .

(١٢١) عفوا عزيزى القارئ ، لم أجد شرحا لهذه الاعداد ، لا فى هذه المخطوطة ولا فى المخطوطات التالية : رقمى ١ ، ٣٥٠ لاهوت بمكتبة البطريركية ، رقم ٢١٨ بمكتبة المتحف القبطى ، رقم ٨٩ بمكتبة الآباء الفرنسيسكان بالقاهرة .



الأصحاح الثانى والعشرون

« وحدث بعد هذه الأمور ان الله امتحن ابراهيم فقال له يا ابراهيم فقال هانذا » (ع ١) .

قول الكتاب « وحدث بعد هذه الأمور » أى بعد هذه البشائر ، وبعد قول الله لابراهيم « لانه باسحق يدعى لك نسل » (تك ٢١ : ١٢) .

وقوله « أن الله امتحن ابراهيم » ، فإن قال قائل : ما معنى « امتحن » ؟ أجيبه : ان الله لم يمتحنه على سبيل الجهل بالحال بل رغبة لأن يتعلم أهل ذلك العصر ومَنْ يأتى بعدهم ويشابهوا أب الآباء فى محبته للرب وطاعته لأوامره .

« فقال خذ ابنك وحيدك الذى تحبه اسحق واذهب إلى أرض المُرِيَّا واصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى اقول لك » (ع ٢) .

قول الله لابراهيم « خذ ابنك وحيدك الذى تحبه اسحق » ان هذا الأمر جسيم ويفوق الطبيعة البشرية ، انظر كيف أن الله بهذه المخاطبة يحرك الصديق على الالتهاب بنار الشوق والمودة لابنه غاية التحريك .

وقوله « خذ ابنك وحيدك الذى تحبه اسحق » إن كل واحدة من هذه الكلمات لتكفى فى تحطيم قلب الصديق ، لأنه لم يقل خذ اسحق على الاطلاق ، بل أضاف إلى ذلك « ابنك وحيدك الذى تحبه » أى الذى أنت مغرم به وتحبه ، والذى ترجو أن يكون لك خلفاً ، والذى بشرتك بأن نسلك يكون منه ، ويتكاثر نسلك إلى أن يساوى كثرة النجوم ، هذا الذى هذه حاله خذه وامض وقدمه لى محرقة

« فبكر ابراهيم صباحاً وشدّ على حماره وأخذ اثنين من غلمانه معه واسحق ابنه وشقق حطباً لمحرقة وقام وذهب إلى الموضع الذى قال له الله » (ع ٣) .

عندما سمع ابراهيم من الرب أن يأخذ ابنه ليقدمه محرقة لم يتزعزع فكره ولا انقسم خاطره ، ولا استغرب هذا الأمر ، ولا قال فى نفسه ما هذا الشيء ، الذى انعم عليّ بما لم اتوقعه ، وأحيا رحم سارة بعد ميتوتته إحساناً وتفضلاً ووهب لنا نسلاً ، فبعد أن تربى الولد وترعرع يتقدم إلى أن نذبحه ونقدمه محرقة ؟! والقائل لى قبل قليل بابنك يدعى لك نسل ، يأمرنى الآن المضاد ؟! فكيف تظهر أوامره إلى الفعل ؟! كيف يمكن أن تنشأ

الاغصان إذا ما قُطع الأصل ؟! وكيف تثمر الشجرة إذا ما قطعت ؟ أو كيف تتدفق العين بالماء إذا ما يبست ؟ فكون هذا لا يمكن بحسب المألوف عند الطبيعة البشرية ، أما إذا شاء الله فكل هذا ممكن .

وهذه الأمور كلها لم يخطرها الصديق بباله و لكنه طرح سائر الظنون البشرية ، وحرص على شيءٍ واحد كالعبد المنصوح ، وهو الطاعة لما رسمه له سيده ، فوثب إلى إتمام ذلك وثوب مَنْ صار خارجاً عن الطبيعة البشرية .

« وفي اليوم الثالث رفع إبراهيم عينيه وابصر الموضع من بعيد » (ع ٤) .

امعن النظر فيما كان الصديق يقاسيه ويعانيه فى الثلاث ليال إذا ما جال فى خاطره أنه عازم على ذبح حبيبه ومهجة قلبه بيديه بدون أن يطالع أحداً على ذلك .

وتأمل حكمة الصديق ، وذلك أنه لما شعر بجسامة الأمر لم يستجز أن يعلم به أحداً لا لغلاميه ولا لابنه اسحق بل كان هو وحده يجاهد هذه المجاهدة وصَبَرَ صَبْرّ الأبطال.

« فقال ابراهيم لغلاميه اجلسا أنتما ههنا مع الحمار وأما أنا والغلام فنذهب إلى هناك ونسجد ثم نرجع اليكما » (ع ٥) .

تأمل حكمة الصديق ، وكيف أنه فضل كتمان الأمر عن الغلامين ، فدل بهذا على انه قصد اتمام غرض الله بنشاط جزيل ، وبشوق ليس بقليل ، لأنه لما علم أن ما هو عازم على فعله غريب وطريف ولم يتقدمه فيه أحد كتمه عن الغلامين وتركهما مع الحمار .

« فأخذ ابراهيم حطب المحرقة ووضعه على اسحق ابنه وأخذ بيده النار والسكين فذهبا كلاهما معاً » (ع ٦) .

يا لشجاعة هذا الصديق ، كيف يأخذ حطب المحرقة ويضعه على اسحق ابنه ، كيف أخذ بيده النار والسكين ويمضيان معاً ، بأى عينين نظر الصبى حاملاً الحطب الذى هو عازم بعد قليل على ذبحه عليه ، كيف اطاقت اليد حمل نار وسكين ، لقد حملت اليد ناراً محسوسة ، وأما النار التى بداخله فكانت تضرم قلبه ، إلا أن الشوق إلى الله غلب ، وقال فى نفسه : إن الذى جاد به وانعم بولادته إنعاما يفوق الطبيعة البشرية لقادر أن يفعل الآن ما يعلو أعلى الفكر البشرى .

« وكلم اسحق ابراهيم أباه وقال يا أبى فقال هانذا يا ابنى فقال هوذا النار والحطب ولكن اين الخروف للمحرقة » (ع ٧) .

قول اسحق « يا أبى » ان هذه اللفظة تلهب أحشاء الصديق .

وقوله « هوذا النار والحطب ولكن اين الخروف للمحرقة » امعن النظر أيها الخليل ههنا فى التهاب الصديق وكيف اطاق سماع ذلك ، كيف ما إنحل ؟ كيف صبر على كتمان ما سيكون عليه الصبى دون إشهاره ؟ .

« فقال ابراهيم الله يرى له الخروف للمحرقة يا ابنى فذهبا كلاهما معا » (ع ٨) .

انظر هنا كيف أجاب ابراهيم ابنه بعزم شهم ونفس بطلة ، وانظر أيضاً كيف ينذر بما سيكون من غير خبرة ؛ فانه توهم انه يخدع اسحق بالجواب ؛ إلا انه كان قد اقنعه بما قاله فى الوقت الذى كان يعانى فيه من تضرّم قلبه ، ما يعظم قدره إذا ما أجال فى فكره الخطاب ونظر فى حسن ظاهر الصبى وجمال نفسه ورشاقة قامته وزهرة نشأته .

« فلما اتيا إلى الموضع الذى قال له الله بنى هناك ابراهيم المذبح ورتب الحطب وربط اسحق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب » (ع ٩) .

إننى لأتحير من شهامة الصديق وكيف أنه أطاق بناء المذبح ووضع عليه الحطب وربط ابنه اسحق ووضعه فوق المذبح .

ينبغى لنا أيها الخلان ألا نعبر هذه المقولات على الاطلاق بل نمعن النظر ونجيد التأمل فيها ، كيف انه لم تسقط نفس الصديق من جسمه ؟! كيف احتمل تقييد خليفته الحبيب الوحيد بيديه ووضعه على الحطب ؟!.

« ثم مدَّ ابراهيم يده واخذ السكين ليذبح ابنه » (ع ١٠) .

آهاً لهذا القلب المحب لله ، يا لهذا العزم البطل ، ما اشد هذا الشوق ، آهاً لهذا الفكر القاهر للطبيعة البشرية ؛ كيف أن الصديق أخذ السكين ليذبح ابنه ؟! فهل هذا من بسالة أب الآباء أم من طاعة الصبى الذى لم يعترض ولا كَرِه ، لكنه أطاع لغرض أبيه وصعد على المذبح بسكوت كالخروف متوقعاً يمين أبيه !! .

« فناداه ملاك الرب من السماء وقال ابراهيم ابراهيم فقال هانذا » (ع ١١) .

لما رأى الله الصديق مستعداً لإتمام الأمر مسارعاً إلى الذبح ، دعاه من السماء وقال له « إبراهيم إبراهيم » ما أحسن استعماله التكرار هنا ، إذ فعل ذلك رغبة فى إمساك عزم الصديق عما هو عليه ، وكأنه بصوته هذا يمنع يمناه من المضى فى ذبح الصبى .

« فقال لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئا لأنى الآن علمت انك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عنى » (ع ١٢) .

قول الملاك « لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً » وكأن الله يقول لأب الآباء : فما أمرتك بهذا الأمر لكى يتم الفعل ولا قصداً لأن تذبح ابنك ، بل رغبة فى إعلان طاعتك للكل ، إذاً فلا تصنع البتة شيئاً ، فقد وثقت بعزمك .

وقوله « لأنى الآن علمت انك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عنى » ، قد يتجه لسائل أن يسأل فيقول أترى ان الله كان قبل هذا الأمر غير عارف بفضيلة الصديق ثم عرف الآن ؟! فأجيبه : لم يقل الله هذا القول على انه قد علم ذلك الآن ، بل انه قد أطلع الكل على صريح خوفه منه .

« فرفع ابراهيم عينيه ونظر واذا كبش وراءه ممسكا فى الغابة بقرنيه . فذهب ابراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضا عن ابنه » (ع ١٣) .

أرأيت محبة الله للعالم ، إذ كملت الذبيحة وأظهر أب الآباء جميل محبته لله ، فتكلل من النية وأخذ ابنه وأحظى بربوات أكاليل ؟ .

وكل هذه الأمور صارت رسماً للصليب ، فكما أن الخروف قُدم عوضا عن اسحق ، هكذا الحمل الناطق (المسيح) قُدم من أجل المسكونة .

« فدعا ابراهيم اسم ذلك الموضع يَهْوَه يِرأه (١٢٢) حتى انه يقال اليوم فى جبل الرب يرى » (ع ١٤) .

---

(١٢٢) يَهْوَه يِرْأَه : الرب يُرَى .

تأمل نفس الصديق المحبة لله ، وكيف أنه فى كل أوان يضع للأمكنة ألقاباً من الأحداث ، فإنه لما أراد أن يثبت ما صار اليه من اشراق الله لقب المكان « يَهْوَه يرأه » .

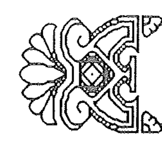
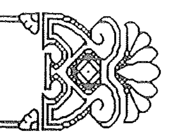
« ونادى ملاك الرب ابراهيم ثانية من السماء . وقال بذاتى اقسمت يقول الرب انى من اجل انك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك . اباركك مباركة واكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذى على شاطئ البحر ويرث نسلك باب اعدائه . ويتبارك فى نسلك جميع امم الأرض من اجل انك سمعت لقولى . ثم رجع ابراهيم إلى غلاميه فقاموا وذهبوا معاً إلى بئر سبع وسكن ابراهيم فى بئر سبع . وحدث بعد هذه الأمور ان ابراهيم اخبر وقيل له هوذا ملْكة (١٢٣) قد ولدت هى إيضا بنين لناحور(١٢٤) اخيك . عوصا بكره وبوزا(١٢٥) اخاه وقموئيل (١٢٦)ابا أرام . وكاسد (١٢٧) وحزوا (١٢٨) وفلداش ويدلاف (١٢٩) وبتوئيل (١٣٠) . وولد بتوئيل رفقة (١٣١) هؤلاء الثمانية ولدتهم ملكة لناحور اخى ابراهيم . واما سريته واسمها رؤومة (١٣٢) فولدت هى ايضا طَابح (١٣٣) وجاحم (١٣٤) وتاحش (١٣٥) ومَعكْة (١٣٦) » (ع ١٥ ـ ٢٤) .

إن الله الجوّاد بالعطايا والغالب خواطرنا بالإحسانات جازى الصديق عن جميل نيته وقويم عزيمته مجازاة مضاعفة مكافأة له عن رضوخه لأوامره ، وطاعته له فى جميع الأمور .

✣ ✣ ✣

---

(١٢٣) ملْكة : مشورة .
(١٢٤) نَاحور : متثاقل الانفاس .
(١٢٥) بوزا : إحتقار .
(١٢٦) قموئيل : مجمع الله .
(١٢٧) كاسد : مفرد كاسديم أى الكلدانيين .
(١٢٨) حزوا : رؤية .
(١٢٩) يدلاف: يبكى .
(١٣٠) بتوئيل : ربما كان معناه « بيت الله » .
(١٣١) رفقة : اسم عبرى ربما كان معناه «رباط أو حبل قيد».
(١٣٢) رؤومة : مرتفع .
(١٣٣) طابح : ذبح
(١٣٤) جاحم : محترق من الشمس
(١٣٥) تاحش : خنزير البحر .
(١٣٦) مَعكة : ظلم

الأصحاح الثالث والعشرون

« وكانت حيوة سارة مئة وسبعا وعشرين سنة سنى حيوة سارة . وماتت سارة فى قرية أربع التى هى حبرون فى أرض كنعان فأتى ابراهيم ليندب سارة ويبكى عليها . وقام ابراهيم من أمام ميته وكلم بنى حث قائلاً . انا غريب ونزيل عندكم اعطونى ملكَ قبر معكم لادفن ميتى من أمامى . فاجاب بنو حث ابراهيم قائلين له . اسمعنا يا سيدى انت رئيس من الله بيننا فى افضل قبورنا ادفن ميتك لا يمنع احد منا قبره عنك حتى لا تدفن ميتك . فقام ابراهيم وسجد لشعب الأرض لبنى حث . وكلمهم قائلاً ان كان فى نفوسكم ان ادفن ميتى من أمامى فاسمعونى والتمسوا لى من عفرون (١٣٧) بن صوحر (١٣٨). ان يعطينى مغارة المكفيلة التى له التى فى طرف حقله بثمن كامل يعطينى اياها فى وسطكم ملكَ قبر . وكان عفرون جالسا بين بنى حث فأجاب عفرون الحثى ابراهيم فى مسامع بنى حثَ لدى جميع الداخلين باب مدينته قائلاً . لاَ يا سيدى اسمعنى الحقل وهبتك إياه والمغارة التى فيه لك وهبتها لدى عيون بنى شعبى وهبتك إياها ادفن ميتك . فسجد ابراهيم امام شعب الأرض . وكلم عفرون فى مسامع شعب الأرض قائلاً بل ان كنت انت إياه فليتك تسمعنى اعطيك ثمن الحقل خذ منى فادفن ميتى هناك . فاجاب عفرون ابراهيم قائلاً له . يا سيدى اسمعنى أرض بأربع مئة شاقل فضة ما هى بينى وبينك فادفن ميتك . فسمع ابراهيم لعفرون ووزن ابراهيم لعفرون الفضة التى ذكرها فى مسامع بنى حث اربع مئة شاقل فضة جائزة عند التجار . فوجب حقل عفرون الذى فى المكفيلة التى أمام ممرا الحقل والمغارة التى فيه وجميع الشجر الذى فى الحقل الذى فى جميع حدوده حواليه . لإبراهيم ملكا لدى عيون بنى حث بين جميع الداخلين باب مدينته. وبعد ذلك دفن ابراهيم سارة امرأته فى مغارة حقل المكفيلة امام ممرا التى هى حبرون فى أرض كنعان . فوجب الحقل والمغارة التى فيه لابراهيم ملك قبر من عند بنى حث » (ع ١ - ٢٠)(١٣٩) .

---

(١٣٧) عفرون : اسم عبرى معناه « غزال صغير » .

(١٣٨) صوحر : اسم عبرى معناه « أبيض » .

(١٣٩) لم يتبع القديس يوحنا الذهبى الفم هنا طريقته المعتادة ، وهى شرح الأصحاح آية آية ، لكنه قام بشرحه اجمالاً .

أشاهدتم أيها الخلان مسألة أب الآباء ؟ ألاحظتم نفسه التى هى أقوى من حجر الماس ، وطاعته فى ذبح ابنه ، شوقا إلى الله ، وكيف مدّ يمناه وقدّم الذبيحة ، وكيف أخذ الصبى ورجع به معافى سالما بفضل الله الذى لا يوصف ومحبته للعالم ؟ لقد جاهد الصديق غاية الجهاد حرصا على أن يقيم الدليل عند الجميع على حسن إخلاصه فى محبة الله .

ولما عاد الصديق من تقديم ابنه اعتقبه وألمّ به حزنه على موت سارة فالتمس من بنى حِث أن يدفنها معهم فاشترى موضعا وضعها فيه ، وهذه أول قنية إقتناها أب الآباء .

والكتاب الإلهى أراد أن يوضح لنا بهذه الأمور كلها فضيلة الصديق إذ إنه سار كل هذا الزمان كالناقل والضيف ، وقد أبان ذلك لكى تعلم مقدار المؤازرة التى حظى بها من الله ، إذ إن هذه النباهة نباهته وهذه الكنوز كنوزه ، لأنه لم يكن لقبر مالكاً ، ولا كان كالذين ينشئون حقولاً وعقاراً ، ولا كان ممّن يعتنى بزيادة الثروة وتكثير الحال ، لأنه كان مكتفياً بثراء نفسه .

ليسمع المتوشحون بالمال ، والمتزايد نهمهم فى كل مكان ويشابهوا أب الآباء الذى لم يكن مالكاً ولا قبرا حتى أنه لما دعته الضروره إلى ذلك اشترى حقلاً ومغارة من بنى حِث .

واسمع خطاب بنى حث لتستدل من ذلك على عظم صيت الصديق وجلالة قدره إذ قالوا « اسمعنا يا سيدى أنت رئيس من الله بيننا فى أفضل قبورنا ادفن ميتك » (ع ٦) .

وانظر كيف أن الصديق لم يستجز أخذ القبر دون أن يزن لصاحبه الواجب له فقال لعفرون الحثى « إن كنت أنت إياه فليتك تسمعنى أعطيك ثمن الحقل خذ منى فادفن ميتى هناك » (ع ١٣) .

إن الصديق لما أراد شراء القبر لم يقتنه قبل أن يزن ثمنه الواجب له ، فإذا ما أمعنا النظر أيها الخلان فى هذه الأمور ، فينبغى لنا نحن أهل النعمة أن نشابه الذى كان قبل الشريعة ، ولا نتلهف شوقاً إلى الاستكثار ، أما إن اهتممنا بالمقتنيات فاننا بذلك نحشد

لانفسنا ناراً مضطرمة لا تخمد ولهيب لا يحتمل ، وإذا لازمنا الرغبة والخطف فلنسمعن قول الله « يا غبى هـذه الليلة تطلـب نفسـك منـك فهـذه التى اعددتها لمن تـكون » (لو ١٢ : ٢٠) .

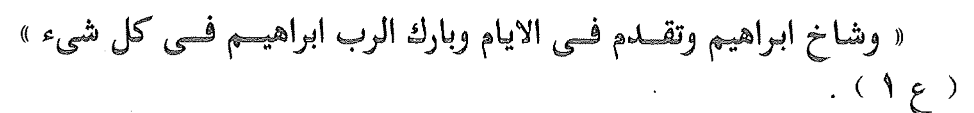
قل لأى حال تحرص على احتشاد ما عن قريب سيؤخذ منك وتتركه هنا وتندم ندماً لا يُجدى منفعة ، فإن ما جمعه شَـرَهَـك فيتلذذ فيه مَنْ هم بعدك ، أما أنت فتطالب بالقصاص عنه ، فأى حمق يكون أعظم من هذا أن تحشد لقوم آخرين أشياء كثيرة وتقوم أنت بالحجة عنها .

حتى وإن كنا قد مرضنا من قبل فينبغى لنا الآن أن نرتئى الرأى الحميد ، ولا نجتهد فى الاستكثار على الاطلاق ، ونهتم اهتمام الصديق الجزيل ، لأن حالنا ليست نهايتها الاستقرار فى هذا الوطن الغريب بالكلية ، فلنبـذل المجهـود خـوفا من أن نكون هناك معوزين .

فأية فائدة تكون لنا من اكتنازنا فى الأرض الغريبة ثروة وافرة ، وأعوازنا فى الوطن السماوى لا تدعو الحاجة إليه .







الأصحاح الرابع والعشرون

« **وشاخ ابراهيم وتقدم فى الايام وبارك الرب ابراهيم فى كل شىء** » (ع ١) .

ان قال قائل : لأى حال أوضح لنا الكتاب ههنا هذا الأمر ؟ أجيبه : لما كان الصديق عازماً على الاهتمام بابنه اسحق والحرص على تزويجه ، لذلك دلنا الكتاب على سنه .

« **وقال ابراهيم لعبده كبير بيته المستولى على كل ما كان له ضع يدك تحت فخذى** » (ع ٢) .

فإن قال قائل : ولِمَ قال ابراهيم لعبده « ضع يدك تحت فخذى » ؟! أجيبه : لأن هذا الأمر كان المتقدمون قد اعتادوه .

« **فاستحلفك بالرب إله السماء واله الأرض أن لا تأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانيين الذين انا ساكن بينهم** » (ع ٣) .

تأمل كيف ان ابراهيم أفاد العبد بمعرفة مبدع الكل فإنه بقوله « إله السماء وإله الأرض » حصر جميع الخليقة .

« **بل إلى ارضى وإلى عشيرتى تذهب وتأخذ زوجة لابنى اسحق** » (ع ٤)

امعن النظر فى رؤية الصديق وفكّر فى شدة حرص القدماء ، فانهم لم يكونوا يلتمسون ثروة ولا قنياناً ولا عبيداً ، ولا قطع من الأراضى مقدارها كذا وكذا ولا الجمال الذى من خارج ، بل كانوا يفضلون جمال النفس وشرف الطبع وكرم الأصل .

ولما رأى الصديق شر القاطنين فى أرض كنعان أمر عبده وزاده يمينا أن يأخذ لابنه اسحق زوجة من أهله ، ولم يكسله عن ذلك لا بُعد الأمكنة ولا غير ذلك من الموانع .

إن أب الآباء لما اهتم بالفضيلة اهتماما كبيراً هرب من مكر أهل كنعان ، أما الآن فالكل لا يستجيز فعل هذا ، لكنهم يحاولون أمراً واحداً وهو كثرة القنيان ، أما باقى الأمور فهى عندهم فى المنزلة الثانية ، ولم يعلموا أن النفس إذا كانت فاسدة فإنها تحوّل البار سريعاً إلى نهاية الفقر .

« فقال له العبد ربما لا تشاء المرأة ان تتبعنى إلى هذه الأرض هل ارجع بابنك إلى الأرض التى خرجت منها » (ع ٥) .

وكأن العبد يقول لأب الآباء : إن سؤالى إياك واستفهامى منك خوفا من أن يعرض مانع فيظن بى اننى قد تجاوزت أوامرك .

« فقال له ابراهيم احترز من ان ترجع بابنى إلى هناك . الرب إله السماء الذى اخذنى من بيت ابى ومن ارض ميلادى والذى كلمنى والذى اقسم لى قائلاً لنسلك اعطى هذه الأرض هو يرسل ملاكه امامك فتأخذ زوجة لابنى من هناك . وان لم تشأ المرأة ان تتبعك تبرأت من حلفى هذا اما ابنى فلا ترجع به إلى هناك » (ع ٦ ـ ٨) .

تأمل كيف افاد أب الآباء عبده بمعرفة مبدع الكل ، باستحلافه إياه فيما سبق ، وكيف تفوه بتلك الكلمات بعينها حرصا على تعليمه بهذا كله ، حُسن الثقة بالله ، والاعتماد على العناية الإلهية فى المسير ، والدليل على ذلك انه عرّفه مقدار ما ناله من معونة إله الكل من بداية الأمر ، وأنه هو الذى أنهضه من وطنه ، ودبّر أموره إلى هذه الغاية ، وجاد عليه باسحق فى وقت الشيخوخة وهو الذى يوفقه فيما يصبو اليه .

« فوضع العبد يده تحت فخذ ابراهيم مولاه وحلف له على هذا الأمر» (ع ٩) .

أشاهدت كيف أوضح العبد من بداية الأمر جميل نيته فى مولاه ، وكيف يأخذ من تعليم أب الآباء ويشابهه فى محبة الله ؟ .

« ثم اخذ العبد عشرة جمَال من جمَال مولاه ومضى وجميع خيرات مولاه فى يده فقام وذهب إلى أرامَ النهرين إلَى مدينة ناحور . واناخ الجمال خارج المدينة عند بئر الماء وقت المساء وقت خروج المستقيات . وقال أيها الرب إله سيدى ابراهيم يَسّر لى اليوم واصنع لطفا إلى سيدى ابراهيم » (ع ١٠-١٢).

قول العبد « أيها الرب إله سيدى ابراهيم » تأمل حُسن وفاء العبد وكيف يخصص مولاه بالله ، ولا تتعجب من قول العبد « إله سيدى ابراهيم » فإن الرب قال « انا إله إبراهيم » (تك ٢٦ : ٢٤) .

« ها انا واقف على عين الماء وبنات أهل المدينة خارجات ليستقين ماء . فليكن ان الفتاة التى أقول لها اميلى جرتك لاشرب فتقول اشرب وانا اسقى جمالك ايضا هى التى عينتها لعبدك اسحق وبها اعلم انك صنعت لطفا إلى سيدى » (ع ١٣ ، ١٤) .

تأمل حكمة العبد ، فإنه لما علم بمحبة أب الآباء للضيافة وأن الفتاة العازمة على المجيء من هناك يجب أن تكون مشابهة لأب الآباء ومطابقة له فى حُسن الضيافة .

« واذ كان لم يفرغ بعد من الكلام إذا رفقة التى وُلدت لبتوئيل ابن ملكة امرأة ناحور أخى ابراهيم خارجة وجرتها على كتفها . وكانت الفتاة حَسَنة المنظر جداً وعذراء لم يعرفها رجل فنزلت إلى العين وملأت جرتها وطلعت . فركض (١٤٠) العبد للقائها وقال اسقينى قليل ماء من جرتك . فقالت اشرب يا سيدى . وأسرعت وانزلت جرتها على يدها وسقته . ولما فرغت من سقيه قالت استقى لجمالك ايضا حتى تفرغ من الشرب . فاسرعت وافرغت جرتها فى المسقاة وركضت ايضا إلى البئر لتستقى فاستقت لكل جماله » (ع ١٥ - ٢٠) .

امعن النظر ايها الخليل فى هذه الفتاة التى كانت تستقى مع حُسنها ، وكيف انها ما امتنعت عن الاجابة فقط وانزال الجرة من على كتفها واعطاء الماء لطالبه على الرغم من أنه غريب لا معرفة لها به بل وسألته أن يسقى جِماله ، فدلت بهذه الأمور على شرف حسبها وكرم نفسها .

أما تعلمون أن كثيراً من الرجال يمتنعون عدة مرات عن الإجابة إلى سقى الماء ؟ ومالى أقول إلى الجود بالماء ، ربما سألهم بعض المجتازين أن يوقدوا منهم سراجاً فما يستجيزون فعل ذلك ، ولا شيء أقل من النار ، فهى تبقى ولو اُوقد منها ربوات من الناس ، أما هذه الفتاة ، فعلى صغر سنها وجمالها كانت حاملة جرة ماء على كتفها ، فليس إنها ما تكرهت ما طُلب منها فقط ، بل وبذلت زيادة عما طُلب منها وجادت بالماء لكى تسقى الجِمال أيضاً .

---

(١٤٠) ركض = جرى ، حرك رجليه .

وهذه الفتاة لم تهرب من العبد كغريب ، ولا امتنعت عن اجابته بحجة العفة ، بل قالت بغاية الوداعة « اشرب يا سيدى » وامعن النظر فى مقدار صريح هذه العفة فى سِن هذه صفتها ، وفرط هذا الاتضاع وتفاقم حب الضيافة .

« والرجل يتفرس [١٤١] فيها صامتا ليعلم أأنجح الرب طريقه أم لا » (ع ٢١) .

ولما رأى العبد الأمين اهتمام الله الفاعل عرف الفتاة فصمت ، ليعلم إن كان الرب وفق طريقه أم لا .

« وحدث عندما فرغت الجمال من الشرب ان الرجل اخذ خزامة ذهب وزنها نصف شاقل وسوارين على يديها وزنهما عشرة شواقل ذهب » (ع ٢٢) .

إن ما قد سبق من أمور الفتاة فقد دلَّ على جزيل فضيلتها ، ولذلك كافأها العبد عن حسن طاعتها وجودها بالماء .

« وقال بنت مَنْ انت اخبرينى هل فى بيت ابيك مكان لنا لنبيت فقالت له انا بنت بتوئيل ابن ملكة الذى ولدته لناحور . وقالت له عندنا تبن وعلف كثير ومكان لتبيتوا أيضا » (ع ٢٣ - ٢٥) .

تمعن هنا كرم الفتاة ؛ فكما إنها عندما طلب العبد منها ماء لم تعطه ما طلبه فقط ، بل وسقت الجمال بعد شربه ، هكذا وههنا ، فإنه عندما سألها عن أبيها فقد ذكرت له أباها وجدها ليزداد حرصاً فيما هو سبيله إذا ما عرف ذلك .

وتأمل وفاء هذه الفتاة ، وذلك أنه لما استخبرها العبد عن مكان فقط للنزول فيه ، لم تذكر المكان وحسب بل قالت « عندنا تبن وعلف كثير ومكان لتبيتوا أيضاً » .

« فخر الرجل وسجد للرب » (ع ٢٦) .

سجد العبد للرب الذى اهتم به واسعده فى جميع أموره وسهَّلها عليه قضاءً لحق أب الآباء .

---

(١٤١) يتفرس = ينظر ويثبت النظر فيه .

« وقال مبارك الرب إله سيدى ابراهيم الذى لم يمنع لطفه وحقه عن سيدى إذ كنت انا فى الطريق هدانى الرب إلى بيت أخوه سيدى » (ع ٢٧) .

ولما رأى العبد وفاء الفتاة واستوضح منها جميع الحال شكر الله ، لأن الـمُتَقَدَّم إليها ليست من دار غريبة ، بل الـمُتَقَدَّم له هو ناحور أخو أب الآباء .

« فركضت الفتاة واخبرت بيت امها بحسب هذه الأمور . وكان لرفقة اخ اسمه لابان [١٤٢] فركض لابان إلى الرجل خارجا إلى العين . وحدث انه إذ رأى الخزامة والسوارين على يدى اخته واذ سمع كلام رفقة اخته قائلة هكذا كلمنى الرجل جاء إلى الرجل واذا هو واقف عند الجمال على العين »(ع ٢٨ - ٣٠) .

انظر كيف أن لابان أيضا يقيم الدليل على اشتياقه بقدوم العبد .

« فقال ادخل يا مبارك الرب لماذا تقف خارجاً وانا قد هيأت البيت ومكانا للجمال » (ع ٣١) .

انظر هذا الإنسان ، كيف يبارك الرب على حضور الضيف ، ويوضح عظيم اجتهاده قبل بروز الضيافة إلى الفعل .

« فدخل الرجل إلى البيت وحل عن الجمال فاعطى تبنا وعلفا للجمال وماء لغسل رجليه وارجل الرجال الذين معه » (ع ٣٢) .

أرأيت هؤلاء ، كيف أظهروا من فرط الاجتهاد فى حب الضيافة ما يعظم قدره ؟ إذ أحضروا تبنا وعلفا للجمال كما احضروا للعبد ماءً ليغسل رجليه وأرجل الذين كانوا معه .

« ووضع قدامه ليأكل فقال لا آكل حتى اتكلم كلامى فقال تكلم » (ع ٣٣) .

وكأن العبد يقول لهم : لقد بذلتم المجهود كله معنا ، أما أنا فلا استريح حتى أعرّفكم السبب الذى لأجله قطعت مسافة هذا مقدارها ، وجئت إلى هنا من أرض الكنعانيين ، ودخلت إلى منزلكم .

---

(١٤٢) لابان : اسم عبرى معناه « الأبيض » .

« فقال انا عبد ابراهيم » (ع ٣٤) .

أى أنـا عبـد ابراهيم ذلك الذى تعرفونه .

« والرب قد بارك مولاى جداً فصار عظيما واعطاه غنما وبقراً وفضة وذهبا وعبيداً واماءً وجمالاً وحميراً » (ع ٣٥) .

اسمعوا أيها الأغنياء المشترون كل يوم قطع أرض مساحتها كذا وكذا ، والبانون حمامات وطرقات حسنة ، وانظروا كم كانت ثروة الصديق ، فلم تكن حقلاً ولا عمارة ولا شيء زائد لا يحتاج اليه ، بل كان عنده غنما وبقراً وجمالاً وحميراً وعبيداً وإماءً .

« وولدت سارة إمرأة سيدى إبنا لسيدى بعدمـا شاخت فقد اعطاه كل ماله » (ع ٣٦) .

أى أن سيدى الغَنى الغِنى الذى هذا صفته ، الحاظى بالمؤازرة الإلهية ، عندما شارف الشيخوخة ، ولدت له سارة ولداً وحيداً وقد ورّثه كل ما له .

« واستحلفنى سيدى قائلاً لا تأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانيين الذين انا ساكن فى ارضهم . بل إلى بيت ابى تذهب وإلى عشيرتى وتأخذ زوجة لابنى. فقلت لسيدى ربما لا تتبعنى المرأة . فقال لى إن الرب الذى سرتُ امامه يرسل ملاكه معك وينجح طريقك فتأخذ زوجة لابنى من عشيرتى ومن بيت أبى . حينئذ تتبرأ من حلفى حينما تجىء إلى عشيرتى وان لم يعطوك فتكون بريئاً من حلفى . فجئت اليوم إلى العين وقلت ايها الرب إله سيدى ابراهيم ان كنت تنجح طريقى الذى انا سالك فيه . فها انا واقف على عين الماء وليكن ان الفتاة التى تخرج لتسقى وأقول لها اسقينى قليل ماء من جرتك . فتقول لى اشرب انت وانا لتستقى لجمالك ايضا هى المرأة التى عينها الرب لابن سيدى . وإذ كنت انا لم افرغ بعد من الكلام فى قلبى إذا رفقة خارجة وجرتها على كتفها فنزلت إلى العين واستقت فقلت لها اسقينى . فأسرعت وانزلت جرتها عنها وقالت اشرب وانا اسقى جمالك ايضا فشربت وسقت الجمال ايضا . فسألتها وقلت بنت مَنْ انت فقـالت بنت بتـوئيل بن ناحـور الذى ولدته له ملكة . فوضعتُ الخزامة فى انفها والسوارين على يديها وخررتُ وسجدتُ للرب

وباركتُ الرب إله سيدى ابراهيم الذى هدانى فى طريق امين لآخذ ابنة اخى سيدى . لابنه والآن إن كنتم تصنعون معروفا وامانة إلى سيدى فاخبرونى وإلا فاخبرونى لانصرف يمينا أو شمالاً . فأجاب لابان وبتوئيل وقالا من عند الرب خرج الأمر لا نقدر ان نكلمك بشر أو خير . هوذا رفقة قدامك خذها واذهب فلتكن زوجة لابن سيدك كما تكلم الرب » (ع ٣٧ - ٥١) .

أرأيت كيف كان اجتهاد القدماء فى اختيار زوجات لاولادهم ، وكيف كانوا يلتمسون قبل القنيان شرف النفس من غير عهود ولا شروط ، ولا كان عندهم مهراً مفروضاً ولم يكن قصدهم وعظيم اشتياقهم إلا فى سيرة الفتاة ؟ .

« وكان عندما سمع عبد ابراهيم كلامهم انه سجد للرب إلى الأرض » (ع ٥٢) .

انظر كيف كان العبد يشكر الرب على كل ما حدث من الأمور ، لأن الله هو الميّسر هذا كله والذى أرسل ملاكاً أمامه ليمهد له الأمور إجابة لدعاء أب الآباء .

« واخرج العبد آنية فضة وآنية ذهب وثيابا واعطاها لرفقة واعطى تحفاً لأخيها ولأمها » (ع ٥٣) .

واعطى ذلك لرفقة وانبسط فى خدمتها إذ قد صار لاسحق زوجة ، فأهدى لأخيها ولأمها هدايا جليلة .

« فأكل وشرب هو والرجال الذين معه وباتوا ثم قاموا صباحاً فقال اصرفونى إلى سيدى » (ع ٥٤) .

لما عاين العبد أن وصية سيده قد برزت إلى الفعل حينئذ استراح ، لأن الكتاب يقول عنه « فأكل وشرب هو والرجال الذين معه وباتوا » .

وقول العبد « اصرفونى إلى سيدى » إذ كانت أموره كلها قد أُنجزت على أفضل وجه ولم يبق شىء ألا وهو أن يصرفوه ليمضى إلى سيده .

« فقال اخوها وامها لتمكث الفتاة عندنا أياماً أو عشرة بعد ذلك تمضى . فقال لهم لا تعوقونى والرب قد انجح طريقى اصرفونى لأذهب إلى سيدى . فقالوا له ندعو الفتاة ونسألها شفاها . فدعوا رفقة وقالوا لها هل تذهبين مع هذا

الرجل فقالت أذهب . فصرفوا رفقة اختهم ومرضعتها وعبد ابراهيم ورجاله . وباركوا رفقة وقالوا لها انت اختنا صيرى ألوف ربوات وليرث نسلك باب مبغضيه » (ع ٥٥ ـ ٦٠) .

تأمل كيف أن أهل رفقة أخذوا يُعرّفونها بما سيكون على الرغم من جهلهم بالله ، إلا أن الله قد مدّ عقولهم بالتوفيق ، والدليل على ذلك أنهم بشروها بأمرين : بأنها تصير فى ألوف ربوات ، وأن نسلها يرث مدن الأعداء .

أشاهدت كيف أن الله أنذر على ما سيكون وإن كان على ألسن الذين لا يعرفونه ؟.

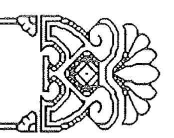
« فقامت رفقة وفتياتها وركبن على الجمال وتبعن الرجل فأخذ العبد رفقة ومضى » (ع ٦١) .

أرأيت أى عروس أخذ أب الآباء لابنه ؛ تستقى ماء ، وللجرة على كتفها حاملة ؟ كما أن فتياتها بشهامة الاوائل من النساء إلى هذا الحد بلغت حتى انهن يركبن جِمالاً لمسافات طويلة ، ولا جماعة حولهن ، ولا إفراط ولا تفاخر ولا مباهاة .

« وكان اسحق قد أتى من ورود بئر لحى رُئى إذ كان ساكنا فى ارض الجنوب . وخرج اسحق ليتأمل فى الحقل عند إقبال المساء فرفع عينيه ونظر وإذا جمالٍ مقبلة . ورفعت رفقة عينيها فرأت اسحق فنزلت عن الجمل . وقالت للعبد مَنْ هذا الرجل الماشى فى الحقل للقائنا فقال العبد هو سيدى فأخذت البرقع وتغطت . ثم حدّث العبد اسحق بكل الأمور التى صنع . فأدخلها اسحق إلى خباء سارة أمه وأخذ رفقة فصارت له زوجة فتعزى اسحق بعد موت أمه » (ع ٦٢ - ٦٧) .

انظر شرف حسب الفتاة ، وذلك انها لما أبصرت اسحق سألت عنه ، ولما علمت أنه هو العازم على أخذها تغطت بالبرقع .





الأصحاح الخامس والعشرون

« وعاد ابراهيم فأخذ زوجة اسمها قطورة . فولدت له زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحاً . وولد يقشان شبا ودادان وكان بنو ددان اشوريم ولطوشيم ولاميم . وبنو مديان عيفة وعفر وضوك وابيداع وألدعة جميع هؤلاء بنو قطورة . واعطى ابراهيم اسحق كلَ ما كان له . واما بنو السرارى اللواتى كانت لابراهيم فاعطاهم ابراهيم عطايا وصرفهم عن اسحق ابنه شرقا إلى ارض المشرق وهو بعد حى . وهذه ايام سنى حيوة ابراهيم التى عاشها . مئة وخمس وسبعون سنة . واسلم ابراهيم روحه ومات بشيبة صالحة شيخا وشبعان اياما وانضم إلى قومه . ودفنه اسحق واسمعيل ابناه فى مغارة المكفيلة فى حقل عفرون بن صوحر الحثى الذى امام ممرا . الحقل الذى اشتراه ابراهيم من بنى حَث هناك دُفن ابراهيم وسارة امرأته وكان بعد موت ابراهيم ان الله بارك اسَحق ابنه وسكن اسحق عند بئر لحى رئى . وهذه مواليد اسمعيل بن ابراهيم الذى ولدته هاجر المصرية جارية سارة لابراهيم وهذه اسماء بنى اسمعيل باسمائهم حسب مواليدهم نبايوت بكر اسمعيل وقيدار وادبئيل ومبسام ومشماع ودومة ومسا . وحدار وتيما ويطور ونافيش وقدمة . هؤلاء بنو اسمعيل وهذه اسماؤهم بديارهم وحصونهم اثنا عشر رئيسا حسب قبائلهم وهذه سنو حيوة اسمعيل مئة وسبع وثلاثون سنة واسلم روحه ومات وانضم إلى قومه . وسكنوا من حويلة إلى شورا التى امام مصر حينما تجئ نحو اشور امام جميع اخوته نزل » (ع ١ - ١٨) (١٤٣) .

« وهذه مواليد اسحق بن ابراهيم . ولد ابراهيم اسحق وكان اسحق ابن اربعين سنة لما اتخذ لنفسه زوجة رفقة بنت بتوئيل الأرامى اخت لابان الأرامى من فدان أرام . وصلى اسحق إلى الرب لأجل امرأته لأنها كانت عاقراً . فاستجاب له الرب فحبلت رفقة امرأته » (ع ١٩ - ٢١) .

---

(١٤٣) عفوا عزيزى القارئ لم أجد شرحاً لهذه الأعداد لا فى هذه المخطوطة ، ولا فى المخطوطات التالية : رقمى ١ ، ٣٥٠ لاهوت بمكتبة البطريركية ، رقم ٢١٨ بمكتبة المتحف القبطى ، رقم ٨٩ بمكتبة الآباء الفرنسيسكان بالقاهرة .

تأمل أيها الخليل إيضاح الكتاب الإلهى وكيف أنه ما يورد شيئا لاحاجة له ، فإن قال قائل : لأى حال اطلعنا على عدد سنى اسحق إذ قال « وكان اسحق ابن اربعين سنة لما اتخذ لنفسه زوجة » ؟ اجبته : لم يذكر ذلك عبثا لكنه لما كان يريد بعد هذا أن يشرح لنا عقرية رفقة ، وأنها رزقت ابنان بتوسل اسحق أراد الآن أن يفيدنا عن عظم صبر اسحق وأن يقفنا على مقدار الزمان الذى مكثه بلا ولد ، وبعد أن ولدت رفقة عيسو ويعقوب قال « وكان اسحق ابن ستين سنة لما ولدتهما » (ع ٢٦) ، فذكر الكتاب الإلهى ذلك رغبة فى أن نشابه اسحق ونثابر التوسل إلى الله إذا ما طلبنا منه أمراً .

فإن كان هذا البار مع فضله وجلالة قدره وتمتعه بحسن نية الله ، قد اجتهد اجتهاداً هذا تقديره وحرص حرصاً هذا محله ، وأطال التضرع إلى الله فى أن يحل عقرية رفقة ، فماذا نقول نحن المثقلين بأحمال الجرائم ، والذين ما أظهرنا ولا الجزء الطفيف من فضل هذا الصديق ، لكننا ما نجتهد إلا يسيراً ، فإن لم يسمع الرب منا عاجلاً نفتر وننصرف ، ولهذا السبب أرجو أن نتعلم من الحوادث التى حدثت لهذا الصديق ولا نكف عن التضرع إلى الله من أجل صفح هفواتنا ونبرز من النشاط والحرص ما يعظم قدره ، ولا نكتئب ونمرض إن لم ينفذ مطلبنا عاجلاً ، فربما كان الرب يتمهل رغبة فى إحكام مثابرتنا وإتقان ملازمتنا ، لكى نحظى بالجائزة عن صبرنا ، ولمعرفته أيضا بالوقت الذى يصلح أن نظفر باغراضنا ، فلسنا نعرف الموافق لنا كمعرفة العالِم بضمائر القلوب وماتكنه الصدور . ولهذا السبب ينبغى لنا ألا نكثر الاعتراض على أعمال الله بل نظهر من حُسن الوفاء أجمله ، ومن سديد التعبد أنفسه وأكمله ، ونتعجب من فضائل الابرار .

وقول الكتاب عن رفقة « كانت عاقراً » ، فإن سأل سائل وقال : لأى حال عقمت رفقة وسيرتها سيرة جميلة وقد كانت هى واسحق عفيفين ؟! أجيبه : إننا لا نتمكن من أن نلوم عيشتهما ، ولا نقول أن العقرية كانت بسبب خطايا ارتكبت ، ومما يزيد تعجبنا أن هذه المرأة لم تكن وحدها عقيمة ، بل وسارة والدة اسحق ، ولا أم هذا فقط ، بل وحماة اسحق امرأة يعقوب التى هى راحيل ، وهذا الجمع فقد كان كله افاضل ، وقد شهد الله لهم بذلك إذ قال « انا إله ابيك إله ابراهيم وإله اسحق وإله يعقوب » (خر٣ : ٦) ، وما اكثر مدائحهم فى العتيقة والجديدة ، وقد عظم صيتهم وجل قدرهم فى كل

موضع ، وكلهم لديهم نساء عواقر وبمعزل عن الولادة مدة من الزمان .

إذاً فإن رأيت رجلاً وامرأة فاضلين خشوعين ، وللأولاد فاقدين ، فلا تظن أن ذلك من قِبَل جرائمهما لأن تدابير الله كثيرة ويغرب علينا إدراكها .

« وتزاحم الولدان فى بطنها فقالت إن كان هكذا فلماذا انا فمضت لتسأل الرب » (ع ٢٢) .

قول رفقة « إن كان هكذا فلماذا أنا » أى إذا كان الحال يؤول إلى هذا فما حاجتى إلى هذا ، فقالت هذا من فرط الضيق ، لأن الموجود فى بطنها لم يكن واحداً بل ولدين ، وذلك آلمها غاية الألم .

وقول الكتاب عن رفقة « فمضت لتسأل الرب » تأمل محبة المرأة للرب ، فانها لم تفعل مثل نظرائها من النساء اللواتى يلتفتن إلى معاضدة بشرية لكنها كما يقول الكتاب « فمضت لتسأل الرب » ، وتأمل أيضا حرص المرأة ، فإنها لما علمت أن سيد الطبيعة هو فاتح رحمها والجاعل بطنها الفاقد للأولاد ذا ولد وذات انتفاخ ، لذلك توجهت إلى الرب مستخبرة حالها منه .

« فقال لها الرب فى بطنك أُمتّان ومن احشائك يفترق شعبان شعب يقوى على شعب وكبير يستعبد لصغير » (ع ٢٣) .

انظر هذه النبوّة الموضحة لرفقة جميع ما سيحدث إيضاحاً وافياً ، فإن الولدين لما تزاحما فى بطنها انذرا بما سيكون إنذاراً شافياً ، وعرفت المرأة بعد ذلك أنها ستلد لا اثنين وحسب بل وأن هذين الاثنين سيصيران فى جمع كثير والصغير سيسود على الكبير .

« فلما كملت ايامها لتلد إذا فى بطنها تؤامان . فخرج الأول احمر كله كفروة شعر فدعوا اسمه عيسو[١٤٤] . وبعد ذلك خرج اخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعى اسمه يعقوب[١٤٥] وكان اسحق ابن ستين سنة لما ولدتهما » (ع ٢٤ - ٢٦) .

---

(١٤٤) عيسو : اسم عبرى معناه « شعر » .

(١٤٥) يعقوب : اسم عبرى معناه « يعقب ، يمسك العقب ، يحل محل » .

إن الله يقيم الدليل من البداية على أن الأمر يكون بحسب ما قيل ، أن الأصغر يرأس الأكبر .

« فكبر الغلامان وكان عيسو إنسانا يعرف الصيد إنسان البرية ويعقوب إنسانا كاملا يسكن الخيام . فأحب اسحق عيسو لأن فى فمه صيداً . واما رفقة فكانت تحب يعقوب » (ع ٢٧ - ٢٨) .

تأمل الكتاب الإلهى ، كيف ينذر بما سيحدث أخيراً ، ويوضح لنا من البداية مهنة كل واحد منهما ، وأن أحدهما ينعكف على الصيد والآخر ساكناً خاملاً .

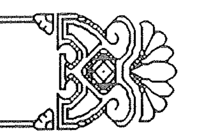
وانظر كيف أن الأم والأب يوزعان ابنيهما : الأم لما رأت يعقوب ملازما للبيت بسيط النية ، مالت إلى مودته ، أما الأب فأحب عيسو ، لأجل أنه البكر ، وأنه كان يصيد له ، إن الأم والأب هنا قد سلكا فى المودة المسلك الطبيعى .

« وطبخ يعقوب طبيخا فأتى عيسو من الحقل وهو قد أعيا . فقال عيسو ليعقوب اطعمنى من هذا الأحمر لأنى قد أعييت لذلك دعى اسمه ادوم[١٤٦] . فقال يعقوب بعنى اليوم بكوريتك . فقال عيسو ها أنا ماض إلى الموت فلماذا لى بكورية . فقال يعقوب احلف لى اليوم فحلف له فباع بكوريته ليعقوب . فأعطى يعقوب عيسو خبزاً وطبيخ عدس فأكل وشرب وقام ومضى فاحتقر عيسو البكورية » (ع ٢٩ - ٣٤) .

إن النبوّة القائلة « كبير يستعبد لصغير » (ع ٢٣) ، قد برزت هنا إلى الفعل ، وكان هذا كله ليظهر غدر يعقوب ويبرز إلى الفعل إنذار الله .

❖ ❖ ❖

(١٤٦) كان لعيسو أن يدعى ادوم أى أحمر قبل ذلك عند ولادته ، لكن هنا صار ذلك اسما مشهوراً له .



الأصحاح السادس والعشرون

« وكان فى الأرض جوع غير الجوع الأول الذى كان فى ايام ابراهيم فذهب اسحق إلى أبيمالك ملك الفلسطينيين إلى جرار . وظهر له الرب وقال لا تنزل الى مصر اسكن فى الارض التى اقول لك . تغرب فى هذه الأرض فأكون معك وأباركك لأنى لك ولنسلك اعطى جميع هذه البلاد وأفى بالقسم الذى اقسمت لابراهيم أبيك » (ع ١ - ٣) .

ولئلا يظن اسحق أن الله يريد أن يذيقه مضض الجوع رسم له ألا ينزل إلى مصر فقال له « تغرب فى هذه الأرض فأكون معك وأباركك » أى إن كان معك مانح الخيرات فلا تهتم بشىء ، فأى إنسان يكون أسعد من هذا الصديق النائل من الله أموراً هذا محلها .

وانظر إلى تنازل الله ، فإنه ما قال على الإطلاق سأتمم العهود التى عهدتها إلى أبيك ولا المواعيد التى وعدته بها بل قال « وأفى بالقسم الذى أقسمت لابراهيم أبيك » وكما أن الناس يجتهدون فى إتمام ما وعدوا به قوماً كذلك سلك هذا المسلك إله الكل ، محققا عند اسحق ما قاله لأبيه ابراهيم .

« واكثر نسلك كنجوم السماء وأعطى نسلك جميع هذه البلاد وتتبارك فى نسلك جميع امم الأرض » (ع ٤) .

وهذا هو الوعد الذى وعد الله به أب الآباء ، لذلك أراد هنا أن يعرّفه لابنه اسحق .

« من أجل إن ابراهيم سمِع لقولى وحفظ ما يحفظ لى أوامرى وفرائضى وشرائعى . فأقام اسحق فى جرار « (ع ٥ ، ٦) .

وكأن الله يقول لاسحق هنا : إننى قلت لأبيك اُخرج من أرضك ، ومن بيت أهلك وتعال إلى التى أريك ، فلم يتشكك ولا توانى ، بل سارع إلى الطاعة والإجابة لقولى بغاية النشاط . ولما وعدته بما يعلو أعلى الطبيعة البشرية من أن نسله يتكاثر حتى يملأ الأرض بعد أن تجاوز السن التى تصلح للإنجاب لم يشك أيضاً ولا انزعج خاطره بل صدّق واعتمد .

أشاهدت محبة الله للبشر ، وكيف قوّى نفسية اسحق بذكر فضيلة أبيه ؟ .

« وسأله اهل المكان عن امرأته فقال هى أختى لأنه خاف ان يقول امرأتى لعل اهل المكان يقتلوننى من اجل رفقة لأنها كانت حسنة المنظر . وحدث إذ طالت له الأيام هناك ان أبيمالك ملك الفلسطينيين اشرف من الكوة ونظر وإذا اسحق يلاعب رفقة امرأته . فدعا أبيمالك اسحق وقال إنما هى امرأتك فكيف قلت هى أختى فقال له اسحق لأنى قلت لعلى أموت بسببها فقال أبيمالك ما هذا الذى صنعت بنا لولا قليل لاضطجع احد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنبا . فأوصى أبيمالك جميع الشعب قائلاً الذى يمس هذا الرجل وامرأته موتاً يموت » (ع ٧ - ١١) .

انظر كيف واجه هذا الصديق الأمور بعينها التى عاناها أبوه ، وحل به ما حل من قبل بأب الآباء .

« وزرع اسحق فى تلك الأرض فأصاب فى تلك السنة مئة ضعف وباركه الرب » (ع ١٢) .

أشاهدت مقدار ما تمتع به الصديق أيضا من المعونة الإلهية ولم يزل الرب بلطيف حكمته وسديد سياسته يحسن إلى أخصائه بالأمور نفسها ؟ .

« فتعاظم الرجل وكان يتزايد فى التعاظم حتى صار عظيماً جداً » (ع ١٣) .

ولم يقل الكتاب عن اسحق علت منزلته فقط بل وتعاظم وتزايد التعاظم جداً .

« فكان له مواش من الغنم ومواش من البقر وعبيد كثيرون فحسده الفلسطينيون .وجميع الآبار التى حفرها عبيد ابيه فى ايام ابراهيم ابيه طمّها الفلسطينيون وملأوها ترابا . وقال أبيمالك لاسحق اذهب من عندنا لأنك صرت أقوى منا جداً » (ع ١٤ - ١٦) .

لما عاين الفلسطينيون ثروة اسحق تتزايد كل يوم ، خشوا إقامته هناك ، فالجأوه إلى الرحيل حتى أن أبيمالك حسده .

وتأمل مقدار رذيلة هؤلاء القوم إذ إنهم حسدوا الصديق على الماء ، حتى والملك حسده على عظم صيته وغناه ، فلم يتمكن من قمع حسده لكنه قال « اذهب من عندنا لأنك صرت أقوى منا » ، يا لهذا الغدر ما أخطره ، ويحك أيها الملك ، لأى حال تطرد هذا الصديق ؟ ألعله ضرك بشىء مما يختص بك ؟ أتراه كان غشيماً ؟! .

إن الحسد هذه صفته ، لا يعمل شيئا بقياس ، لقد كان من الواجب على أبيمالك حين رأى جميل نية الله فى اسحق أن ينعكف على خدمته وإكرامه ، لينال بذلك إحسان الله ، لكنه لم يفعل شيئا من هذا ، بل حاول طرده وقال له « اذهب من عندنا لأنك صرت أقوى منا » ، هذه صورة الحاسد ، وهو أنه لا يستلذ معاينة حسن حال غيره بل يعتقد أن ذلك ضرر واصل إليه .

وقول أبيمالك لاسحق « اذهب من عندنا لأنك صرت أقوى منا » ، لقد صدقت يا هذا ، إن اسحق قد صار أشد قوة منكم ، لأن المؤازرة الإلهية شاملة له فى جميع أموره ، ويمين الله حافظة له ومحيطة به ، يا ويحك ، فإلى أين إذاً تطرد الصديق ؟! أما علمت أنه إلى أين يتوجه ؟! فالضرورة داعية إلى أن يكون فيما للرب ، أما علمتك تجربة الأمور ولقنتك أن يد الله هى الحافظة لهذا الصديق والرافعة قدره ؟ فلأى سبب تظهر الغدر تجاه الله بإبعادك هذا البار .

أشاهدت أيها الخليل عظم تعطف الله وكيف شمل هذا الصديق بإحساناته الوفيرة ، ألاحظت سوء نية أبيمالك وكل الساكنين هناك ؟ .

« فمضى اسحق من هناك ونزل فى وادى جرار وأقام هناك » (ع ١٧) .

انظر جزيل دعّة الصديق وكيف أنه لم يفتخر بقوة الناصر له ولا ترفّع على الملك حين رأى عناية الله شاملة له ، بل سارع إلى المرسوم وتحول عن الموضع كأنه رجل لا ناصر له ولا مؤازر ولا معونة تتوّجه .

« فعاد اسحق ونبش آبار الماء التى حفروها فى أيام ابراهيم أبيه وطمها الفلسطينيون بعد موت أبيه ودعاها باسماء كالاسماء التى دعاها بها أبوه . وحفر عبيد اسحق فى الوادى فوجدوا هناك بئر ماء حى فخاصم رعاة جَرار رعاة

اسحق قائلين لنا الماء فدعا اسم البئر عسق (١٤٧) لأنهم نازعوه . ثم حفروا بئرا ثم حفروا بئرا اخرى فتخاصموا عليها ايضا فدعا اسمها سِطنة (١٤٨)» (ع ١٨ - ٢١) .

لقد تخاصم رعاة جَرارَ مع رعاة اسحق ، وأدّعوا أن الماء لهم ، والصديق ولا فى هذا ناقض ولا ناظر ، بل مكّن الرعاة من مرادهم ، ومن البيّن الظاهر أن هذا شرط الوداعة لا احتمال المظلوم للأكابر الاقوياء ، بل صبره على ظلم الأصاغر ، والدليل على ذلك أن الإنسان إذا تأمل هذا الأمر لم يشك فى أنه وداعة ولين خُلق .

وتأمل هذا المرء العجيب ، كيف أنه تزايد فضلاً ووداعة فى سائر الأمور ، وكيف يعلن أهل جرار بغير اختيارهم فضيلته بتزايد رذيلتهم ، والدليل على ذلك أنهم لم يكتفوا بما سلف ، بل نازعوه فى ردم بئراً أخرى حفرها .

« ثم نقل من هناك وحفر بئرا اخرى ولم يتخاصموا عليها فدعا اسمها رحوبوت وقال انه الآن قد ارحب لنا الرب واثمرنا فى الأرض ثم صعد من هناك إلى بئر سبع » (ع ٢٢ ، ٢٣) .

انظر إلى حُسن وفاء الصديق ، وذلك أن القوم لما نازعوه فى الآبار وسارعوا فى اجتيازها لم يتكره ذلك ولا خاصم .

« فظهر له الرب فى تلك الليلة وقال أنا إله ابراهيم أبيك لا تخف لأنى معك واباركك واكثر نسلك من أجل ابراهيم عبدى » (ع ٢٤) .

قول الكتاب « فظهر له الرب فى تلك الليلة » انظر هذا الصديق كيف أُهل للظهور الإلهى لجزيل حُسن وفائه .

وقول الرب لاسحق « أنا إله ابراهيم أبيك لا تخف لأنى معك » فكأنه يقول له أنا هو الذى دعا باسم أبيك وشرّف مكانه وأعلى شأنه ، وجعله فى غربته أجلّ حالاً من ساكنى المدن واغناه وصرف الاهتمام اليه.

---

(١٤٧) عسق : اسم عبرى معناه « نزاع » .
(١٤٨) سِطنة : اسم عبرى معناه « خصام » .

وقول الرب « أنا إله ابراهيم أبيك » إذ أقام البرهان على اختصاصه بإبراهيم ، حتى إنه اهله بأن يدعو نفسه إلهاً له .

وقول الرب « لا تخف لأني معك » أى لا تستغرب هذه الأمور ، وهى طرد أبيمالك لك ، وسوء معاملة الرعاة إياك فإن أباك قد قاسى كثيراً مما يجرى هذا ، فزاد بذلك شهرة وبهاءً ، فلا تفزعك إذاً هذه الأمور لأنى معك .

« فبنى هناك مذبحا ودعا باسم الرب ونصب هناك خيمته وحفر هناك عبيد اسحق بئراً » (ع ٢٥) .

إن قال قائل : ما معنى قول الكتاب عن اسحق « فبنى هناك مذبحاً » ؟ أجيبه : أى إنه شُكر لله على حُسن عنايته به وجميل مراعاته له .

« وذهب إليه من جَرار أبيمالك واحُزات[١٤٩] من اصحابه وفيكول رئيس جيشه . فقال لهم اسحق ما بالكم أتيتم إليّ وأنتم قد ابغضتمونى وصرفتمونى من عندكم » (ع ٢٦ ، ٢٧) .

تأمل مقدار وداعة الصديق ، فإنه لما رأى الذين طردوه وتناهوا فى إبغاضه وافدين اليه وفود العبيد لم يتعظم عليهم ولا تكبر ولا ناقض الملك ، واثقا بقوة الرب ، بل جرى على عادته من إظهار ما لَطُف من الخلال وعَذُب من الخصال .

« فقالوا اننا قد رأينا ان الرب كان معك فقلنا ليكن بيننا حلف بيننا وبينك ونقطع معك عهداً » (ع ٢٨) .

قول الفلسطينيين لاسحق « إننا قد رأينا أن الرب كان معك » ، ولو سألهم الصديق : من أين علمتم بهذا الأمر ؟ لأجابوه : إن الأمور التى حدثت قامت لنا مقام التعليم ، فإننا لما رأيناك أنت المطرود أقوى من طارديك ، وأنت الذى أُسئ إليه قد استوليت على المسيئين إليك ، دلنا ذلك على أن المؤازرة الإلهية شاملة لك ومحيطة بك ، وهذا بالطبع من تدبير الله الذى ألقى فى اذهانهم أمر هذا الصديق ، ومعرفته معرفة هذا محلها .

(١٤٩) احُزات : اسم عبرى ، وربما كان معناه « المأخوذ » أو « المملوك » .

وقولهم « ليكن بيننا حلف بيننا وبينك ونقطع معك عهداً » تأمل كيف أن ضميرهم يبعثهم على توبيخ أنفسهم ، دون أن يضطرهم أحد إلى هذا ، ولا أفزعهم وعنفهم على ما فعلوه .

انظر مقدار قوة الفضيلة والوداعة ، والدليل على ذلك أن الذين أبعدوه من قبل ، أتوا إليه الآن ؛ ذلك الغريب الحائر الذى لا بلد له ، معتذرين إليه عما سلف سائلين العفو منه عما أجرموه إليه ، وليس هذا فقط بل ومادحين إياه وموضحين ما ألمّ بهم من الخوف ومعترفين بضعفهم شاهدين له بعظمة القدرة ، فأى شيء يكون أشد قوة من المرء الذى معه الله .

« أن لا تصنع بنا شراً كما لم نمسّك وكما لم نصنع بك إلا خيراً وصرفناك بسلام أنت الآن مبارك الرب » (ع ٢٩) .

أشاهدت كيف أنهم رهبوا القضاء الإلهى ، لعلمهم أن الصديق وان لم يؤاخذهم على ما فعلوه به وداعة منه ، إلا أن المراعى له غاية المراعاة يقاصصهم عما صنعوه به ، لذلك لاطفوه واجتهدوا فى معاهدته واعتذروا عما سلف .

« فصنع لهم ضيافة فأكلوا وشربوا » (ع ٣٠) .

أراد اسحق أن يحقق معهم بالأكل والشرب أنه ما يذكر لهم ولا واحدة مما فعلوه به .

« ثم بكروا فى الغد وحلفوا بعضهم لبعض وصرفهم اسحق فمضوا من عنده بسلام . وحدث فى ذلك اليوم أن عبيد اسحق جاءوا واخبروه عن البئر التى حفروا وقالوا له قد وجدنا ماء . فدعاها شِبعة لذلك اسم المدينة بئر سبع إلى هذا اليوم » (ع ٣١ - ٣٣) .

قول الكتاب « ثم بكروا فى الغد وحلفوا بعضهم لبعض وصرفهم اسحق فمضوا من عنده بسلام » مشيراً بهذا إلى أن القوم وفدوا إلى اسحق بغاية الخوف متوقعين الهلاك فاجتهدوا فى إقامة العذر عنده عن جميع ما جرى .

أرأيت كيف أنه لا يوجد شيء أقوى من الفضيلة ، ولا أقدر من الحاظى بالمؤازرة الإلهية ؟ .

« ولما كان عيسو ابن أربعين سنة اتخذ زوجة يهوديت [١٥٠] ابنة بيرى [١٥١] الحثى وبسمة [١٥٢] ابنة ايلون [١٥٣] الحثى . فكانتا مرارة نفس لاسحق ورفقة » (ع ٣٤ ، ٣٥) .

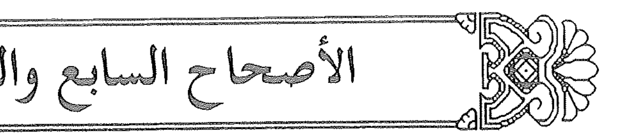
قول الكتاب « ولما كان عيسو ابن أربعين سنة » فإن للقائل أن يقول : لأى حال ذكر لنا الكتاب عدد سنى عيسو ؟! فنجيبه : لم يفعل ذلك عبثا ، بل أراد أن نعلم من هنا شيخوخة اسحق ، والدليل على ذلك اننا إذا ما ذكرنا ما سبق من المقولات ، وهو أن اسحق كان ابن أربعين سنة عند أخذه لرفقة (تك ٢٥ : ٢٠) ، وعندما جاءه الولدان كان ابن ستين سنة (تك ٢٥ : ٢٦) فيكون سنه الآن مئة سنة ، وحاله قد انتهت إلى غاية الكبر .

ولرغبة الكتاب أيضا أن نفهم إقدام عيسو وأنه ما كان يجب عليه أن يتزوج من الأمم ذكر لنا أنه « اتخذ زوجة يهوديت ابنة بيرى الحثى وبسمة ابنة ايلون الحثى » ، فقد كان من اللائق به إذ قد عرف اجتهاد أب الآباء في زيجة ابنه اسحق أن تكون المرأة من قبيلته من حاران ، إلا أن عيسو ما رأى هذا الرأى ، ولا استجاز هذا الفعل بل تقدم ففعل هذا الفعل وأخذ المرأتين من هاتين القبيلتين برهانا على سيرته .

وأراد الكتاب الإلهى أن يفيدنا بسوء سيرة المرأتين قال عنهما « فكانتا مرارة نفس لاسحق ورفقة » فماذا يكون أردأ من هذه المعاملة وهو أن هاتين المرأتين قبحتا السيرة مع مَنْ كان يجب أن يكرماهما غاية الإكرام .



(١٥٠) يهوديت : اسم عبرى معناه « يهودية » .
(١٥١) بيرى : اسم عبرى معناه « صاحب بئر » .
(١٥٢) بسمة : اسم عبرى معناه « عطرة » .
(١٥٣) ايلون : اسم عبرى معناه « بلوطة » .



الأصحاح السابع والعشرون

« وحدث لما شاخ اسحق وكلت عيناه عن النظر انه دعا عيسو ابنه الاكبر وقال له يا ابنى فقال له هانذا . فقال اننى قد شخت ولست اعلم يوم وفاتى فالآن خذ عدتك جعبتك [١٥٤] وقوسك واخرج إلى البرية وتصيد لى صيداً . واصنع لى اطعمة كما أحب وأتنى بها لآكل حتى تباركك نفسى قبل ان اموت » (ع ١ - ٤) .

تأمل هنا أيها الخليل حكمة الله التى لا توصف وكيف أمر اسحق ابنه عيسو بما أمره به لفرط محبته الطبيعية .

« وكانت رفقة سامعة إذ تكلم اسحق مع عيسو ابنه فذهب عيسو إلى البرية كى يصطاد صيداً ليأتى به . واما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة إنى قد سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلاً . ائتنى بصيد واصنع لى اطعمة لآكل واباركك امام الرب قبل وفاتى . فالآن يا ابنى اسمع لقولى فى ما انا آمرك به . اذهب إلى الغنم وخذ لى من هناك جديين جيدين من المعزى فاصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب فتحضرها إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته » (ع ٥ - ١٠) .

تأمل مودة الأم ، لا بل تدبير الله ، لأنه هو الذى أنهض إياها إلى هذا الرأى ، والمعطى كل هذه الأمور ، أشاهدت سديد رأى الأم ؟ .

« فقال يعقوب لرفقة أمه هوذا عيسو أخى رجل أشعر وانا رجل أملس . ربما يجسنى أبى فأكون فى عينيه كمتهاون وأجلب على نفسى لعنة لا بركة » (ع ١١ ، ١٢) .

انظر أيضا حرص يعقوب ، وكيف دل على عظيم صفاته ، ولطيف خصاله ، إن وفاء الفتى لغزير وإن حياءه من أبيه لجم كثير .

« فقالت له أمه لعنتك علىّ يا ابنى اسمع لقولى فقط واذهب خذ لى . فذهب واخذ واحضر لأمه فصنعت أمه اطعمة كما كان أبوه يحب » (ع ١٣ ، ١٤) .

---

(١٥٤) الجعبة : ما توضع فيه السهام .

لما كانت رفقة قد فعلت ما فعلت لا عن رأيها وحسب بل وقد انقادت للانذار الإلهى اجتهدت غاية الاجتهاد فى إزالة الخوف من قلب يعقوب وشجعته على إبراز ما اشارت به إلى الفعل ، ولم تعده انه يقدر أن يصادم أباه فيخفى أمره عنه بل قالت له « اسمع لقولى فقط » هذه هى مودة الأم الحقيقية إذ تتهيأ لملاقاة سائر الأمور من جراء ابنها .

« واخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الاكبر الفاخرة (١٥٥) التى كانت عندها فى البيت وألبست يعقوب ابنها الأصغر . وألبست يديه وملاسة عنقه جلود جدى المعزى . وأعطت الاطعمة والخبز التى صنعت فى يد يعقوب ابنها » (ع ١٥ - ١٧) .

تأمل هنا حكمة رفقة الجمة ، مع خالص ودادها ، وذلك أنه لما كان عيسو رجلاً أشعر ويعقوب أملس ، حسبما ذكره الكتاب من قبل ، ألبست يعقوب لباس عيسو ووشحته من سائر الجهات بجلود المعزى حرصا على إبراز الخدعة إلى الفعل ، ودفعت إليه الطعام والخبز ورسمت له أن يقدم ذلك إلى أبيه .

« فدخل إلى ابيه وقال يا ابى فقال هانذا مَنْ انت يا إبني . فقال يعقوب لأبيه أنا عيسو بكرك قد فعلت كما كلمتنى قم اجلس وكُلْ من صيدى لكى تباركنى نفسك » (ع ١٨ ، ١٩) .

تأمل أيها الخليل مقدار الخوف الذى أحاط يعقوب حين خاطب أباه ؛ لأنه هو القائل لأمه من قبل « ربما يجسنى أبى فأكون فى عينيه كمتهاون وأجلب على نفسى لعنة لا بركة » (ع ١٢) ، فمن الواجب أن يكون قد شمله جزع هذا محله إذا تأمل ما يقوم بفعله .

وإذا امعنت النظر فى أن اسحق لم يحس بالخدعة بل سَمِع لما خاطبه به يعقوب وأكل ما قدم له متمتعاً به وقابله ذلك بالبركة صح لك الدليل على أن الله هو الذى سمح بذلك .

---

(١٥٥) يرى البعض أنه كان للابن الاكبر رتبة كاهن فى البيت وأنه لما شاخ اسحق واظلمت عيناه ، وكان عيسو ينوب عنه فى تقديم الذبائح ، والظاهر أنه كان لعيسو ثياب مختصة بذلك لأن الثياب المعتادة لا وجه لها لأن تحفظ فى خيمة أمه بل الوجه أن تحفظ فى خيمة عيسو أو خيمة إحدى زوجاته .

« **فقال اسحق لابنه ما هذا الذى أسرعت لتجد يا ابنى فقال إن الرب الهك قد يسر لى** » (ع ٢٠) .

إن تأخر عيسو أيضا عن المجئ من الصيد إلى أن فرغ يعقوب مما يحتاج اليه ، يحقق فى نفوسنا أن ما جرى عن قصد الله .

« **فقال اسحق ليعقوب تقدم لأجسك يا ابنى أأنت هو ابنى عيسو أم لا** » (ع ٢١) .

إن الشك ألمّ باسحق من قِبَل الصوت إلا أنه لما كان الأمر داعيا إلى كمال السياسة وبروزها إلى الفعل لم يفسح للصديق الإحساس بالخدعة .

« **فتقدم يعقوب إلى اسحق أبيه فجسه وقال الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو . ولم يعرفه لأن يديه كانتا مشعرتين كيدى عيسو أخيه فباركه** » (ع ٢٢ ، ٢٣) .

تأمل كيف وضح الدليل على أن تفضل الله فعل جميع ذلك من أن اسحق لم يشعر بشىء مما جرى وأن يعقوب تمتع بالبركة .

« **وقال هل أنت هو ابنى عيسو فقال أنا هو** » (ع ٢٤) .

انظر الكتاب الإلهى كيف يبيّن أن اسحق تشكك لأنه قال « هل أنت هو ابنى عيسو » ، إذ أوضح الكتاب لنا ذلك لنعلم أن الأب استولت عليه المودة الطبيعية ففعل جميع ما فعل ، وأما الله العارف بالمستقبل والمشهر عبيده والمبرز إياهم فى حُلل فضائلهم ، فساس كل ذلك سياسة هذه صفتها .

« **فقال قدم لى لآكل من صيد ابنى حتى تباركك نفسى فقدم له فأكل وأحضر له خمراً فشرب** » (ع ٢٥) .

وبهذا القول قد زال شطر من خوف يعقوب .

« **فقال له اسحق أبوه تقدم وقبِّلنى يا ابنى . فتقدم وقَّبَله فشم رائحة ثيابه وباركه وقال انظر رائحة ابنى كرائحة حقل قد باركه الرب** » (ع ٢٦ ، ٢٧) .

تأمل حُسن تحفظ الكتاب الإلهى ، والدليل على ذلك أنه لما سأل اسحق يعقوب « هل أنت هو ابنى عيسو فقال أنا هو » (ع ٢٤) ، ثم أحضر له الطعام وأكل حينئذ قال عنه الكتاب « فشم رائحة ثيابه وباركه » ، فأراد بذلك أن يحقق فى نفس السامع أن الذى باركه هو الذى قبّله ، وذاك يعقوب لا محالة .

« فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض وكثرة حنطة وخمر » (ع ٢٨) .

تأمل كيف أن اسحق يسأل الله أن يضاعف لابنه ما لابد منه .

« ليستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل كن سيداً لإخوتك وليسجد لك بنو أمك ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين » (ع ٢٩) .

قول اسحق ليعقوب « ليستعبد لك شعوب » إذ ذكر رئاسته على الأمم ، وما يصير إليه من حُسن الحال .

وقوله « وتسجد لك قبائل » أى أن الرؤساء يسجدون له .

وقوله « كن سيداً لاخوتك » أى أنه يسود على أخيه .

وقوله « ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين » هذه هى غاية التبريك ، هذا بداية جميع الخيرات وهو أن يكون مباركاً ، أرأيت محبة الله للبشر ؟ إذ إن يعقوب الذى خاف أن ينال لعنة بدلاً من بركة ، ليس أنه صادف من أبيه بركة هذا محلها وحسب ، بل وأنه لعن كل مَنْ يشرع فى لعنته .

« وحدث عندما فرغ اسحق من بركة يعقوب ويعقوب قد خرج من لدن اسحق أبيه إن عيسو أخاه اتى من صيده . فصنع هو أيضا اطعمة ودخل بها إلى أبيه وقال لأبيه ليقم أبى ويأكل من صيد ابنه حتى تباركنى نفسك » (ع ٣٠ ، ٣١) .

مَنْ ذا الذى لا يندهل ويعجب من سياسة الله التى لا توصف ، وذلك أن عيسو لم يأت أولاً من الصيد إلى أن ظفر يعقوب بالبركة من أبيه وفرغ مما يحتاج إليه وانصرف .

تأمل كيف جاء عيسو بعد خروج يعقوب ، وليقدم هو أيضا لأبيه الطعام لجهله بالحال ، ويعرف منه ما جرى ، فلو انه صادف يعقوب لكان قتله لفرط غضبه وتعاظم

غيظه ، إلا أن يد الله كانت الصائنة ليعقوب والمؤهلة إياه لهذه البركة ، والمعدمة عيسو إياها .

« فقال له اسحق أبوه مَنْ أنت فقال أنا ابنك بكرك عيسو » (ع ٣٢) .

قول اسحق لعيسو « مَنْ أنت » انظر إلى اسحق قلقاً أيضا منزعج الفكر ، فإنه لما سمع من عيسو ما سمعه قال له « مَنْ أنت » .

وقول عيسو لأبيه « أنا ابنك بكرك عيسو » ، تأمل فرط تبجح عيسو بهذا الأمر ، إذ إنه لم يكتف بأن يقول : أنا عيسو بل أضاف إلى ذلك « بكرك » .

« فارتعد اسحق ارتعاداً عظيما جداً وقال فمَنْ هو الذى اصطاد صيداً واتى به إلىّ فأكلت من الكل قبل أن تجئ وباركته نعم ويكون مباركا » (ع ٣٣) .

تأمل الصديق كيف مع حيرته قد شرح لعيسو الحال وأضاف إلى ذلك شيئا قاتلاً وهو قوله عن يعقوب « وباركته نعم ويكون مباركا » ، إذ إن حكمة الله هى التى أرشدت الصديق ، ونطقت على لسانه حتى قال هذا رغبة فى أن يعلم عيسو الحال عن آخرها ويتحقق تحققاً لا يشوبه شك ، لأنه لا طائل يأتى له من البكورية ولا من الصيد .

« فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة ومُرة جداً وقال لأبيه باركنى أنا ايضا يا أبى » (ع ٣٤) .

فدل بذلك على عظم معاناته ، وغزير حقده اللذين قد امتلأ منهما قلبه حين علم هذا الخبر .

« فقال قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك » (ع ٣٥) .

ومما يحقق فى نفسك أيها الخليل أن السياسة الإلهية دلت الصديق على هذا الأمر واقراره به بقوله « جاء أخوك بمكر » فكأنه يعتذر عن يعقوب ، ويعرّفه أن تبريكه كان على سبيل الجهل منه بالقضية ، وأنه ما كان مستعداً لأن يبارك إلا له (أى لعيسو) .

وقول اسحق لعيسو « جاء أخوك بمكر واخذ بركتك » وكأنه يقول له : إن ما أعددته برسمك جاء ذاك فأخذه من غير أن أكون أنا السبب .

« فقال ألا أن اسمه دعى يعقوب فقد تعقبنى الآن مرتين اخذ بكوريتى وهوذا الآن قد اخذ بركتى ثم قال أما بقيت لى بركة . فاجاب اسحق وقال لعيسو إنى قد جعلته سيداً لك ودفعت إليه جميع اخوته عبيداً وعضدته بحنطة وخمر فماذا أصنع إليك يا ابنى » (ع ٣٦ ، ٣٧) .

تأمل كيف ابتدأ الصديق بإعلام عيسو بتعبده ليعقوب ورضوخه له إذ قال « انى قد جعلته سيداً لك ودفعت إليه جميع اخوته عبيداً » .

« فقال عيسو لأبيه ألك بركة واحدة فقط يا أبى باركنى أنا ايضا يا أبى ورفع عيسو صوته وبكى » (ع ٣٨) .

قول عيسو لأبيه « ألك بركة واحدة فقط يا أبى باركنى أنا أيضا يا أبى » ، وبهذه المفاوضة قد استعطف عيسو أباه غاية الاستعطاف .

وقول الكتاب « ورفع عيسو صوته وبكى » ، لأن عيسو لما رأى نفسه حائراً وعلى استرجاع الأمر ليس قادراً اضاف إلى البكاء عويلاً ، رغبة فى ترقيق قلب أبيه وجذبه إلى التحنن .

« فأجاب اسحق ابوه وقال له هوذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك وبلا ندى السماء من فوق . وبسيفك تعيش ولأخيك تستعبد ولكن يكون حينما تجمح انك تكسر نيره عن عنقك » (ع ٣٩ ، ٤٠) .

فكأن الصديق يقول لعيسو : إذ كنت قد طلبت بركتى فاعلم انه ما يمكننى أن أفعل ما يخالف غرض الله ، لكننى أنا أرغب إليه أن ينعم عليك من ندى السماء بما تتمتع به ، واعلم أن تصرفك يكون تصرف أهل الحرب ومن سيفك يكون معاشك ولأخيك تستعبد .

« فحقد عيسو على يعقوب من أجل البركة التى باركه بها أبوه وقال عيسو فى قلبه قربت أيام مناحة أبى فأقتل يعقوب اخى » (ع ٤١) .

إن الغضوب لمشابه المجانين ! ! .

« فأُخبرت رفقة بكلام عيسو ابنها الأكبر فارسلت ودعت يعقوب ابنها الأصغر وقالت له هوذا عيسو أخوك متسل من جهتك بأنه يقتلك . فالآن يا ابنى

اسمع لقولي وقم اهرب إلى أخي لابان إلى حاران . واقم عنده أياماً قليلة حتى يرتد سخط أخيك . حتى يرتد غضب أخيك عنك وينسى ما صنعت به ثم أرسِل فآخذك من هناك لماذا أعدم اثنيكما في يوم واحد » (ع ٤٢ - ٤٥) .

لما نظر عيسو أخاه قد ظفر بتبريك أبيه ، حركه الغم فابتدأ ينفذ فيه القتل ، إلا أن أمه العجيبه إذ أحست بهذا الأمر ، عاودت ابنها يعقوب بالمشورة على تخليصه من يدى أخيه ، محبة له وترأفا عليه ، لأن الكتاب يقول عنها « فارسلت ودعت يعقوب ابنها » .

تأمل حرص هذه المرأة ، وكيف أخذت تلطف مع ابنها الحال وتشد عزيمته وتطيب نفسه خوفاً من أن يصعب عليه النزوح عن الوطن والوفود إلى الغربة ، فأول ما قالته له « قم اهرب الى أخي لابان » فكأنها تقول له ألعلنى احثك على المسير إلى رجل غريب إنما أبعثك إلى أخى .

تأمل عقل هذه الأم ، وكيف تحركت إلى ايراد هذا الأمر السديد من ذاتها ، لا بل طابقت الإنذار الإلهى ، فأشارت على ابنها بما أشار به المسيح على تلاميذه إذ قال لهم « ومتى طردوكم من هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى » (مت ١٠ : ٢٣) ، وهذا الأمر بعينه فعلته هذه المرأة مع ابنها وفتاها يعقوب ، فاولاً أشارت عليه وقوّت عزيمته خوفا من أن يكره الفراق ، ثم بعد ذلك أوردت للهروب سببا واضحا لئلا يظهر أن نزوحه عن الوطن من أجل حسد أخيه عيسو .

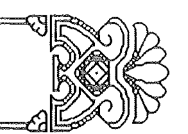
« وقالت رفقة لاسحق مللت حياتي من أجل بنات حث ان كان يعقوب يأخذ زوجة من بنات حِث مثل هؤلاء من بنات الأرض فلمَاذا لي حيوة» (ع ٤٦) .

على ما اظن إنها تشير هنا إلى سوء طريقة امرأتي عيسو ، إذ إنهما قد نغصتا عليها حياتها مع اسحق ، والدليل على ذلك أن الكتاب الإلهى قد ذكر لنا فيما سبق فقال «ولما كان عيسو ابن اربعين سنة اتخذ زوجة يهوديت ابنة بيرى الحثي وبسمة ابنة ايلون الحثي . فكانتا مرارة نفس لاسحق ورفقة » (تك ٢٦ : ٣٤ ، ٣٥) فكأنها تقول : قد علمت يا هذا إن امرأتي عيسو قد نغصت علينا الحياة ، وإننى كارهة من أجل سوء طرائقهما ، ومبغضة لكل بنات قبيلة بنى حِث من جرائمهم ، فإن تزوج يعقوب بامرأة

من هؤلاء ، فأى فرح يكون لى ، فإن كنا لم نطق امرأتى عيسو ، وتزوج يعقوب من بنات هذه الأرض فلا محالة أنه لاحياة تكون لنا .

تأمل كيف أوجدت هذه المرأة حجة أكيدة ، لأن اليمين الإلهية متى عاضدتنا سَهُل المستعصب وأمكن المتعذر ، إذ ألقى إله الكل فى خلد هذه المرأة الفاضلة ما يؤول السياسة المطلوبة وخلاص يعقوب .





الأصحاح الثامن والعشرون

« فدعا اسحق يعقوب وباركه واوصاه وقال له لا تأخذ زوجة من بنات كنعان . قم اذهب إلى فدان ارام إلى بيت بتوئيل ابى أمك وخذ لنفسك زوجة من هناك من بنات لابان أخى أمك والله القدير يباركك ويجعلك مثمراً ويكثرك فتكون جمهوراً من الشعوب . ويعطيك بركة ابراهيم لك ولنسلك معك لترث أرض غربتك التى أعطاها الله لابراهيم . فصرف اسحق يعقوب فذهب إلى فدان أرام إلى لابان بن بتوئيل الأرامى أخى رفقة أم يعقوب وعيسو » (ع ١ - ٥) .

لما سمع اسحق كلام رفقة ومشورتها فى ألا يتزوج يعقوب من بنات حث ، وتذكر الشر الذى يأتى من تزوج يعقوب من بنات حث ، استدعى يعقوب وباركَه وأوصاه أن يأخذ له زوجة من بنات لابان ، ولم يكتف بهذا بل كرر عليه البركة ، رغبة فى تقوية عزيمته وتشجيعه على السفر قائلاً له « والله القدير يباركك ويجعلك مثمراً ويكثرك فتكون جمهوراً من الشعوب » .

انظر كيف أن الصديق ينذر يعقوب بجميع ما سيجرى معزياً إياه غاية التعزية ، مزوداً له من التعزية زاداً مجزياً .

أشاهدت أيها الخليل بأى حرص انقذت هذه الأم المُحبة لابنها يعقوب من الهلاك ، وكيف وضعت للسفر شكلاً لم يفهمه لا عيسو بالسر ، ولا الأب بالعلة ؟ فأشارت على يعقوب المشورة اللائقة حرصا على أن يعمل بحسب ما رسمته له ، وقررت معه رأيا مطابقاً لرأى الأب ، ولذلك سمع اسحق قولها وأعطاه البركة وصرفه .

« فلما رأى عيسو اسحق بارك يعقوب وأرسله إلى فدان أرام ليأخذ لنفسه من هناك زوجة إذ باركه وأوصاه قائلاً لا تأخذ زوجة من بنات كنعان وأن يعقوب سمع لأبيه وأمه وذهب إلى فدان أرام رأى عيسو أن بنات كنعان شريرات فى عينى اسحق أبيه فذهب عيسو إلى اسمعيل وأخذ مَحْلة [١٥٦] بنت اسمعيل بن ابراهيم أخت نبايوت زوجة له على نسائه » (ع ٦ - ٩) .

---

(١٥٦) مَحْلة : اسم عبرى معناه « مرض » .

تزوج عيسو زوجة هى « مَحْلة بنت اسمعيل بن ابراهيم » تلافياً لغلطاته وإستعطافاً لأبيه .

« فخرج يعقوب من بئر سبع وذهب نحو حاران . وصادف مكانا وبات هناك لأن الشمس كانت قد غابت وأخذ من حجارة المكان ووضعه تحت رأسه فاضطجع فى ذلك المكان » (ع ١٠ ، ١١) .

أرأيت هذه الحكمة التى لا توصف ؟ أشاهدت كيف كان سفر القدماء ؟ إذ إن يعقوب الرجل الذى قد تربى فى الخيمة مخدوماً مرفهاً ، والدليل على ذلك قول الكتاب « ويعقوب إنسانا كاملاً يسكن الخيام » (تك ٢٥ : ٢٧) ، لكن لما طُلب منه السفر لم يحتج إلى دواب ولا إلى رفقاء ولا إلى زاد ، بل شابه السيرة الرسولية .

وقول الكتاب عن يعقوب « وأخذ من حجارة المكان ووضعه تحت رأسه فاضطجع فى ذلك المكان » انظر شجاعة الفتى وذلك انه استعمل الحجر عوضا عن المخدة ، ونام على الصحراء لهذا السبب أُهل لذلك المنظر العجيب .

« ورأى حُلما واذا سُلم منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء وهوذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها » (ع ١٢) .

تأمل هنا زيادة اهتمام الله المحب للبشر ، فإنه لما رأى يعقوب ملازما للسفر خوفاً من أخيه عيسو حسبما أشارت به عليه أمه وقد اجتهد فى ذلك ملقيا مقاليد أموره على المؤازرة الإلهية ، فللحين بادر الله إلى تقوية عزيمته وتنشيطه على مواجهة الغربة ، ومعاناة الطريق .

« وهوذا الرب واقف عليها فقال أنا الرب إله ابراهيم أبيك وإله اسحق الأرض التى أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك . ويكون نسلك كتراب الأرض وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً ويتبارك فيك وفى نسلك جميع قبائل الأرض » (ع ١٣ ، ١٤) .

وكأن الله يقول هنا ليعقوب : لا تظن من أجل أنك قد وجُدت فى الغربة أنك تفقد الأرض التى ولدت فيها وتربيت ونشأت ، بل اعلم إننى سانعَم بها عليك وعلى نسلك الذى أجعله يشابة تراب الأرض كثرة وينتشر فى سائر أقطار الأرض .

تأمل كيف ينذر الله بكل ما سيكون ، لأن هذه العادة عادة خالق العالم وسيد الكل مع كل واحد من الأبرار .

« وها أنا معك واحفظك حيثما تذهب وأردك إلى هذه الأرض لأنى لا اتركك حتى افعل ما كلمتك به » (ع ١٥) .

قول الرب ليعقوب « وها أنا معك واحفظك حيثما تذهب » ، تأمل الرب الصالح كيف يقوّى عزيمة الصديق عند إحتياجه إلى تعزية شافيه على ما هو فيه ويجعله يثق بما وعده بما يظهره له الآن ، فكأنه يقول له : لا تظن يا هذا إننى أعدك بهذه الأمور وحسب بل اكون معك الآن حافظا حيثما سرت وتوجهت ، ولا تظن أنك وحدك تسافر فأنا اكون معك فى الطريق مراعيا لك فى جميعها ممهداً لك ما تعذر .

وقوله « وأردك إلى هذه الأرض »،أى لا تفزع فزع مَنْ هو فى الغربة ، لأننى سأردك الى هذه الأرض ولا أتخلى عنك . فمَنْ ذا الذى لا يذهل من محبة الله للبشر . ومن فرط تنازله الذى لا يوصف ، وتأمل جزيل ما وعد به الصديق وكيف قوّى عزيمته .

« فاستيقظ يعقوب من نومه وقال حقا ان الرب فى هذا المكان وانا لم أعلم . وخاف وقال ما ارهب هذا المكان ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء . وبكّر يعقوب فى الصباح وأخذ الحجر الذى وضعه تحتْ رأسه واقامه عموداً وصب زيتا على رأسه . ودعا اسم ذلك المكان بيت ايل ولكن اسم المدينة اولا كان لوز » (ع ١٦ - ١٩) .

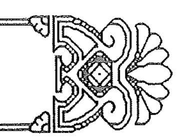
لما ذُهل الصديق من غزير مودة الله للبشر جزع فقال « ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء » .

« ونذر يعقوب نذرا قائلاً إن كان الله معي وحفظني فى هذا الطريق الذى أنا سائر فيه واعطانى خبزاً لآكل وثيابا لألبس . ورجعت بسلام إلى بيت أبى يكون الرب لي إلهاً . وهذا الحجر الذى اقمته عموداً يكون بيت الله وكل ما تعطينى فأنى اعشّره لك » (ع ٢٠ - ٢٢) .

قول يعقوب للرب « إن كان الله معى وحفظنى فى هذا الطريق الذى أنا سائر فيه واعطانى خبزا لآكل وثيابا لألبس » ، فلم يلتمس لا ثروة ولا غنى بل خبزاً وثوباً ، أما الخبز فلحاجته إلى الغذاء ، وأما الثوب فليستر جسده . تأمل وفاء الصديق وكيف انه لما طلب لم يطلب شيئا طائلاً بل خبزاً وثوباً .

وقوله « وكل ما تعطينى فانى أُعشره لك » أشاهدت هذه النفس المحبة لله ، وكيف نذر لله تقدمة العشر قبل أن ينال شيئاً ؟ .





الأصحاح التاسع والعشرون

« ثم رفع يعقوب رجليه وذهب إلى ارض بنى المشرق ونظر وإذا فى الحقل بئر وهناك ثلاثة قطعان غنم رابضة عندها لأنهم كانوا من تلك البئر يسقون القطعان والحجر على فم البئر كان كبيراً . فكان يجتمع إلى هناك جميع القطعان فيدحرجون الحجر عن فم البئر ويسقون الغنم ثم يردون الحجر على فم البئر إلى مكانه . فقال لهم يعقوب يا إخوتى من أين أنتم فقالوا نحن من حاران . فقال لهم هل تعرفون لابان بن ناحور فقالوا نعرفه . فقال لهم هل له سلامة فقالوا له سلامة وهوذا راحيل ابنته آتية مع الغنم . فقال هوذا النهار بعد طويل ليس وقت اجتماع المواشى اسقوا الغنم واذهبوا ارعوا . فقالوا لا نقدر حتى تجتمع جميع القطعان ويدحرجوا الحجر عن فم البئر ثم نسقى الغنم » (ع ١ - ٨) .

امعن النظر فى تلطف الله ، وغزير صبر هذا الصديق وجميل وفائه ، والدليل على ذلك أنه نهض بعد أن سمع من الله تلك المواعيد التى وعده بها وذهب إلى حاران مسافراً أيضا سفراً غريباً حائراً ، حاظيا فى جميع ذلك بالمؤازرة الإلهية ، وكان الله المحب للبشر له رائداً وبالمواعيد وافياً ، لأن القائل له « وها أنا معك واحفظك حيثما تذهب » (تك ٢٨ : ١٥) ، هو هداه وقاده إلى بئر الماء حيث كان أهل بنى المشرق يسقون مواشيهم واستعلم منهم عن حال لابان خاله وعلم جميع أموره .

« وإذ هو بعد يتكلم معهم اتت راحيل مع غنم أبيها لأنها كانت ترعى . فكان لما ابصر يعقوب راحيل بنت لابان خاله وغنم لابان خاله أن يعقوب تقدم ودحرج الحجر عن فم البئر وسقى غنم لابان خاله وقبّل يعقوب راحيل ورفع صوته وبكى . واخبر يعقوب راحيل أنه أخو أبيها [١٥٧] وأنه ابن رفقة فركضت واخبرت أباها . فكان حين سمع لابان خبر يعقوب ابن أخته أنه ركض للقائه وعانقه وقبّله وأتى به إلى بيته فحدّث لابان بجميع هذه الأمور . فقال له لابان إنما أنت عظمى ولحمى فأقام عنده شهراً من الزمان » (٩ - ١٤) .

---

(١٥٧) الواقع أن يعقوب كان ابن اخت أبيها ، لكن العبرانيين استعملوا الأخ بمعنى القريب أحياناً .

لما رأى يعقوب أن راحيل والقوم لا يقدرون على إزالة الحجر وسقى الغنم ، أسرع هو متقويا بالمعونة الإلهية ونقل الحجر عن فم البئر ، الذى عجز أولئك عن زعزعته وسقى الغنم التى كانت راحيل ترعاها ، فسبق لابان بالإحسان، وتقدمه فى الاجمال والإمتنان .

ولما عرف يعقوب مَنْ هى راحيل ، ومن أين جاءت وقف، ولما كان الله مدبر الصديق فى سائر شئونه أنهض الفتاة إلى أن مضت إلى أبيها الذى هو خاله وأطلعته على جميع ما جرى وشرحت له ما عمله من الجميل معها ومع الذين كانوا معها، وأخبرته بأنه ليس هو غريباً ولا مجهولاً ، لكنه ابن أخته .

تأمل أيها المحب ايضاح الكتاب الإلهى وكيف يشرح لنا جميع الأمور شرحاً بليغا مفيداً لنا بسير القدماء وفرط اجتهادهم فى الإحسان إلى الضيف والدليل على ذلك أنه أراد أن يبرهن على حرص الفتاة، فلم يقل على الاطلاق أنها مضت وأخبرت أباها بما جرى، لكنه قال « فركضت وأخبرت أباها » أى أسرعت مبتهجة غاية الابتهاج .

وذكر الكتاب أيضا عن والد الفتاة لابان أنه لما وقف على ما فاوضته به ابنته أسرع هو أيضا إلى استقبال يعقوب، إذ يقول الكتاب « أنه ركض للقائه وعانقه وقبّله وأتى به إلى بيته » (ع ١٣)، وعندما علم لابان من جهة يعقوب جميع الأمر علماً لا يمازجه شك قال له « أنت عظمى ولحمى » (ع ١٤) .

وقول الكتاب عن يعقوب « فاقام عنده شهراً من الزمان » ، فى تفسح وراحة وبمعزل عن كل هم .

« ثم قال لابان ليعقوب ألانك أخى تخدمنى مجانا أخبرنى ما اجرتك . وكان للابان ابنتان اسم الكبرى ليئة [158] واسم الصغرى راحيل [159] وكانت عينا ليئة ضعيفتين واما راحيل فكانت حسنة الصورة وحسنة المنظر » (ع ١٥ - ١٧) .

ولما كان الله مدبرا للصديق فى سائر أحواله ومعضداً له فى كل أموره، نشّط لابان، وذلك أنه لما رأى وداعة الرجل قال له « ألانك أخى تخدمنى مجانا اخبرنى ما أجرتك » .

---

(١٥٨) ليئة : اسم عبرى معناه « بقرة وحشية » .

(١٥٩) راحيل: اسم عبرى معناه « شاة » .

ولما أظهر الصديق من حُسن الطبائع ولين الخلال ما شرّف موقعه ولطّف موضعه، لذلك بادر لابان إلى وعده بالمجازاة التى كان هو تائقاً إليها ومستغرماً بها.

لاحظ هنا كيف أن الصديق ما كان تستفزه شهوة القنيان ولا تشتمله محبة إحتشاد الأموال والدليل على ذلك أنه ما ساوم لابان فى الأجرة كما يفعل المستأجرون، ولا طلب منه شيئا البتة لكنه أظهر من العفة أعلاها .

« وأحب يعقوب راحيل فقال اخدمك سبع سنين براحيل ابنتك الصغرى . فقال لابان ان اعطيك إياها أحسن من ان اعطيها لرجل آخر اقم عندى. فخدم يعقوب براحيل سبع سنين وكانت فى عينيه كايام قليلة بسبب محبته لها » (ع ١٨ - ٢٠) .

انظر يا صاحب وفاء هذا الرجل، وكيف حدد لنفسه الزمان، وبرهن على رفعة عفته بمدة السنين.

ولا تعجب أيها الخليل من أن يعقوب شرط على نفسه خدمة سبع سنين من أجل حبه للفتاة ، لأن الكتاب الإلهى يوضح لنا مقدار تفاقم شوقه، وأنه لغزارته أزال التعب وقصّر المدة الطويلة إذ يقول الكتاب « فخدم يعقوب براحيل سبع سنين وكانت فى عينيه كأيام قليلة بسبب محبته لها » .

« ثم قال يعقوب للابان اعطنى امرأتى لأن ايامى قد كملت فأدخل عليها . فجمع لابان جميع اهل المكان وصنع وليمة » (ع ٢١ ، ٢٢) .

لما كملت السنوات السبع، وكانت على طولها كأيام قليلة عند يعقوب، لفرط حنينه إلى راحيل قال للابان « أعطنى امرأتى لأن أيامى قد كملت فأدخل عليها » .

« وكان فى المساء أنه أخذ ليئة ابنته وأتى بها إليه فدخل عليها. واعطى لابان زلفة(١٦٠) جاريته لليئة ابنته جارية » (ع ٢٣، ٢٤).

ينبغى لنا ألا نعبر هذه المقولات على الإطلاق ، لأننا قد نعاين منها فوائد عدة، أولها: بساطة يعقوب وكيف غُولط بليئة لتعريه من كل مكر ودهاء ، وثانيها: اننا نفهم من هذا الموقف صريح محبة لابان ليعقوب، والدليل على ذلك انه انما احتال هذه الحيلة رغبة فى بقاء يعقوب عنده مدة زيادة عما سبق.

(١٦٠) زِلفة : اسم عبرى ربما كان معناه « قصيرة الأنف » .

وتأمل ما فى يعقوب من كرم الخلال وحميد الخصال إذ إن لابان لما لم يقدر على اقناعه وابقائه عنده على وجه آخر غالطه، بأن دفع إليه ليئة مع زلفة جاريته .

« وفى الصباح اذا هى ليئة فقال للابان ما هذا الذى صنعت بى أليس براحيل خدمت عندك فلماذا خدعتنى فقال لابان لا يُفعل هكذا فى مكاننا ان تُعطى الصغيرة قبل البكر. اكمل اسبوع هذه فنعطيك تلك ايضا بالخدمة التى تخدمنى ايضا سبع سنين أُخر. ففعل يعقوب هكذا فأكمل اسبوع هذه فاعطاه راحيل ابنته زوجة له. واعطى لابان راحيل ابنته بلهة(١٦١) جارية لها » (ع ٢٥ - ٢٩) .

أرأيت كيف أن لابان فعل بيعقوب كل ما أراده بهذه الحيلة ؟ فأنه لما رأى فرط اشتياقه للفتاة قال له لا تظن يا هذا اننا قد ظلمناك ، فإن عادتنا هذه صفتها وهى أن نبدأ بتزويج الكبرى، وها قد فعلنا كذلك، أما التى أنت تائق إليها فتأخذها إن خدمتنى سبع سنين أُخر ، فلما دخل هذا الكلام إلى مسامع يعقوب قبله كله وأجاب إليه، ودفع لابان إليه راحيل ابنته امرأة له بعد السنين السبع .

فإن سمعت يا هذا أن يعقوب أخذ الكبرى ثم الصغرى أيضاً فلا تنزعج، ولا تقايس أحوال القدماء بالأمور الجارية الآن ؛ فانه لما كان ذاك الوقت وقت البداية جاز أن يتزوج الرجل واحدة واثنتين وثلاث رغبة فى انتشار الجنس البشرى، أما الآن فبتفضل الله قد كثر جنس البشر وتمت فيه نعمته بمجئ السيد المسيح وغرسه الفضيلة فى البشر، وجعله إياهم كالملائكة .

أنتظر كيف يجب أن نلتمس فى كل موضع الأمر النافع اللائق؟ والدليل على ذلك أن هذه العادة (الزواج بأكثر من واحدة) لما كانت ثقيلة استؤصلت وقُطعت حتى ان ولا واحد من الناس يسامح باستعمالها .

« فدخل على راحيل ايضا وأحب ايضا راحيل اكثر من ليئة وعاد فخدم عنده سبع سنين أُخر » (ع ٣٠) .

(١٦١) بِلهة : اسم عبرى معناه « بلهاء » .

لما كان جمال راحيل منذ البداية قد شاق يعقوب وراقه، لذلك قال عنه الكتاب الإلهى « وأحب أيضا راحيل اكثر من ليئة »، إذ تغرم براحيل أوفر من ليئة لغزير حُسنها ومعجز جمالها .

« ورأى الرب أن ليئة مكروهة ففتح رحمها وأما راحيل فكانت عاقراً » (ع ٣١) .

قول الكتاب « ورأى الرب أن ليئة مكروهة ففتح رحمها » فاستدل يا صاحب من هنا أن خالق الكل هو مدبر سائر الأمور وباعث الطبيعة على الولادة، وأنه لا فائدة تنجم من الجماع والمؤازرة الإلهية بمعزل عن ذلك ، لهذا السبب قال « ففتح رحمها » ، رغبة فى أن نعلم ارادة الرب أن تلد ليئة ليعزيها بذلك ويزيل ما بها من الحزن، لأن الرب خالق الأجنة فى الأرحام وباعث فيهم نسمة الحياة .

وقوله « ففتح رحمها وأما راحيل فكانت عاقراً »، انظر الكتاب الإلهى ، كيف يرينا خالق الطبيعة فاعلاً للأمرين كليهما بقدرته، من إمكان رحم ليئة من الحمل والولادة، ومنع رحم راحيل من ذلك ، لأنه لما كان الرب سيداً للطبيعة سهُل عليه كل ذلك .

وقوله « ورأى الرب أن ليئة مكروهة ففتح رحمها وأما راحيل فكانت عاقراً »، انظر حكمة الرب اللطيف الخبير، لما كانت الواحدة جذبت لب الرجل إليها بحسنها وبهائها، والأخرى فاقدة لما هذا صفته مطرحة مبغضة أنهض هذه إلى الولادة، ومنع هذه منه، ودبَّر الأمرين معا تدبيراً يناسب تمام رحمته ويشابه جزيل رأفته رغبة فى أن تتعزى هذه بالولد وتستميل الرجل إليها من أجله، وألا تتبجح اختها عليها لفرط جمالها .

« فحبلت ليئة وولدت ابنا ودعت اسمه رأوبين[١٦٢] لأنها قالت إن الرب قد نظر إلى مذلتى انه الآن يحبنى رجلى » (ع ٣٢) .

تأمل حُسن يقين المرأة بقولها « إن الرب قد نظر إلى مذلتى » .

وقولها « إنه الآن يحبنى رجلى »، لاحظ جود الله المحب للبشر، وفرط إحسانه، إذ جعل هذه حبيبة إلى رجلها رغبة فى إنماء نسله .

---

(١٦٢) رأوبين : اسم عبرى معناه « هوذا ابن » .

« وحبلت أيضا وولدت ابنا وقالت ان الرب قد سمع انى مكروهة فاعطانى هذا أيضا فدعت اسمه شمعون (١٦٣) » (ع ٣٣) .

تأمل كيف تشكر ليئة السيد الرب عن كل واحد من الولدَين، وتعترف له بجزيل العطية ، والدليل على ذلك قولها « إن الرب قد سمع انى مكروهة فأعطانى هذا أيضاً » ، ولذلك سمته « شمعون » .

أرأيت كيف سمت ليئة ابنها تسمية ليست عبثاً ؟ والدليل على ذلك أن معنى « شمعون » فى اللغة العبرية « يهوه يسمع » ، فسمته بهذا الاسم لما كان الرب قد سمع أنها مكروهة ؟ .

« وحبلت أيضاً وولدت ابنا وقالت الآن هذه المرة يقترن بى رجلى لأنى ولدت له ثلاثة بنين لذلك دُعى اسمه لاوى (١٦٤) » (ع ٣٤) .

على ما يلوح لى أن ليئة لم تقدر على استمالة رجلها إلى مودتها بولادة الولدَين بل كان مائلاً إلى راحيل ، ولذلك قالت « الآن هذه المرة يقترن بى رجلى » .

« وحبلت أيضاً وولدت ابنا وقالت هذه المرة أحمد الرب لذلك دعت اسمه يهوذا (١٦٥) ثم توقفت عن الولادة »(ع ٣٥) .

فإن قال قائل : ما معنى قول ليئة « هذه المرة أحمد الرب » ؟ أجيبه : أى اشكره واسبحه إذ قد زادنى ابناً رابعاً، وانعم علىّ إنعاماً هذا صفته، وما أفسد مودة رجلى من قباحة منظرى تلافته ولادة الأولاد الذين جاد علىّ بهم وأزال جميع كآبتى .



(١٦٣) شمعون : اسم عبرى معناه « يهوه يسمع » .
(١٦٤) لاوى : اسم عبرى معناه « مقترن » .
(١٦٥) يهوذا : إسم عبرى معناه « حمد » .




الأصحاح الثلاثـــون

« فلما رأت راحيل انها لم تلد ليعقوب غارت راحيل من اختها وقالت ليعقوب هَبْ لى بنين وإلا فأنا أموت » (ع ١) .

قول الكتاب « فلما رأت راحيل انها لم تلد ليعقوب غارت راحيل من اختها » ، إن هذه المسألة لنسائية ، ولا يوجد فيها شيء من الانتباه والتصور ، وبارزة عن نفس قد استولى عليها الحسد .

وقول راحيل ليعقوب « هَبْ لى بنين وإلا فأنا أموت » أما سمعت ان جماع الرجل لم يأت بالأولاد بل بالرب كقول الكتاب « ورأى الرب أن ليئة مكروهة ففتح رحمها » (تك ٢٩ : ٣١) . فلأى حال تلتمسين يا هذه من رجلك ما يغرب على الطبيعة، وتصرفين الشكوى نحوه وهو يعجز عن مؤازرتك فى هذا المطلب ، وتتركين سيد الطبيعة ؟ .

وقولها « هَبْ لى بنين وإلا فأنا أموت » إن الحسد لأمر ردئ جداً ، وقائد إلى الجهل ، وها قد عرض لهذه ، فإنها لما رأت جماعة أولاد أختها ، وتفكرت فى وحدتها وتغربها عن الأولاد ، طفح ذلك على قلبها ، فلم تطق حمله ولا الصبر عليه ، ولم تتمكنِ من تسكين افكارها المقلقة إياها بل تفوهت بتلك الألفاظ المفعمة جهلاً وقالت « هَبْ لى بنين وإلا فأنا أموت » .

« فحمى غضب يعقوب على راحيل وقال ألعلّى مكان الله الذى منع عنك ثمرة البطن » (ع ٢) .

وكأن يعقوب يقول لها : لأى حال تتركين سيد الطبيعة وتلومينى أأنا المفقدك ثمرة بطنك ؟! فلأى سبب لا تطلبين منه ما أنت تريدينه ، إذ هو قادر على تمكين الطبيعة فى العمل وانهاض الرحم إلى الولادة ؟! إعلمى يا هذه أن الله هو المانع إياك ثمرة جوفك والمنعم على اختك بكثرة الاولاد ، فلا تطلبى إذاً منى ما لا أصل إليه ولا أقدر عليه ، فان كان هذا مردود إلىّ وحكمى فيه نافذا ، ولىّ فيه يدّ ، فأنت تعلمين تقديمى إياكِ على أختك وانصبابى إلى جهتك دونها وفرط إكرامى لك ، وجميل اعتقادى فيكِ ، فإذا كانت هذه حالى معكِ ، من إخلاص المودة والمصافاة ، فلِمَ لا ابلغ لك

غرضك فى هذا الأمر ، فتيقنى اننى لا أقدر على ذلك البتة ، فالتمسى إذاً مرادك من الذى فى يده الحل والربط وهو على ما يشاء قدير .

« فقالت هوذا جاريتى بلهة ادخل عليها فتلد على ركبتى وارزق انا ايضا منها بنين . فاعطته بلهة جاريتها زوجة فدخل عليها يعقوب . فحبلت بلهة وولدت ليعقوب ابناً . فقالت راحيل قد قضى لى الله وسمع ايضا لصوتى واعطانى ابناً لذلك دعت اسمه دانا (١٦٦) . وحبلت ايضا بلهة جارية راحيل وولدت إبنا ثانيا ليعقوب . فقالت راحيل مصارعات الله قد صارعت اختى وغلبت فدعت اسمه نفتالى(١٦٧) » (ع ٣ ـ ٨) .

وتحققت راحيل بولادة جاريتها بلهة أن يعقوب ليس هو علة لعقريتها ، ولذلك ربت الولدين وتخصصت بهما وسمتهما متعزية بهذا الأمر غاية التعزية .

« ولما رأت ليئة انها توقفت عن الولادة اخذت زلفة جاريتها واعطتها ليعقوب زوجة . فولدت زلفة جارية ليئة ليعقوب ابناً فقالت ليئة بسعد فدعت اسمه جادا . (١٦٨) وولدت زلفة جارية ليئة ابنا ثانيا ليعقوب . فقالت ليئة بغبطتى(١٦٩) لانه تغبطنى بنات فدعت اسمه اشير(١٧٠) » (ع ٩ ـ ١٣) .

أرأيت كيف تخصصت ليئة بولادة جاريتها ووصفت نفسها بالسعادة بولادة الابنين ؟ .

« ومضى رأوبين فى ايام حصاد الحنطة فوجد لُفاحاً (١٧١) فى الحقل وجاء به إلى ليئة امه فقالت راحيل لليئة اعطنى من لُفاح ابنك . فقالت لها اقليل انك اخذت رجلى فتأخذين لُفاح ابنى ايضا فقالت راحيل إذا يضطجع معك الليلة عوضا عن لفاح ابنك » (ع ١٤ . ١٥) .

---

(١٦٦) دان : اسم عبرى معناه « قاض » .
(١٦٧) نفتالى : اسم عبرى معناه « مصارعتى » .
(١٦٨) جـاد : اسم عبرى معناه « طالع حسن » .
(١٦٩) الغبطة : المسرة .
(١٧٠) اشير : اسم عبرى معناه « سعيد » .
(١٧١) اللفاح : نبات من العائلة البطاطية، كانوا يعتقدون أنه تعويذة أو دواء يثير فى الشخص عاطفة الحب، يوجد فى وادى الأردن وعلى ضفاف الأنهر التى تصب فيه .

تأمل كيف أن ما يبرز بالفم ذاك الذى هو ما فى النفس ، ذلك لقول ليئة لراحيل « اقليل أنك اخذت رجلى فتأخذين لُفاح ابنى أيضاً » .

وقول راحيل لليئة « إذاً يضطجع معك الليلة عوضا عن لُفاح ابنك » ، تأمل كيف كان يعقوب منصبا إلى راحيل غاية الانصباب ، فقد كان مائلاً إلى جهتها هذا الميل ، ومصافياً لها هذه المصافاة على الرغم من أن ليئة انجبت له أربعة أولاد !! .

« فلما أتى يعقوب من الحقل فى المساء خرجت ليئة لملاقاته وقالت إلىّ تجئ لانى قد استأجرتك بلُفاح ابنى فاضطجع معها تلك الليلة . وسمع الله لليئة فحبلت وولدت ليعقوب ابنا خامسا . فقالت ليئة قد أعطانى الله اجرتى لانى اعطيت جاريتى لرجلى فدعت اسمه يسّاكر[١٧٢] وحبلت ايضا ليئة وولدت ابناً سادسا ليعقوب . فقالت ليئة قد وهبنى الله هبة حسنة الآن يساكننى رجلى لأنى ولدت له ستة بنين فدعت اسمه زبولون[١٧٣] . ثم ولدت ابنة ودعت اسمها دينة[١٧٤] . وذكر الله راحيل وسمع لها الله وفتح رحمها . فحبلت وولدت ابَناً فقالت قد نزع الله عارى . ودعت اسمه يوسف[١٧٥] قائلة يزيدنى الرب ابنا آخر » (ع ١٦ ـ ٢٤) .

أرأيت كيف بعد قليل برزت مواعيد الله إلى الفعل والدليل على ذلك أن الصديق امتلك حوله بغتة صف أولاد .

« وحدث لما ولدت راحيل يوسف أن يعقوب قال للابان اصرفنى لأذهب إلى مكانى وإلى ارضى . اعطنى نسائى واولادى الذين خدمتك بهم فأذهب لأنك انت تعلم خدمتى التى خدمتك » (ع ٢٥ ، ٢٦) .

تأمل حُسن وفاء الصديق وكيف أنه لم يتبجح على لابان بما عاينه من مراعاة الله له ، بل خاطبه بملاطفة وبوداعة قائلاً « اصرفنى لأذهب إلى مكانى » .

وإن قال قائل : لأى سبب التمس يعقوب من لابان المرأتين والأولاد ألعلهم ما كانوا

(١٧٢) يساكر : اسم عبرى معناه « يعمل بأجرة » .
(١٧٣) زبولون : اسم عبرى معناه « سكن » .
(١٧٤) دينة : اسم عبرى معناه « دينونة » .
(١٧٥) يوسف : اسم عبرى معناه « يزيد » .

معه ؟! أجيبه : بل كانوا معه ، إلا أنه فعل ما فعل إكراماً لحماه ودفعاً لموضعه ، مريداً أن يشهر سيرته وأن يسير منعتقاً .

« فقال له لابان ليتنى أجد نعمة فى عينيك قد تفاءلت فباركنى الرب بسببك . وقال عيّن لى أجرتك فأعطيك » (ع ٢٧ ، ٢٨) .

حقا إنه لا يوجد شيء أقوى من الوداعة ولا امكن ركنا من لين الجانب وخفض الجناح ، والدليل على ذلك أن يعقوب لما تقدم إلى لابان باستعمال السكينة والاتضاع كان ذلك من أبعث الاشياء للابان على أن أجابه أحسن جواب وألطفه ، وبيان ذلك أنه قال « ليتنى أجد نعمة فى عينيك فقد تفاءلت فباركنى الرب بسببك ، وقال عيّن لى اجرتك فأعطيك » ، وكأن لابان يقول ليعقوب إننى لا أجهل ما قد صار إلىّ من جميل نية الله بعد حضورك عندى ومقدار الإحسان الواصل إلىّ ، فمهما أردت من أجرة فاذكرها لى فإننى أفى بها لك .

انظر كيف أن يعقوب استمال لابان بهذا الخطاب حتى أن لابان وعده بزيادة أجره .

« فقال له انت تعلم ماذا خدمتك وماذا صارت مواشيك معى » (ع ٢٩) .

لم يُثقل يعقوب على لابان ولا اكرهه على أمر لا يستطيعة ، بل استشهد به على جميل وفائه وحُسن حاله فى هذا الزمان ، فقال « انت تعلم ماذا خدمتك وماذا صارت مواشيك معى » .

« لان ما كان لك قبلى قليل فقد اتسع إلى كثير وباركك الرب فى أثرى . والآن متى اعمل انا ايضا لبيتى » (ع ٣٠) .

قول يعقوب للابان « والآن متى أعمل أنا أيضاً لبيتى » ، أى متى أكون حراً أهتم بأمرى .

« فقال ماذا اعطيك فقال يعقوب لا تعطنى شيئا ان صنعت لى هذا الأمر اعود ارعى غنمك واحفظها . اجتاز بين غنمك كلها اليوم واعزل انت منها كل شاة رقطاء وبلقاء وكل شاة سوداء بين الخرفان وبلقاء ورقطاء بين المعزى فيكون مثل ذلك أجرتى . ويشهد فىّ برّى يوم غد إذا جئت من اجل اجرتى قدامك كل ما ليس ارقط أو ابلق بين المعزى واسود بين الخرفان فهو مسروق عندى .

فقال لابان هوذا ليكن بحسب كلامك. فعزل في ذلك اليوم التيوس المخططة والبلقاء وكل العناز الرقطاء والبلقاء كل ما فيه بياض وكل اسود بين الخرفان ودفعها إلى ايدى بنيه. وجعل مسيرة ثلاثة ايام بينه وبين يعقوب وكان يعقوب يرعى غنم لابان الباقية » (ع ٣١ ـ ٣٦) .

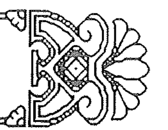
تأمل أى طلب تقدم به الصديق للابان لثقته بعناية الله به ، وعلمه بمقدار ما قد أُهل به من المؤازرة الإلهية .

« فأخذ يعقوب لنفسه قضبانا خُضْراً من لُبنى[١٧٦] ولوز[١٧٧] ودلب[١٧٨] وقشر فيها خطوطا بيضا كاشطا عن البياض الذى على القضبان . واوقف القضبان التى قشرها فى الأجران فى مساقى الماء حيث كانت الغنم تجىء لتشرب تجاه الغنم لتتوحم عند مجيئها لتشرب . فتوحمت الغنم عند القضبان وولدت الغنم مخططات ورقطاء وبلقاء . وأفرز يعقوب الخرفان وجعل وجوه الغنم إلى المخطط وكل اسود بين غنم لابان وجعل له قطعانا وحده ولم يجعلها مع غنم لابان . وحدث كلما توحمت الغنم القوية ان يعقوب وضع القضبان امام عيون الغنم فى الاجران لتتوحم بين القضبان وحين استضعفت الغنم لم يضعها . فصارت الضعيفة للابان والقوية ليعقوب . فاتسع الرجل كثيراً جداً وكان له غنم كثير وجوارٍ وعبيد وجمال وحمير » (ع ٣٧ ـ ٤٣) .

وهذا الفعل الذى فعله الصديق لم يكن منه بل الله هو الذى هداه إلى ذلك .



(١٧٦) لُبنى : اسم عبرى معناه « أبيض » ، وهو اسم يطلق على شجرة تعرف فى لبنان وسوريا بالحوز.
(١٧٧) لوز : فى العبرانية « لوز » أيضا ، وهو معروف .
(١٧٨) دلب : نوع من الشجر الذى ينمو عند جداول المياه .



الأصحاح الحادى والثلاثون

« فَسَمِعَ كلام بنى لابان قائلين اخذ يعقوب كل ما كان لأبينا ومما لأبينا صنع كل هذا المجد . ونظر يعقوب وجه لابان واذا هو ليس معه كأمس وأول من أمس » (ع ١ ، ٢) .

انظر يا صاحب الحسد الذى توجه إلى الصديق لأن الكتاب يقول « فَسَمِعَ كلام بنى لابان قائلين أخذ يعقوب كل ما كان لأبينا ومما لأبينا صنع كل هذا المجد » ، تأمل كيف قادهم الحسد إلى الخيانة والغدر ، وليس هم فقط بل ولابان نفسه ، لأن الكتاب يقول « ونظر يعقوب وجه لابان وإذا هو ليس معه كأمس » إذا إن كلام أولاده ازعج فكره وانساه ما كان قد فاوض به يعقوب ، فإن لابان الذى قال ليعقوب « ليتنى أجد نعمة فى عينيك قد تفاءلت فباركنى الرب بسببك » (تك ٣٠ : ٢٧) قد قلب الآن فكره أولاده ، وبرز فى صورة الحسد له .

أرأيت فرط وداعة الصديق وسوء تصرف اولئك لم يطيقوا ضبط الحسد وأقلقوا رأى أبيهم .

« وقال الرب ليعقوب ارجع إلى أرض آبائك وإلى عشيرتك فأكون معك » (ع ٣) ؟ .

إن الله لما رأى الصديق محسوداً من جهة بنى لابان قال له « ارجع إلى أرض آبائك وإلى عشيرتك فاكون معك » أى اكتف بهذا التصرف فى الغربة لأننى سأف لك الآن بما كنت وعدتك به قديما وهو « وها أنا معك واحفظك حيثما تذهب وأردكَ إلى هذه الأرض » (تك ٢٨ : ١٥) ، فعد إذاً غير خائف من شىء البتة لأنى معك .

« فأرسل يعقوب ودعا راحيل وليئة إلى الحقل إلى غنمه . وقال لهما انا أرى وجه ابيكما أنه ليس نحوى كأمس وأول من أمس ولكن إله ابى كان معى . وانتما تعلمان انى بكل قوتى خدمت اباكما . واما ابوكما فغدر بى وغير اجرتى عشر مرات لكن الله لم يسمح له ان يصنع بى شراً . وإن قال هكذا الرقط تكون اجرتك ولدت كل الغنم رقُطا وإن قال هكذا المخططة تكون اجرتك ولدت كل الغنم مخططة . فقد سلب الله مواشى ابيكما واعطانى . وحدث فى

وقت توحم الغنم أنى رفعت عينى ونظرت فى حلم واذا الفحول الصاعدة على الغنم مخططة ورقطاء ومنمرة . وقال لى ملاك الله فى الحلم يا يعقوب فقلت هانذا . فقال ارفع عينيك وانظر جميع الفحول الصاعدة على الغنم مخططة ورُقطاء ومّنمرة . لانى قد رأيت كل ما يصنع بك لابان . انا إله بيت ايل حيث مسحت عموداً حيث نذرت لى نذراً الآن قم اخرج من هذه الأرض وارجع إلى أرض ميلادك » (ع ٤ ـ ١٣) .

لما سمع الصديق من الله هذا القول « ارجع إلى أرض آبائك وإلى عشيرتك » (ع ٣) ، لم يمرض ولا توانى بل تهيأ ، لذلك أرسل هنا فاستدعى راحيل وليئة إلى البقعة التى كانت فيها المراعى ، وخاطبهما في معنى الرحيل ، وحسد ابيهما له ، وعرّفهما ما أمره الله به ، وأوضح لهما ان عناية الله به والمؤازرة الإلهية هى الفاعلة جميع هذا .

« فاجابت راحيل وليئة وقالتا له ألنا ايضا نصيب وميراث فى بيت ابينا . ألم نُحسب منه اجنبيتين لانه باعنا وقد أكل ايضا ثمننا . إن كل الغنى الذى سلبه الله من أبينا هو لنا ولأولادنا فالآن كل ما قال لك الله افعل » (ع ١٤ ـ ١٦) .

تأمل كيف أن راحيل وليئة أيضا تابعتان غرض الله ومفكرتان فكراً لا يشوبه ريب .

« فقام يعقوب وحمل اولاده ونساءه على الجمال . وساق كل مواشيه وجميع مقتناه الذى كان قد اقتنى مواشى اقتنائه التى اقتنى فى فدان أرام ليجيء إلى اسحق أبيه إلى أرض كنعان » (ع ١٧ ، ١٨) .

تأمل كيف طرح الصديق كل خوف ورضخ لأمر الرب ، لأنه لما رأى نية لابان قد فسدت لم يطعه كما فعل أولاً ، بل بادر إلى اتمام ما أمره به الرب وأخذ امرأتيه وأولاده .

« وأما لابان فكان قد مضى لجزّ غنمه فسرقت راحيل اصنام ابيها[١٧٩] » (ع ١٩) .

اجتهدت هذه المرأة فى أن تأخذ هذه الأصنام دون كل ما لأبيها ، وفعلها هذا كان خفية عن رجلها لأنه ما كان بالذى يسامحها بمثل هذا البتة .

(١٧٩) سرقت راحيل أصنام أبيها متوقعة أن يكون بها نجاح لنفسها ولزوجها .

« وخدع يعقوب قلب لابان الأرامى إذ لم يخبره بأنه هارب . فهرب هو وكل ما كان له وقام وعبر النهر وجعل وجهه نحو جبل جلعاد . فأُخبر لابان فى اليوم الثالث بأن يعقوب قد هرب . فأخذ أخوته معه وسعى وراءه مسيرة سبعة أيام فادركه فى جبل جلعاد » (ع ٢٠ - ٢٣) .

تأمل عظم سياسة الله ، إذ إنه لم يسمح للابان بمعرفة رحيل الصديق إلى أن بَعُدَ عن داره وأحس لابان بالقصة ، والدليل على ذلك قول الكتاب « فاُخبر لابان فى اليوم الثالث بان يعقوب قد هرب » .

وتأمل أيضا يا صاحب اهتمام الله الذى لا يوصف ، لأن القائل ليعقوب « ارجع إلى أرض آبائك وإلى عشيرتك فأكون معك » (ع ٣) ، هو المدبر الآن هذه السياسة .

« وأتى الله إلى لابان الأرامى فى حُلم الليل وقال له احترز من ان تكلم يعقوب بخير أو شر » (ع ٢٤) .

أى لا تُحزن الصديق ولا بالكلام ، بل تحفّظ واجمع جأشك واكبح ما عزمت عليه، وألجم غضبكَ وهدئ ثورتك ، وسكن تأثير وجدك ، واحذر أن تؤلم قلبه بلفظة .

امعن النظر فى محبة الله للبشر ، وذلك أنه لم يأمر لابان بالرجوع إلى دياره بل بألا يخاطب الصديق بشىء يثقل عليه سماعه وتكرهه نفسه .

« فلحق لابان يعقوب ويعقوب قد ضرب خيمته فى الجبل فضرب لابان مع اخوته فى جبل جلعاد » (ع ٢٥) .

فإن سألت : لأى حال ِفعل الله هذا « فلحق لابان يعقوب » ؟! أجبتك : رغبة فى أن يعلم الصديق من غير شك مقدار ما أهله من المؤازرة الإلهية ، والدليل على ذلك أنه لو كان رجع لابان لما كان يعقوب عرف هذا الأمر ولا جرمه ، لهذا السبب أطلق الله للابان المضى إلى الصديق وأن يعرّفه ما قاله له الله ليزداد الصديق نشاطا وشجاعة فى السفر ، ولتعرف ابنتا لابان مقدار ما قد أهله رجلهما من العناية الإلهية .

« وقال لابان ليعقوب ماذا فعلت وقد خدعت قلبى وسقت بناتى كسبايا السيف . لماذا هربت خفية وخدعتنى ولم تخبرنى حتى أشيعك

بالفرح والاغانى بالدف والعود . ولم تدعنى اقبّل بنىّ وبناتى الآن بغباوة فعلت» (ع ٢٦ ـ ٢٨) .

تأمل كيف أن أمر الله قد أخمد لهيب لابان وألجم غضبه ، ولذلك خاطب يعقوب خطاب وداعة وفاوضه مفاوضة ملاطفة ، فكأنه يعتذر إليه مقدماً له من الحنو ما يليق بالآباء الجذابين .

فإننا أيها الخلان إذا ما حظينا بالمؤازرة الإلهية فليس إننا ننجو من مكائد الاشرار ونفلت من حيل ذوى المكر والدهاء فقط ، بل ولو وجدنا بين الوحوش لما انضررنا من جهتها بشىء لأن رب الكل بعظيم قوته وعالى قدرته يحوّل طبيعتها إلى لطيف طبيعة الغنم ، ويظهر فى طبيعتها خلال الحملان ، وهذا الأمر فقد عرفه الثلاثة فتية ، ودانيال النبى الذى طافت حوله الأسود كغنم ولم تؤذه من جهتها بشىء لما كانت المعونة الإلهية قد ألجمتها .

هكذا نحن إذا ما ظفرنا بالمضافرة الإلهية ، فليس إننا نخلص مكر القوم الأعداء فقط ، ولكن لو سقطنا مع الوحوش لما نالنا من قبلها سوء ، وإذ إن يد الله التى هى أقوى من الكل حافظة لنا من سائر الجهات وحارسة إيانا ، فقد كان ذلك مع هذا الصديق ، والدليل على ذلك أن الذى عزم على الاستيلاء عليه والانتقام منه لنزوحه عنه وشخص إليه بتلك الحدة ، فليس أنه ما أغلظ فى المخاطبة فقط ، بل انه فاوضه مفاوضة الأب لابنه مستعملاً من الوداعة أغزرها ، ومن الملاطفة أرفعها وأوفرها وقال له « لماذا هربت خفية » ، تأمل مقدار هذه النقلة ، انظر إلى هذا الذى كان حاله حال الوحوش ، كيف يتوارع توارع الحملان ؟ .

« فى قدرة يدى أن اصنع بكم شراً ولكن إله ابيكم كلمنى البارحة قائلاً احترز من ان تكلم يعقوب بخير أو شر » (ع ٢٩) .

أما ترى كيف يوبخ لابان نفسه ويقر بلسانه أنه كان عازماً على فعل القبيح مع الصديق ، وكيف حجزته عناية الله عن ذلك العزم .

وتأمل كيف يكشف لابان للصديق ما عزم عليه ، وأن خوف الله منعه من ذلك.

« والآن انت ذهبت لانك قد اشتقت إلى بيت ابيك ولكن لماذا سرقت آلهتى » (ع ٣٠) .

قول لابان ليعقوب « ولكن لماذا سرقت آلهتى » آه من هذا الجهل المتزايد والحمق المتعاظم ، يا ويلك ، أصورة آلهتك هذه الصورة حتى انهم يسرقون ، أما تحتشم لأن تقول « لماذا سرقت آلهتى » إن آلهتك التى لك لما أرادوا سرقتها لم لم يقدروا على دفع ذلك عن نفوسهم ؟! وكيف يتمكنون من ذلك وهم جماد ؟! وأما إله الصديق جل وعلا فردك وصدك عن رأيك ، والصديق لا يعلم ، أفما تحس يا ويلك بفرط ضلالتك ، بل تتظلم للصديق وتشكو منه السرقة وتقول « لماذا سرقت آلهتى » ؟ وفى الحقيقة ما أخذها بل نبذها ورذلها لعلمه بأنها جماد لا تحس .

« فأجاب يعقوب وقال للابان انى خفت لأنى قلت لعلك تغتصب ابنتيك منى . الذى تجد آلهتك معه لا يعيش قدام اخوتنا انظر ماذا معى وخذه لنفسك ولم يكن يعقوب يعلم أن راحيل سرقتها » (ع ٣١ ، ٣٢) .

أرأيت يا صاحب أن يعقوب لم يعلم أن راحيل سرقت الاصنام ؟ والدليل على ذلك قوله عن السارق « الذى تجد آلهتك معه لا يعيش » ، لا من أجل أنه أخذها فقط ، بل ومن أنه قد برهن على نفاقه وشره وطغيانه .

« فدخل لابان خباء يعقوب وخباء ليئة وخباء الجاريتين ولم يجد وخرج من خباء ليئة ودخل خباء راحيل . وكانت راحيل قد اخذت الاصنام ووضعتها فى حداجة[١٨٠] الجمل وجلست عليها فجس لابان كل الخباء ولم يجد . وقالت لأبيها لا يغتظ سيدى انى لا استطيع ان اقوم امامك لأن علىّ عادة النساء . ففتش ولم يجد الاصنام » (ع ٣٣ ـ ٣٥) .

وآه لحرص راحيل ، فلقد سخرت من أبيها وموهت عليه ألطف سخرية وتمويه .

اسمعوا أيها الضالون وبإكرام الأصنام ملهجون ، فماذا يكون أولى بالهزء وأحمق وأجهل من قوم ناطقين وبشرف المنزلة من الله المحب للبشر ظافرين يؤلهون الجماد ويبالغون فى إكرامه غير حاسين بهذه الشناعة والقباحة المتعاظمة ، لكنهم ينقادون انقياد البهائم ، ينقادون إلى ما لا حس له البتة كأنهم بهائم .

---

(١٨٠) الحداجة : ما تركب فيه النساء على البعير كالهودج .

« فاغتاظ يعقوب وخاصم لابان واجاب يعقوب وقال للابان ماجرمى ما خطيتى حتى حميت ورائى . انك جسست جميع اثاثى . ماذا وجدت من جميع اثاث بيتك ضعه ههنا قدام اخوتى واخوتك فلينصفوا بيننا الاثنين » (ع ٣٦ ، ٣٧) .

انظر كيف يعلن يعقوب فضيلة نفسه فى نفس الخصومة .

« الآن عشرين سنة انا معك نعاجك وعنازك لم تُسْقطْ وكباش غنمك لم آكل . فريسة لم أحضر إليك انا كنت اخسرها من يدى كنت تطلبها مسروقة النهار أو مسروقة الليل » (ع ٣٨ ، ٣٩) .

انظر كم إحسان يوضحه يعقوب للابان قد توجه إليه من الله بحضوره عنده ، وهذا ما قاله من قبل « لأن ما كان لك قبلى قليل فقد اتسع إلى كثير وباركك الرب فى أثرى » (تك ٣٠ : ٣٠) .

أشاهدت شهامة هذا الراعى الفاضل ؟ ألاخطت اجتهاده المتواصل ، إذاً فأى عذر للمقلدين رعاية الناطقين ؟ .

« كنت فى النهار يأكلنى الحر وفى الليل الجليد وطار نومى من عينىّ . الآن لى عشرون سنة فى بيتك خدمتك اربع عشرة سنة بابنتيك وست سنين بغنمك وقد غيرت أجرتى عشر مرات » (ع ٤٠ ، ٤١) .

فمَنْ ذا الذى يمكنه الآن أن يقول كهذا القول الذى قاله يعقوب ، إذ إنه لأجل خلاص رعاياه احتمل من المخاطر أعظمها ، ومن المكاره والشقاء أوفرها ، أما فى وقتنا هذا فلن يتجاسر أحد على التفوه بما هذا مضمونه ؛ لكن معلم المسكونة بولس يمكنه وحده أن يقول بدالة « مَنْ يضعف وأنا لا اضعف مَنْ يعثر وأنا لا التهب » (٢ كو ١١ : ٢٩) .

« لولا ان إله ابى إله إبراهيم وهيبة اسحق كان معى لكنت الآن قد صرفتنى فارغا مشقتى وتعب يدى قد نظر الله فوبخك البارحة » (ع ٤٢) .

فان سألت : ما معنى قول يعقوب « مشقتى وتعب يدىّ » ، أجيبك : أى أن الله لما علم اجتهادى لك فى الخدمة وفرط تعبى فى رعية اغنامك واهتمامى بها ليلاً ونهاراً « وبخك البارحة » .

وان سألت : ما معنى « وبخك البارحة » ؟ أى منعك من ايصال الأذية إلىّ وكبحك عن ظلمى وأمسك نهضتك البهيمية .

« فأجاب لابان وقال ليعقوب البنات بناتي والبنون بني والغنم غنمى وكل ما انت ترى فهو لى فبناتى ماذا أصنع بهن اليوم وباولادهن الذين ولدن . فالآن هلم نقطع عهدا انا وانت فيكون شاهداً بينى وبينك . فأخذ يعقوب حجراً واوقفه عموداً. وقال يعقوب لاخوته التقطوا حجارة فاخذوا حجارة وعملوا رجمة . وأكلوا هناك على الرجمة . ودعاها لابان يَجرْ سهدوثا [181]. واما يعقوب فدعاها جلعيد [182] (ع ٤٣ ـ ٤٧) .

احتشم لابان مما ذكره له الصديق وتداخله الخوف والجبن ، وأخذ فى معاهدته .

تأمل سياسة الله ، والدليل على ذلك أن هذا المتهيء لما تهيأ له والمندفع وراء الصديق بهذه الصفة قد أضاءت حاله إلى الحين حتى انه يحاول معاهدته ويلتمس موافقته !!

« وقال لابان هذه الرجمة شاهدة بينى وبينك اليوم لذلك دُعى اسمها جُلعيد . والمصفاة [183] لانه قال ليراقب الرب بينى وبينك حينما نتوارى بعضنا عن بعض » (ع ٤٨ ، ٤٩) .

تأمل كيف يستدعى لابان عدل الله بقوله : « ليراقب الرب بينى وبينك حينما نتوارى » .

« إنك لا تذل بناتي ولا تأخذ نساء على بناتي ليس إنسان معنا انظر الله شاهد بينى وبينك . وقال لابان ليعقوب هوذا هذه الرجمة وهوذا العمود الذى وضعت بينى وبينك شاهدة هذه الرجمة وشاهد العمود انى لا اتجاوز هذه الرجمة إليك وانك لا تتجاوز هذه الرجمة وهذا العمود إلىّ للشر » (ع ٥٠ ـ ٥٢) .

---

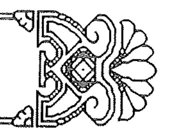
(١٨١) يجر سهدوثا : كلمة أرامية معناها « رجمة الشهادة » .
(١٨٢) جلعيد : كلمة عبرية معناها « رجمة الشهادة » .
(١٨٣) مصفاة : اسم عبرى معناه « برج النواطير » .

انظر كيف أن لابان يُشهد الله دفعة واثنتين وبثقة ، لأن المراعاة التى شملت يعقوب عرفته بمقدار قوة الرب ، وأنه لا يمكن أن تخفى خافية عن تلك العين التى لا تُفحص .

« إله إبراهيم وآلهة ناحور آلهة ابيهما يقضون بيننا وحلف يعقوب بهيبة ابيه اسحق . وذبح يعقوب ذبيحة فى الجبل ودعا اخوته ليأكلوا طعاما فأكلوا طعاما وباتوا فى الجبل . ثم بكر لابان صباحا وقبّل بنيه وبناته وباركهم ومضى ورجع لابان إلى مكانه » (ع ٥٣ ـ ٥٥) .

تأمل كيف يضيف لابان إلى أب الآباء جده ناحور ، إذ إن ناحور هو أخو أب الآباء وجده بقوله « إله إبراهيم وآلهة ناحور » .





الأصحاح الثانى والثلاثون

« وأما يعقوب فمضى فى طريقه ولاقاه ملائكة الله » (ع ١) .

لما زال الخوف عن يعقوب من لابان ، ولم يبق شيء منه اعتراه بعد ذلك الخوف من أخيه عيسو ، لذلك أراد الله المحب للبشر تقوية عزيمته وتطييب نفسه وأزال جميع الجزع والجبن عنه ، فأمكنه من ملاحظة الملائكة إذ يقول الكتاب « ولاقاه ملائكة الله » .

« وقال يعقوب إذ رآهم هذا جيش الله فدعا اسم ذلك المكان محنايم[١٨٤] » (ع ٢) .

سمى يعقوب ذلك المكان « محنايم » حرصاً على أن يدوم له ذكر ما شاهده هناك .

« وارسل يعقوب رسلاً قدامه إلى عيسو أخيه إلى أرض سعير بلاد أدوم . وأمرهم قائلاً هكذا تقولون لسيدى عيسو هكذا قال عبدك يعقوب تغربت عند لابان ولبثت إلى الآن . وقد صار لى بقر وحمير وغنم وعبيد واماء وأرسلت لأخبر سيدى لكى اجد نعمة فى عينيك » (ع ٣ ـ ٥) .

انظر يا صاحب مقدار الفزع الذى ألمّ بالصديق بعد الرؤيا أيضا ، إذ إنه رهب هجوم أخيه عليه .

وتأمل كيف رهب أخاه ، ولذلك أراد استعطافه فأرسل إليه مطالعا إياه برجوعه وثرائه وبالمكان الذى أقام فيه هذا الزمان كله ، رغبة فى تسكين شره ، وجذبه إلى المؤانسة .

« فرجع الرسل إلى يعقوب قائلين اتينا إلى اخيك إلى عيسو وهو أيضا قادم للقائك واربع مئة رجل معه » (ع ٦) .

انظر كيف أن هذا الأمر أيضا خوّف الصديق ، لأنه لم يعلم غرض أخيه كما ينبغى ولا وقف على ما بداخله .

---

(١٨٤) محنايم : اسم عبرى معناه « محلتان » ، مدينة شرقى الأردن .

« فخاف يعقوب جداً وضاق به الأمر فقسم القوم الذين معه والغنم والبقر والجمال إلى جيشين . وقال ان جاء عيسو إلى الجيش الواحد وضربه يكون الجيش الباقى ناجياً » (ع ٧، ٨) .

تحير يعقوب وشق الخوف قلبه ، ولم يدرِ ماذا يفعل بل بقى متشككا ، ولما تزايدت خشيته وتصور الموت لدى عينيه قسم جملةَ أصحابه قسمين ، وقال إن فتك عيسو بالواحد فيكون الآخر سالماً ، هذا ما اشار عليه الفزع وفرط الجبن بفعله .

« وقال يعقوب يا إله أبى إبراهيم وإله أبى إسحق الرب الذى قال لى ارجع إلى ارضك وإلى عشيرتك فأحسن إليك . صغير أنا عن جميع ألطافك وجميع الأمانة التى صنعت إلى عبدك فانى بعصاى عبرت هذا الاردن والآن قد صرت جيشين . نجنى من يدّ أخى من يدّ عيسو لأنى خائف منه أن يأتى ويضربنى الأم مع البنين . وأنت قد قلت انى أُحسن اليك وأجعل نسلك كرمل البحر الذى لا يعَدُ للكثرة [١٨٥] » (ع ٩ ـ ١٢) .

عندما رأى يعقوب أنه كالمقبوض عليه فى السنارة لجأ إلى الرب الذى لا يمكن محاربته ، العزيز الجبار ، والتمس منه ما وعده به ، وكأنه يتوسل إليه بما هذا معناه : قد أزف الآن الوقت الذى يليق فيه أن أحظى بالمؤازرة ، واحدة مراعاة لسديد مذهب أجدادى ، وثانية اتماماً لما وعدتنى به .

وتأمل مودة الصديق لله وجميل اعتداده ، وكيف أنه ما يلتمس من الرب أمراً من الأمور إلا اتمام مواعيده ، وكيف أنه يشكر على ما سبق ، ويعترف بعريه وفاقته ، وأن الله أغناه إلى هذا الحد ، ويضرع إليه فى إنقاذه من هذا الخطر الفادح .

« وبات هناك تلك الليلة واخذ مما أتى بيده هدية لعيسو اخيه . مئتى عنز وعشرين تيسا مئتى نعجة وعشرين كبشا ـ ثلاثين ناقة مرضعة واولادها اربعين بقرة وعشرة ثيران وعشرين اتانا وعشرة حمير . ودفعها إلى يد عبيده قطيعا قطيعا على حدة وقال لعبيده اجتازوا قدامى واجعلوا فسحة بين قطيع وقطيع . وامر الأول قائلاً إذا صادفك عيسو أخى وسألك قائلاً لمَنْ انت وإلى اين تذهب

(١٨٥) صلاة يعقوب هذه، هى أول صلاة ذكرها الكتاب بنصها وتستحق التأمل لما فيها من امتزاج شدة الشوق والحرارة بالبساطة .

ولَمَنْ هذا الذى قدامك . تقول لعبدك يعقوب. هو هدية مرسلة لسيدى عيسو وها هو أيضا وراءنا . وأمر أيضا الثانى والثالث وجميع السائرين وراء القطعان قائلاً بمثل هذا الكلام تكلمون عيسو حينما تجدونه . وتقولون هوذا عبدك يعقوب أيضا وراءنا لأنه قال استطعف وجهه بالهدية السائرة أمامى وبعد ذلك انظر وجهه عسى ان يرفع وجهى . فاجتازت الهدية قدامه واما هو فبات تلك الليلة فى المحلة » (ع ١٣ ـ ٢١) .

تأمل يا صاحب هنا أيضا فرط محبة الله للبشر التى لا توصف ، وكيف يدبر الأمور دائما تدبيراً ملائماً والدليل على ذلك ، ما فعله مع الصديق فى علاقتـه مع لابـان حميـه ، فإنه لما لم يشعر بأمره ولا خطر بباله أن حماه يلحقه بغضب عظيم ، وهزء جسيم ، رغبة فى أن ينتقم منه لأجل هروبه عنه خفية ، ظهر الله للابان من قبل ، ورسم له أن يلاطف يعقوب فى الكلام دون الإغلاظ له إذ قال « احترز من أن تكلم يعقوب بخير أو شر » (تك ٣١ : ٢٤) ، والآن قد سكّن ثورة عيسو على يعقوب ولم يأت بالإساءة إلى أخيه بل عزاه ، والدليل على ذلك أنه بعد أن أرسل الرسل بالهدية إلى أخيه نام كقول الكتاب « فاجتازت الهدية قدامه وأما هو فبات تلك الليلة فى المحلة » .

« ثم قام فى تلك الليلة وأخذ امرأتيه وجاريتيه واولاده الأحد عشر وعبر مخاضة يبوق . اخذهم واجازهم الوادى واجاز ما كان له . فبقى يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر . ولما رأى انه لا يقدر عليه ضرب حُقّ فخذه فانخلع حُقّ فخذ يعقوب فى مصارعته معه » (ع ٢٢ ـ ٢٥) .

ما أعظم محبة الله للبشر ، والدليل على ذلك أن الصديق لما عزم على لقاء أخيه عيسو ، ظهر له الله فى شكل إنسان يصارع ، رغبة لأن يحقق فى نفسه أنه لا يصادف امراً كريهاً ، ولا يرى شيئا مرتفعاً ، وكل ما جرى من هذا الأمر فهو على سبيل التنازل ، ورغبة فى أن ينتزع الله الجبن من نفس الصديق ، وأن يبعثه على لقاء أخيه من غير خوف ولا ذعر .

« وقال اطلقنى لأنه قد طلع الفجر فقال لا أطلقك ان لم تباركنى . فقال له ما اسمك فقال يعقوب . فقال لا يُدعى اسمك فى ما بعد يعقوب بل اسرائيل[١٨٦] لانك جاهدت مع الله والناس وقدرت . وسأل يعقوب وقال

---

(١٨٦) اسرائيل : معنى هذا الاسم العبرى « يجاهد مع الله » ، أو « الله يصارع » .

اخبرنـــي باسمك فقال لماذا تسألني عن اسمي وباركه هناك . فدعا يعقوب اســـم المكـــان فنيئيل[١٨٧] قائلاً لأني نظرت الله وجها لوجه ونُجيت نفسي » (ع ٢٦ ـ ٣٠) .

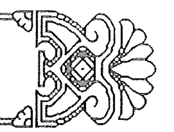
أرأيت تنازل الله مع الضعف البشرى ، لكن يا صاحب لا تستغرب وتستنكر جسامة هذا التنازل بل امعن النظر فى أن الله قد استضيف بإبراهيم فى صورة إنسان مع ملائكة ، عندما كان إبراهيم جالساً عند بلوطات ممرا (تك ١٨ : ١) ، منذراً إيانا منذ الابتداء أنه على التصور بالصورة البشرية ، رغبة فى استخلاص جميع الطبيعة الإنسانية من تمرد الشيطان وسوقها إلى الخلاص ، إلا أنه لما كان ذلك الوقت وقت ابتداء ، ظهر لكل واحد على هيئة ما على لسان بعض الأنبياء ، ولقد تراءئ للأنبياء بعدة مناظر ولذلك استجاز التصرف فى سائر امورنا ، منها ولادته من امرأة ، وكونه جنيناً ، وتقمطه ورضاعته وما سوى ذلك وهو رغبة فى أن يحقق تدبيره ، ولا يترك لافواه المخالفينِ مجالاً ، لهذا الحال نام فى السفينة ومشى وتعب واحتمل سائر الامور البشرية ، ومُثِلَ فى مجلس القضاء ، وقبل الصلب والموت الفظيع والدفن ، فلو لم يكن أخذ جسداً اخذاً حقيقياً لما كان صلب ولا مات ولا دفن ولا قام ، واذا لم يقم فقد استحال نظام التدبير ، هكذا ظهر فى رؤية مع الصديق فى صورة إنسان .

« واشرقت له الشمس إذ عبر فنوئيل وهو يخمع[١٨٨] على فخذه . لذلك لا يأكل بنو اسرائيل عرق النَّسا الذى على حُقّ الفخذ إلى هذا اليوم لأنه ضَرب حُق فخذ يعقوب على عرق النَّسا » (ع ٣١ ، ٣٢) .

ولأن الله أراد ثبات هذا المنظر مع يعقوب دون نسيانه له فى ما بعد جلب له الخمع.



(١٨٧) فنيئيل : اسم عبرى معناه « وجه الله » .
(١٨٨) خمع : مشى كأن به عرجاً .



الأصحاح الثالث والثلاثون

« ورفع يعقوب عينيه ونظر واذا عيسو مقبل ومعه اربع مئة رجل فقسم الأولاد على ليئة وعلى راحيل وعلى الجاريتين . ووضع الجاريتين واولادهما اولاً وليئة واولادها وراءهم وراحيل ويوسف اخيراً . وأما هو فاجتاز قدامهم وسجد إلى الأرض سبع مرات حتى اقترب إلى اخيه . فركض عيسو للقائه وعانقه ووقع على عنقه وقبّله وبكيا » (ع ١ ـ ٤) .

انظر يا صاحبِ سياسة الله ، وما قلته من قبل أقوله الآن ، وهو أن الخالق إذا ما أراد الاشتمال علينا وحسن الاهتمام بنا جعل الجفاء علينا أودع من الغنم ، واستدل على هذا مما بذله عيسو من لطيف الخلال ودماثة الخصال ، وبرهان ذلك قول الكتاب « فركض عيسو للقائه وعانقه ووقع على عنقه وقبّله وبكيا » ، وبذلك تفرج ما بالصديق، وزال الخوف عنه وانعتق من الجبن ، وتسربل بجلباب الحماسة .

« ثم رفع عينيه وأبصر النساء والأولاد وقال ما هؤلاء منك فقال الاولاد الذين انعم الله بهم على عبدك » (ع ٥) .

انظر مقدار قوة الوداعة ، كيف سكّن لين الكلام ولطيف الخطاب من سعاية عيسو بالشر على يعقوب أخيه .

« فاقتربت الجاريتان هما واولادهما وسجدتا . ثم اقتربت ليئة أيضا واولادها وسجدوا وبعد ذلك اقترب يوسف وراحيل وسجدا . فقال ماذا منك كل هذا الجيش الذى صادفته فقال لأجد نعمة فى عينَى سيدى . فقال عيسو لى كثير يا أخى ليكن لك الذى لك » (ع ٦ ـ ٩) .

تأمل كيف أن يعقوب قد استعبد عيسو أخاه بلطف الخطابِ ولين الجانب ، والذى أساء الظن فيه ، كيف تواد ع كما أحب وبذل المجهود فى قضاء بغيته .

« فقال يعقوبِ لا إن وجدت نعمة فى عينيك تأخذ هديتى من يدى لأنى رأيت وجهك كما يرى وجه الله فرضيت علىّ » (ع ١٠) .

أى اقبل منى ما قد أتحفتك إياه ، فلقد شملنى الفرح برؤياك شمول مَنْ قد عاين وجه الله ، وقد قال الصديق هذا القول ملاطفة وحرصاً على جذب عيسو إلى المودة الأخوية .

« خذ بركتى التى أُتى بها اليك لأن الله قد أنعم علىّ ولى كل شىء وألح عليه فأخذ » (ع ١١) .

أى لا تأبَ قبول الهدية ، فإنها مما تفضل الله علىّ به ، وهو الرازق لى بهذا أجمع .

« ثم قال لنرحل ونذهب واذهب انا قدامك . فقال له سيدى عالم ان الأولاد رخصة والغنم والبقر التى عندى مرضعة فإن استكدوها يوما واحداً ماتت كل الغنم . ليجتز سيدى قدام عبده وانا استاق على مهلى فى إثر الاملاك التى قدامى وفى إثر الأولاد حتى اجىء إلى سيدى إلى سعير . فقال عيسو أترُك عندك من القوم الذين معى فقال لماذا دعنى اجد نعمة فى عينىّ سيدى . فرجع عيسو ذلك اليوم فى طريقه إلى سعير » (ع ١٢ ـ ١٦) .

قول عيسو ليعقوب « لنرحل ونذهب وأذهب أنا قدامك » أى نشترك فى السفر والرحيل ، فاحتج له يعقوب بحجة واضحة وقال له « سيدى عالم أن الأولاد رخصة والغنم التى عندى مرضعة ، فإن استكدوها يوماً واحداً ماتت كل الغنم » ؛ أى ما أقدر أن اتحرك فى المسير ، بل أتأنى من أجل الأولاد والمواشى ، خوفا من أن يهلكوا من جسيم التعب ، أى امض أنت وأنا الحقك فى السير .

« وأما يعقوب فارتحل إلى سكوت[١٨٩] وبنى لنفسه بيتا وصنع لمواشيه مظلات لذلك دعا اسم المكان سكوت . ثم اتى يعقوب سالما إلى مدينة شكيم[١٩٠] التى فى أرض كنعان حين جاء من فدان أرام ونزل أمام المدينة . وابتاع قطعة الحقل التى نصب فيها خيمته من يد بنى حمور[١٩١] أبى شكيم بمئة قسيطة[١٩٢] . وأقام هناك مذبحا ودعاه إيل إله اسرائيل » (ع ١٧ ـ ٢٠) .

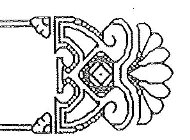
تأمل يا صاحب فلسفة هذا المرء العجيب الرشيد والرجل اللبيب السديد ، وكيف أنه على تكاثر حاله وتعاظم شأنه، وتعاظم ثرائه ، وكثرة أولاده وظفره بالحنو الإلهى ، لم

(١٨٩) سكوت : اسم عبرى معناه « مظلات » .
(١٩٠) شكيم : اسم عبرى معناه « كتف » أو « منكب » .
(١٩١) حمور : اسم كنعانى معناه « حمار » .
(١٩٢) قسيطة : نوع من النقود قيمته غير معروفة الآن .

يلتفت إلى إنشاء المنازل وشراء الحقول والمزارع والضياع وبناء القصور المشيدة ، إلا أن هذا الصديق لم تكن هذه حاله ولا جال فى فكره شيء من هذا ، لكنه لما وجب أن يشترى حقلاً اشتراه رغبة فى أن يُنشئ فيه مذبحاً للشكر لله .

فالخليق إذاً بكل من شملهم التفضل أن يشابهوا هذا الأمر العجيب الذى قبل الشريعة فى الازدراء بجمع المال ، اجبنى عما أقوله لك : لأى سبب تحشد لنفسك أوساقاً من الشوك ، وتخلق لأولادك مادة الرذيلة ، أفما يحسن أن تسلم أمورهم لخالقهم؟ أما علمت أن الرب يهتم بابنك اكثر من اهتمامك أنت به .





الأصحاح الرابع والثلاثون

« وخرجت دينة ابنة ليئة التى ولدتها ليعقوب لتنظر بنات الأرض . فرآها شكيم بن حمور الحوّى رئيس الأرض واخذها واضطجع معها واذلها . وتعلقت نفسه بدينة ابنة يعقوب واحب الفتاة ولاطف الفتاة . فكلم شكيم حمور أباه قائلاً خذ لى هذه الصبية زوجة » (ع ١ ـ ٤) .

أرأيت مقدار تمكن الرذيلة من هذا الشاب إذ تعرى عن الفكر المستقيم الملجم إياه ، فلما عاين الفتاة واقتنصه عشقها انعطف إلى إبراز الشهوة إلى الفعل .

« وسمع يعقوب انه نجس دينة ابنته واما بنوه فكانوا مع مواشيه فى الحقل فسكت يعقوب حتى جاءوا . فخرج حمور ابو شكيم إلى يعقوب ليتكلم معه . وأتى بنو يعقوب من الحقل حين سمعوا وغضب الرجال واغتاظوا جداً لانه صنع قباحة فى اسرائيل بمضاجعة ابنة يعقوب وهكذا لا يصنع » (ع ٥ ـ ٧) .

أشاهدت عفاف بني يعقوب ، وكيف أنهم استقبحوا هذا الأمر غاية الاستقباح ، وأعاينت كيف أدّب الصديق أولاده أدب الفضيلة ، وكيف أظهر ابن حمور شهوته إلى الفعل فصارت هلاكاً لأبيه وسائر البلد .

« وتكلم حمور معهم قائلاً شكيم ابنى قد تعلقت نفسه بابنتكم اعطوه إياها زوجة . وصاهرونا تعطوننا بناتكم وتأخذون لكم بناتنا . وتسكنون معنا وتكون الأرض قدامكم اسكنوا واتجروا فيها وتملكوا بها . ثم قال شكيم لأبيها ولاخوتها دعونى اجد نعمة فى اعينكم فالذى تقولون لى اعطى . كثروا علىّ جداً مهراً وعطية فاعطى كما تقولون لى واعطونى الفتاة زوجة » (ع ٨ ـ ١٢) .

تأمل مقدار ما يبذله حمور والد شكيم لهؤلاء الغرباء من خالص الوداد وجميل الاعتقاد لفرط محبته لابنه، يجذبهم بما عرضه عليهم من التسلط على جميع تلك الأرض .

« فأجاب بنو يعقوب شكيم وحمور أباه بمكر وتكلموا لأنه كان قد نجس دينة اختهم . فقالوا لهما لا نستطيع أن نفعل هذا الأمر ان نعطى اختنا لرجل اغلف لانه عار لنا . غير اننا بهذا نواتيكم إن صرتم مثلنا بختنكم كل ذكر . نعطيكم بناتنا ونأخذ لنا بناتكم ونسكن معكم ونصير شعبا واحدا . وان لم

تسمعوا لنا أن تختتنوا نأخذ ابنتنا ونمضى . فحسن كلامهم فى عينى حمور وفى عينى شكيم بن حمور . ولم يتأخر الغلام ان يفعل الأمر لأنه كان مسروراً بابنة يعقوب وكان أكرم جميع بيت أبيه . فأتى حمور وشكيم ابنه إلى باب مدينتهما وكلما اهل مدينتهما قائلين هؤلاء القوم مسالمون لنا فليسكنوا فى الأرض ويتجروا فيها وهوذا الأرض واسعة الطرفين أمامهم نأخذ لنا بناتهم زوجات ونعطيهم بناتنا . غير انه بهذا فقط يواتينا القوم على السكن معنا لنصير شعبا واحداً بختننا كل ذكر كما هم مختونون . ألا تكون مواشيهم ومقتناهم وكل بهائمهم لنا نواتيهم فقط فيسكنون معنا . فسمع لحمور وشكيم ابنه جميع الخارجين من باب المدينة واختتن كل ذكر كل الخارجين من باب المدينة » (ع ١٣ ـ ٢٤) .

فإلى هذا المقدار من المكيدة وإحكام البلية على هؤلاء كلهم بلغ احتمال بنى يعقوب الذين حرصوا على الظفر بمطلوبهم وإدراك محبوبهم وامتلاك اختهم اجابوا إلى هذا الأمر وارتضوا به .

« فحدث فى اليوم الثالث إذ كانوا متوجعين ان ابني يعقوب شمعون ولاوى اخوى دينة اخذا كل واحد سيفه واتيا على المدينة بأمن[١٩٣] وقتلا كل ذكر . وقتلا حمور وشكيم ابنه بحد السيف واخذا دينة من بيت شكيم وخرجا . ثم اتى بنو يعقوب على القتلى ونهبوا المدينة لأنهم نجسوا أختهم . غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما فى المدينة وما فى الحقل اخذوه . وسبوا ونهبوا كل ثروتهم وكل اطفالهم ونساءهم وكل ما فى البيت » (ع ٢٥ ـ ٢٩) .

أشاهدت أيها الخليل مقدار الشر الذى جلبه جهل شخص واحد ؟ وأعاينت الهلاك الذى أورده على أهل المدينة ؟ فإذا ما فقهنا هذا الأمر أيها الخلان فلنمنع أولادنا من التطرق إلى شىء من هذا الأمر ولنلجم الشاب بأوثق اللجم ، وهو خوف الله واتباع وصاياه ولنهتم بتعفيفهم وبذل المجهود فى تخليصهم من الأغراض الشنيعة ، فإن إلهنا لعلمه بضعف الطبيعة البشرية فرض الزواج رغبة فى إبعادها من الجماع البهيمى الثقيل .

(١٩٣) أى انهما دخلا المدينة بطمأنينة وقوة عزيمة إذ إنهمنا كانا اثنين لا غير فبارزا خلقاً هذا مقداره.

« فقال يعقوب لشمعون ولاوى كدرتمانى بتكريهكما إياى عند سكان الأرض الكنعانيين والفرزيين وانا نفر قليل فيجتمعون عليّ ويضربوننى فأبيد أنا وبيتى » (ع ٣٠) .

وكأن يعقوب يقول لابنيه : لقد صيرنى فعلكما هذا مشيناً عند سكان هذه الأرض ، فكما ان شكيم صار علة هلاك ابيه وكل مَنْ فى المدينة هكذا انتما تكونان سبب نهايتى وأصير من جرائمكما مكروها ، ولا مانع يمنع ولا دافع يدفع من أن أهلك وأتجرع كأس الموت من أجل إقدامكما وتجاسركما .

« فقالا أنظير زانية يُفعل بأختنا » (ع ٣١) .

تأمل نصرة هذين الغلامين لاختهما وانكارهما لما جرى حباً للعفاف ، وكأنهما يقولان : دعتنا الضرورة وحركتنا المروءة وهزتنا عزة النفس ففعلنا ما فعلناه حرصا على افادة الآتين فى ما بعد ألا يجسروا على مثل هذا الأمر القبيح .





الأصحاح الخامس والثلاثون

« ثم قال الله ليعقوب قم اصعد إلى بيت إيل واقم هناك واصنع هناك مذبحاً لله الذى ظهر لك حين هربت من وجه عيسو أخيك » (ع ١) .

انظر يا صاحب اهتمام الله الذى لا يوصف بالصديق وذلك أنه لما رآه قد رهب المقام فى أرض شكيم ما فعله ابناه قال له « قم اصعد إلى بيت إيل واقم هناك واصنع هناك مذبحاً لله » ، أى إذا كنت يا هذا قد تخوفت من أهل هذا المكان فتحول إلى أرض إيل.

« فقال يعقوب لبيته ولكل مَنْ كان معه اعزلوا الآلهة الغريبة التى بينكم وتطهروا وابدلوا ثيابكم . ولنقم ونصعد إلى بيت إيل فاصنع هناك مذبحاً لله الذى استجاب لى فى يوم ضيقتى وكان معى فى الطريق الذى ذهبت فيه » (ع ٢ ، ٣) .

تأمل طاعة الصديق وحُسن مودته لله ، فإنه عندما قال له » قم اصعد إلى بيت إيل واقم هناك واصنع هناك مذبحاً » (ع ١) ، استدعى بنيه وكل مَنْ كان معه وأمرهم برفع الآلهة الغريبة .

ولعل سائل يسأل قائلاً : أى الآلهة هذه ، فإن هذا الرجل الفاضل لم يكن ممَنْ يستجيز اقتناءها والتمسك بها ، فإنه لم يزل منذ نشأ محبا لله زكيا نقيا ؟! فأجيبه : يجوز أن يشير إلى آلهة لابان التى سرقتها راحيل .

« فاعطوا يعقوب كل الآلهة الغريبة التى فى ايديهم والأقراط التى فى آذانهم فطمرها[١٩٤] يعقوب تحت البُطمة[١٩٥] التى عند شكيم » (ع ٤) .

قول الكتاب « والأقراط التى في آذانهم » وعسى أنها كانت علامة لتلك الأصنام ، فلذلك احضروها إلى الصديق مع الآلهة .

وقوله « فطمرها يعقوب » رغبة فى أن يتخلصوا من تبعة الطغيان ولا يتأذوا من جهتها بشىء البتة .

---

(١٩٤) طمر : دفن وخبأ .

(١٩٥) البطمة : شجرة تنمو بكثرة فى فلسطين وسوريا وتعمر سنين عديدة ، حتى إذا ماتت الشجرة الأصلية تفرخ من اسفلها فروع جديدة تخلفها .

« ثم رحلوا وكان خوف الله على المدن التى حولهم فلم يسعوا وراء بنى يعقوب. فأتى يعقوب إلى لوز التى فى أرض كنعان وهى بيت إيل هو وجميع القوم الذين معه . وبنى هناك مذبحا ودعا المكان إيل[١٩٦] بيت إيل لأنه هناك ظهر له الله حين هرب من وجه اخيه . وماتت دبورة[١٩٧] مرضعة رفقة ودفنت تحت بيت إيل تحت البلوطة فدعا اسمها ألون باكوت[١٩٨] » (ع ٥ ـ ٨) .

لما خرج يعقوب من شكيم ، كان من قضاء الله أن ألمّ بأهل تلك المدن التى كانت حولهم الخوف فلم يندفعوا وراء بنى يعقوب .

أشاهدت مقدار هذه العناية واشتهار هذه النصرة والدليل على ذلك هو قول الكتاب « وكان خوف الله على المدن التى حولهم فلم يسعوا وراء بنى يعقوب » ، ومن هذا كان يخشى الصديق إذ قال « أنا نفر قليل فيجتمعون علىّ ويضربوننى فأبيد أنا وبيتى » (تك ٣٤ : ٣٠) فإن الله إذا اشفق على قوم ضعفاء قليلين وأراد معونتهم جعلهم أقوى من الأقوياء واكثر من العدد الكبير ، إذاً فلا أحد أسعد من الحاظى بالمؤازرة الإلهية.

« وظهر الله ليعقوب أيضا حين جاء من فدان أرام وباركه » (ع ٩) .

ولعل سائل يسأل قائلاً : لِمَ قال الكتاب هنا « وظهر الله ليعقوب أيضا » ؟ فأجيبه : ليس عبثا بل رغبة فى أن تعلمَ يا هذا أن الله كان قد ظهر ليعقوب فى هذا الموضع أولاً عند هروبه من أخيه عيسو وذهابه إلى فدان أرام (تك ١٨ : ١٠ ـ ١٥) . فالكتاب الإلهى يقول هنا « أيضاً » أى كما أنه ظهر ليعقوب فى ذلك الوقت عند ذهابه إلى لابان فى فدان أرام ، هكذا ظهر له الآن فى هذا الموضع بعينه محققاً عنده ما وعده به وقت ذهابه وباعثا إياه على ذلك دون الارتياب به لما اعترض من الزمان « وباركه » .

« وقال له الله اسمك يعقوب لا يُدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل يكون اسمك اسرائيل فدعا اسمه اسرائيل » (ع ١٠) .

قول الله ليعقوب « لا يُدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل يكون اسمك اسرائيل » ،

---

(١٩٦) إيل : اسم من اسماء الله فى العبرية .

(١٩٧) دبورة : اسم عبرى معناه « نحلة » .

(١٩٨) ألون باكوت : بلوطة البكاء .

وقد كان الله لقبه هذا اللقب عند مروره فى المخاضة (تك ٣٢ : ٢٨) ، ولكن لما أراد الله الزيادة فى تحقيق الأمر عند يعقوب عاوده بالبركة بعينها قائلاً « لا يُدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل يكون اسمك اسرائيل » .

« وقال له الله انا الله القدير أثمر واكثر أمة وجماعة امم تكون منك وملوك سيخرجون من صلبك » (ع ١١) .

تأمل عظمة هذه البركة ، وذلك أن الله لم يقل ان نسل يعقوب سيكثر فقط بل ويكون قدره جليلاً والدليل على ذلك قوله « وجماعة أمم تكون منك وملوك سيخرجون من صلبك » ، إنذاراً له بشرف الأولاد ونباهة مكانتهم .

« والأرض التى أعطيتُ إبراهيم وإسحق لك اعطيها ولنسلك من بعدك اعطى الأرض » (ع ١٢) .

لما قال يعقوب من قبل « أنا نفر قليل فيجتمعون علىّ ويضربوننى فأبيد أنا وبيتى » (تك ٣٤ : ٣٠) ، فأوضح صغر نفسه وزيادة جبنه ، فأراد الله المحب للبشر أن يقول له هنا : إذ كنت قد قلت يا هذا إنك نفر قليل ، فاعلم علماً لا يشوبه ريب أن نسلك ليكثر ، ويعظم صيتك وتعلو منزلتك ، وليس انك لا تفنى فقط بل وسيرث نسلك جميع الأرض .

« ثم صعد الله عنه فى المكان الذى فيه تكلم معه » (ع ١٣) .

إن الكتاب الإلهى لم يتفوه بهذا على أن الله منحصر فى مكان ، بل رغبة لأن نعرف مودته للبشر التى لا توصف ، من تفضل الروح على الضعف البشرى إلى هذا الحد، فلا تتعجب البتة من هذه العبارة ، بل تتعجب من جزيل صلاح الله ، فى أنه لم يأب أن يتنازل تنازلاً هذا محله من جراء ضعف طبيعتنا .

« فنصب يعقوب عموداً فى المكان الذى فيه تكلم معه عموداً من حجر وسكب عليه سكيبا وصب عليه زيتا » (ع ١٤) .

انظر يا صاحب هذا الصديق ، باذلاً أيضا حُسن معاضدة ، وجميل النية والضمير .

« ودعا يعقوب اسم المكان الذى فيه تكلم الله معه بيت إيل » (ع ١٥) .

تأمل كيف يلقب يعقوب الأماكن القابا لا يبيد معها الذكر ، رغبة فى أن يعّرف الأجيال الآتية فيما بعد ما نظره هناك .

« ثم رحلوا من بيت إيل ولما كان مسافة من الأرض بعد حتى يأتوا إلى افراتة(١٩٩) ولدت راحيل وتعسرت ولادتها . وحدث حين تعسرت ولادتها أن القابلة قالت لها لا تخافى لأن هذا أيضاً ابن لك . وكان عند خروج نفسها لأنها ماتت انها دعت اسمه بَنْ أونى(٢٠٠) واما ابوه فدعاه بنيامين(٢٠١) . فماتت راحيل ودُفنت فى طريق افراتة التى هى بيت لحم(٢٠٢) . فنصب يعقوب عمودا على قبرها وهو عمود قبر راحيل إلى اليوم » (ع ١٦ ـ ٢٠) .

لقد أزال بنيامين المولود تلك الكآبة على وفاة راحيل ، واوجد الصديق السبيل للصبر على فقدها بسكون وبدون قلق .

« ثم رحل اسرائيل ونصب خيمته وراء مجدل عدر(٢٠٣) . وحدث إذ كان اسرائيل ساكنا فى تلك الأرض أن رأوبين ذهب واضطجع مع بِلهة سرية أبيه وسمع اسرائيل وكان بنو يعقوب اثنى عشر » (ع ٢١ ، ٢٢) .

إن هذا الفعل فعله رأوبين مع بلهة سرية أبيه كان فظيعاً ، وعلى أى حال فقد احتمل يعقوب هذا المكروه مظهراً الوداعة ولين الصفات ، وغلب الألم بالمودة الطبيعية ، وعند مشارفته الوفاة أشهر ما فعله ابنه رأوبين وسطر نفاقه ولعنه (تك ٤٩ : ٣ ، ٤) ، ليتأدب الآتون فيما بعد بما حل به .

« بنو ليئة رأوبين بكر يعقوب وشمعون ولاوى ويهوذا ويساكر وزبولون . وابنا راحيل يوسف وبنيامين . وابنا بلهة جارية راحيل دان ونفتالى . وابنا زلفة جارية ليئة جاد واشير هؤلاء بنو يعقوب الذين ولدوا له فى فدان أرام » (ع ٢٣ ـ ٢٦) .

---

(١٩٩) افراتة : كلمة عبرية معناها « مثمر » .

(٢٠٠) بن أونى : ابن حزنى .

(٢٠١) بنيامين : اسم عبرى معناه « ابن اليد اليمين » أو « ابن اليُمن » .

(٢٠٢) بيت لحم : اسم عبرى معناه « بيت الخبز » .

(٢٠٣) مجدل عدِر : اسم عبرى معناه « برج قطيع » .

فإن قال قائل : إن بنيامين المولود الآن إنما جاء ليعقوب عند وصوله بيت لحم ، فلمَ قال الكتاب « هؤلاء بنو يعقوب الذين ولدوا له فى فدان أرام » ؟! أجيبه يجوز أنه اَطلق هذا الاطلاق على أساس أن راحيل حملت قبل خروج يعقوب من هناك .

« وجاء يعقوب إلى إسحق أبيه إلى ممرا قرية أربع[٢٠٤] التى هى حبرون[٢٠٥] حيث تغرب إبراهيم وإسحق » (ع ٢٧) .

تأمل هنا أيضاً كيف يريد الله المحب للبشر أن يحقق أحوال الأبرار فى سائر الأمور ، فإن يعقوب لما قدم على أبيه بعد هذه السنين وتعزى احدهما بالآخر غاية العزاء ، فالابن فبمشاهدة أبيه ، وأما الأب فبما عاينه من ثراء ابنه وكثرة أولاده .

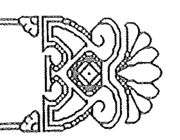
« وكانت أيام إسحق مئة وثمانين سنة فاسلم إسحق روحه ومات وانضم إلى قومه شيخاً وشبعان أياما ودفنه عيسو ويعقوب ابناه » (ع ٢٨ ، ٢٩) .

تأمل يا صاحب كم كان لإسحق من السنين .

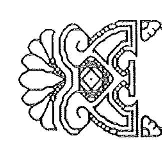


(٢٠٤) أربع : اسم كنعانى معناه « أربعة » .

(٢٠٥) حبرون : اسم عبرى معناه « عصبة ، صحبة ، رباط ، إتحاد » .



الأصحاح السادس والثلاثون

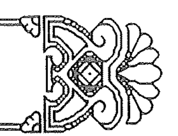


« وهذه مواليد عيسو الذى هو ادوم . اخذ عيسو نساءوه من بنات كنعان عدا بنت ايلون الحثى واهو ليبامة بنت عنى بنت صبعون الحوى . وبسمة بنت اسمعيل اخت نبايوت . فولدت عدا لعيسو أليفاز وولدت بسمة رعوئيل . وولدت أهوليبامة يعوش ويعلام وقورح هؤلاء بنو عيسو الذين ولدوا له فى أرض كنعان . ثم اخذ عيسو نساءه وبنيه وبناته وجميع نفوس بيته ومواشيه وكل بهائمه وكل مقتناه الذى اقتنى فى أرض كنعان ومضى إلى أرض اخرى من وجه يعقوب أخيه . لأن املاكهما كانت كثيرة على السكنى معا ولم تستطع أرض غربتهما أن تحملهما من أجل مواشيهما . فسكن عيسو فى جبل سعير وعيسو هو ادوم . وهذه مواليد عيسو أبى ادوم فى جبل سعير . هذه اسماء بنى عيسو أليفاز ابن عدا امرأة عيسو ورعوئيل ابن بسمة امرأة عيسو . وكان بنو أليفاز تيمان واومار وصفوا وجعثام وقناز . وكانت تمناع سرية لاليفاز بن عيسو فولدت لاليفاز عماليق هؤلاء بنو عدا امرأة عيسو . وهؤلاء بنو رعوئيل نحث وزارح وشمة ومزة . هؤلاء كانوا بنى بسمة امرأة عيسو . وهؤلاء كانوا بنى اهوليبامة بنت عنى بنت صبعون امرأة عيسو ولدت لعيسو يعوش ويعلام وقورح. هؤلاء أمراء بنى عيسو بنو اليفاز بكر عيسو أمير تيمان وأمير اومار وأمير صفو وأمير قناز . وأمير قورح وأمير جعثام وأمير عماليق هؤلاء أمراء أليفاز فى أرض أدوم هؤلاء بنو عدا . وهؤلاء بنو رعوئيل بن عيسو أمير نحث وأمير زارح وأمير شمة وأمير مزة هؤلاء أمراء رعوئيل فى أرض ادوم هؤلاء بنو بسمة امرأة عيسو . وهؤلاء بنو اهوليبامة امرأة عيسو أمير يعوش وأمير يعلام وأمير قورح هؤلاء أمراء اهوليبامة بنت عنى امرأة عيسو . هؤلاء بنو عيسو الذى هو ادوم وهؤلاء أمراؤهم . هؤلاء بنو سعير الحورى سكان الأرض لوطان وشوبال وصبعون وعنى . وديشون وايصر وديشان هؤلاء أمراء الحوريين بنو سعير فى أرض ادوم . وكان ابنا لوطان حورى وهيمام وكانت تمناع اخت لوطان . وهؤلاء بنو شوبال علوان ومناحة وعيبال وشفو واونام . وهذان ابنا صبعون أية وعنى هذا هو عنى الذى وجد الحمائم فى البرية إذ كان يرعى حمير صبعون

أبيـه . وهذا ابن عَنَىَ ديشـون واهوليـبامـة هىَ بنت عَنَىَ . وهؤلاء بنو ديشـان حمدان واشبان ويثران وكران . هؤلاء بنو إيصر بلهان وزعوان وعقان . هذان ابنا ديشان عوصٍ وأران . هؤلاء أمراء الحوريين أمير لوطان وأمير شوبال وأمير صبعون وأمير عنىَ . وأمير ديشون وأمير ايصر وأمير ديشان هؤلاء أمراء الحوريين بأمرائهم فى أرض سعير . وهؤلاء هم الملوك الذين ملكوا فى أرض ادوم قبلما مَلَكَ مَلِك لبنـى اسـرائيل . ملك فى ادوم بالع بن بعـورٍ وكـان اسم مـدينتـه دنهـابةَ . ومـاتِ بالع فـملك مكانه يوباب بن زارحٍ من بصـرة . ومـات يوباب فملك مكانه حُوشام من أرض التيمانى . ومات حوشام فملك مكانه هداد بن بداد الذى كسر مديان فى بلاد موآب وكان اسم مدينته عويت . ومات هداد فملك مكانه سملة من مسريقة . ومات سملة فملك مكانه شأول من رحوبوت النهر . ومات شأول فملك مكانه بعل حانان بن عكبور . ومات بعل حانان بن عكبور فملـك مكانـه هـدار وكـان اسم مدينته فاعو واسم امرأته مهيطبئيل بنت مطرد بنت ماء ذهب . وهذه اسماء أمراء عيسو حسب قبائلهم وأملاكهم باسـمائهم أميـر تمنـاع وأمير علوة وأمير يتيت . وأمير أهوليبامة وأمير ايلة وأمير فينون . وأمير قناز وأمير تيمان وأمير مبصار . وأمير مجديئيل وأمير عيرام هؤلاء أمراء ادوم حسب مساكنهم فى أرض مُلكهم هذا هو عيسو ابو ادوم » (ع ١ ـ ٤٣)[٢٠٦] .



(٢٠٦) عفوا عزيزى القارئ ، لم أجد شرحاً لهذا الأصحاح ، لا فى هذه المخطوطة ولا فى المخطوطات التالية: رقمى ١ ، ٣٥٠ لاهوت بمكتبة البطريركية ، رقم ٢١٨ بمكتبة المتحف القبطى ، رقم ٨٩ بمكتبة الآباء الفرنسيسكان بالقاهرة .



الأصحاح السابع والثلاثون

« وسكن يعقوب فى أرض غربة أبيه فى أرض كنعان . هذه مواليد يعقوب . يوسف إذ كان ابن سبع عشرة سنة كان يرعى مع إخوته الغنم وهو غلام عند بنى بلهة . وبنى زِلفة امرأتى أبيه وأتى يوسف بنميمتهم الرديئة إلى أبيهم » (ع ١ ، ٢)

قول الكتاب « هذه مواليد يعقوب » ، ولما قال لنا هذا بادر حالاً إلى خبر الصبى يوسف ، ولم يذكر المولودين من يعقوب كما فعل فى عيسو (الأصحاح السابق) ، لكنه انثنى إلى شرح حال يوسف الذى هو أصغر سائر اخوته فقال « يوسف إذ كان ابن سبع عشرة سنة كان يرعى مع إخوته الغنم » .

فإن قال قائل : لأى حال بيّن لنا الكتاب عدد سنى يوسف ؟ أجيبه : رغبة أن تعلم يا صاحب أن يوسف وهو فى هذا السن لم يمنعه من الفضيلة، ولنعلم أيضا حسن طاعته لأبيه ، ومؤالفته لاخوته وجفا اولئك ، وذلك أنهم لم يراعوا الصبى ولا رقت قلوبهم عليه لصغر سنه ، لكنهم من بداية الأمر لما رأوا انصبابه إلى الفضيلة ورغبته فى الأمور الجليلة وجميلَ نية الأب فيه حسدوه وأضمروا له العداوة ، والدليل على ذلك قول الكتاب : « وأتى يوسف بنميمتهم الرديئة إلى أبيهم » .

انظر تفاقم هذا الشر ، وذلك أنهم حاولوا إزالة مودة الأب وتغيير حُسن نيته بأن قالوا فى أخيهم ما لا حقيقة له .

« وأما اسرائيل فأحب يوسف أكثر من سائر بنيه لأنه ابن شيخوخته فصنع له قميصاً ملوناً » (ع ٣) .

إن سأل سائل : ما معنى قول الكتاب « وأما اسرائيل فأحب يوسف أكثر من سائر بنيه لأنه ابن شيخوخته » ؟ أجيبه : من شأن الأبناء الآتين لوالديهم فى زمن الشيخوخة ، وعند نهاية العمر أن يشغف بهم آباؤهم ، ويزداد حنوهم عليهم .

والسبب فى إيراد الكتاب الإلهى للعلة التى لأجلها وفرّ الصديق قسط يوسف من المحبة بقوله « لأنه ابن شيخوخته » هو الحرص ألا يتزايد حسد الأخوة له ، لأن هذا الداء صعب ، وإذا ما ألمّ بالنفس لن يفارقها إلى أن ينزل بها إلى اقبح منازل السخف والشناعة ويضر بها غاية الإضرار دون أن يبلغها مرادها .

« فلما رأى أخوته ان اباهم احبه اكثر من جميع أخوته أبغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام » (ع ٤) .

قول الكتاب « فلما رأى اخوته أن أباهم أحبه اكثر من جميع أخوته أبغضوه » فلقد كان الخليق بهم أن يماثلوا أخاهم فى جميل السيرة وحميد الطريقة حرصا على اجتذاب ابيهم إلى كريم الاعتقاد فيهم إلا أنهم لم يخطر ببالهم شيء من هذا ، بل اشتركوا قاطبة فى بغضة الذى أحبه أبوه ، انظر كيف فكروا على إبغاض من لم يسئ إليهم البتة !! .

فإن سألت يا صاحب : ما معنى هذا القول عن أخوة يوسف « أبغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام » اجيبك : إن البغضة ، هذا الداء الثقيل رأس عليهم ، إذ كانت تلك البغضة تنمو فيهم كل يوم ، فصاروا كالمقتنصين العتاة ، فلهذا السبب لم يخاطبوه إلا بالغش وبالمكر دون وديع الكلام وسليمه .

وقول الكتاب « ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام » اشتهر الشر الكامن فى صدورهم، ووضح المكر المندفن فى قلوبهم ، حتى أنهم لم يطيقوا أن يحادثوه بكلمة وداعة ، بل بالغش .

« وحلم يوسف حُلما واخبر اخوته فازدادوا أيضا بغضا له . فقال لهم اسمعوا هذا الحلم الذى حلمت . فها نحن حازمون حزما فى الحقل واذا حزمتى قامت وانتصبت فاحتاطت حُزَمكم وسجدت لحزمتى » (ع ٥ ـ ٧) .

لما كان يوسف لا يعلم بسوء نية إخوته ورديء ملامتهم ، اطمأن إليهم ، وعرّفهم بالحُلم الذى كشفه الله له منذراً إياه بالشرف المتوجه إليه ، وبخضوعهم له .

« فقال له اخوته ألعلك تملك علينا ملكا ام تتسلط علينا تسلطا وازدادوا أيضا بغضاً له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه » (ع ٨) .

ولرغبة الكتاب الإلهى أن يفيدنا بأن هذه البغضة كانوا منطوين عليها من البداية قال « وازدادوا أيضاً بغضا له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه » .

وانظر فرط هذا العمى ، وذلك أنهم اكثروا من إضمار البغضاء لأخيهم لما تحققوا صحة ما سيصير إليه ، لا لأنهم جهلوا ذلك ، إذ كانوا هم المفسرين للحلم ، فقد كان

الجدير بهم جداً لما علموا هذا الأمر أن احسنوا فيه النية ، ونفوا من داخلهم ذا الحسد ، ولكن عقولهم اظلمت ، فلم يمعنوا النظر أن كل ما يفعلونه عليهم لا لهم .

« ثم حلم ايضا حلما آخر وقصه على اخوته فقال إنى قد حلمت حلما أيضا وإذا الشمس والقمر واحد عشر كوكبا ساجدة لى . وقصه على أبيه وعلى إخوته فانتهره ابوه وقال له ما هذا الحلم الذى حلمت هل نأتى انا وأمك وأخوتك لنسجد لك إلى الأرض . فحسده أخوته وأما أبوه فحفظ الأمر » (ع ٩ ـ ١١) .

قول الكتاب الإلهى عن يوسف « فحسده اخوته وأما أبوه فحفظ الأمر » إذ إن الأب حفظ هذا الأمر (تفسير الحلم) ، عالما بما قد تولد فى اخوته من الحسد ، حارساً على ما كشفه الله له ، إلا أن الأخوة لم تجرِ حالهم هذا المجرى .

« ومضى اخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم . فقال اسرائيل ليوسف أليس اخوتك يرعون عند شكيم تعال فارسلك إليهم فقال له هانذا . فقال له أذهب انظر سلامة اخوتك وسلامة الغنم ورُد لى خبراً . فأرسله من وطاء حبرون فأتى إلى شكيم » (ع ١٢ ـ ١٤) .

أرأيت مودة الأب للفتى ؟ أشاهدت طاعة الصبى إذ جرت هذه الأمور لتصح حُسن نية يوسف فى اخوته ، وتظهر رغبتهم فى قتله ؟ .

« فوجده رجل وإذا هو ضال فى الحقل فسأله الرجل قائلاً ماذا تطلب . فقال أنا طالب أخوتى أخبرنى اين يرعون . فقال الرجل قد ارتحلوا من هنا لانى سمعتهم يقولون لنذهب إلى دوثان[٢٠٧] فذهب يوسف وراء اخوته فوجدهم فى دوثان » (ع ١٥ ـ ١٧) .

تأمل يوسف ، هذا العجيب ، كيف يبذل المجهود ويحرص كل الحرص فى مُعاينة إخوته .

« فلما أبصروه من بعيد قبلما اقترب إليهم احتالوا له ليميتوه » (ع ١٨).

---

(٢٠٧) دُوثان : كلمة عبرية ربما تعنى « آبار » .

ذهب يوسف إلى إخوته مفتقداً إياهم ، أما هم فلم يراعوا الأخوّة ، ولا راعوا حق الزيارة والافتقاد ، بل تشاوروا أولاً فى قتله ، هكذا جرى أمر السيد المسيح ، وذلك أنه جرى على ما اقتضته محبته للبشر ، فجاء مفتقداً لجنس البشر ، وأخذ جسداً يشابه أجسادهم ، وصار أخانا ، إن اليهود شرعوا فى صلب المسيح ، أما اخوة يوسف فتشاوروا فى هلاكه .

« فقال بعضهم لبعض هوذا صاحب الأحلام قادم . فالآن هلم نقتله ونطرحه فى احدى الآبار ونقول وحش ردئ أكله فنرى ماذا تكون احلامه . فسمع رأوبين وأنقذه من أيديهم وقال لا نقتله . وقال لهم رأوبين لا تسفكوا دما اطرحوه فى هذه البئر التى فى البرية ولا تمدوا إليه يداً لكى ينقذه من ايديهم ليرده إلى أبيه » (ع ١٩ ـ ٢٢) .

انظر يا صاحب ، كيف أن « رأوبين » لم يجسر على إنقاذ أخيه علانية ، بل أنه على كل حال أراد إلجامهم عن سفك دمه بقوله « لا تسفكوا دماً اطرحوه فى هذه البئر » .

ولما أراد الكتاب الإلهى أن يطلعنا على غرض رأوبين قال « لكى ينقذه من أيديهم ليرده إلى أبيه » .

« فكان لما جاء يوسف إلى اخوته انهم خلعوا عن يوسف قميصه القميص الملون الذى عليه . وأخذوه وطرحوه فى البئر واما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء » (ع ٢٣ . ٢٤) .

لقد كان الخليق بهؤلاء الأشقاء ، ذوى المكر والدهاء ، أن أكرموا أخيهم ولطفوا به ، لكنهم وثبوا إليه وثوب الوحوش المفترسة ، وخلعوا قميصه الملون ، وأخذوه ورموه فى البئر ، كما أشار عليهم رأوبين .

« ثم جلسوا ليأكلوا طعاماً فرفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلة اسمعيليين مقبلة من جلعاد وجمالهم حاملة كثيراء[٢٠٨] وبلسانا [٢٠٩] ولاذنا[٢١٠] ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر » (ع ٢٥) .

أواه من هذا الجفاء ، أفٍ من هذا العدم ، عدم الإنسانية ، أما هذا العجيب فقطع مسافة هذا مقدارها وطلبهم غاية الطلب حرصاً على ملاحظتهم لكى يخبر أباه عنهم ، أما هم فلا رقة معهم ولا ملاطفة تمازجهم ، إلا أن الله المحب للبشر أنقذه حالاً من مكيدتهم ، وذلك كما ذكر الكتاب الإلهى : « وإذا قافلة اسمعيليين مقبلة من جلعاد وجمالهم حاملة كثيراء وبلسانا ولاذنا ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر » .

« فقال يهوذا لأخوته ما الفائدة ان نقتل اخانا ونخفى دمه . تعالوا نبيعه للاسمعيليين ولا تكن ايدينا عليه لأنه اخونا ولحمنا فسمع له اخوته » (ع ٢٦ ، ٢٧) .

تأمل كيف أزاح رأوبين علة شر كثير بشر قليل ويهوذا يشير الآن ببيعه حرصا على إنقاذه من تجرع كأس الموت ، وقد استتبت جميع هذه الأمور ليتم ما أنذر به الله ، وإن لم يريدوا هم .

« واجتاز رجال مديانيون تجار فسحبوا يوسف واصعدوه من البئر وباعوا يوسف للاسمعيليين بعشرين من الفضة فاتوا بيوسف إلى مصر » (ع ٢٨) .

ما أقبح هذا الفعل واكثر ظلمه ! ، يا جهلة ، ما استقبحتم على نفوسكم أن تبيعوا أخاكم الحبيب عند ابيكم ، القادم لافتقادكم الذى لم يظلمكم ، لا كثيراً ولا قليلاً ما هذا الحسد ؟ ما هذا الغم ؟ إن كنتم فعلتم هذا خوفاً من تحقق الحلم ، فلِمَ حاولتم الممتنع واستجزتم بهذا العمل محاربة الله الذى انذره بهذا ، فلأى حال فعلتمَ هذا الفعل الذميم ، وعملتم هذا العمل الثقيل الذى يجدى عليكم لوماً دائماً وحزناً ملازماً لأبيكم .

---

(٢٠٨) كثيراء : نوع من الصمغ .

(٢٠٩) بلسان : شجر يبلغ علوه ١٤ قدماً ، ذو ساق ناعمة وأوراق صغيرة خضراء ، يستخرج منه بلسان جلعاد المشهور برائحته العطرة الذى طالما اطنب الشعراء والمؤرخين القدماء فى مدحه .

(٢١٠) لاذن : نوع من الصمغ ، وقد كان ذا أهمية فى الطب القديم ، إلا أنه قد أُهمل الآن .

إن المرء إذا ما استسهل فعل القبيح من الأمور واستولت عليه الظنون الشنعة لن تحضر لدى عينيه تلك العين التى لا تنام ، ولا يلتفت على شيء من الأمور الباعثة على الحنو كما عرض لهؤلاء القوم ، وذلك أنهم لم يَجُل بخاطرهم أنه أخوهم ، وأنه شاب مقتبل ، ولا وأنه حبيب أبيهم ، لكنهم نبذوا كل فكر صالح وحرصوا على شيء واحد وهو إبراز حسدهم إلى الفعل كما ظنوا فأرادوا قتل أخيهم ، وأما هو فاحتمل ذلك بصبر، لأن اليد الإلهية هى التى صانته وحفظته وسهّلت عليه المستصعب .

« ورجع رأوبين إلى البئر وإذا يوسف ليس فى البئر فمزق ثيابه . ثم رجع إلى اخوته وقال الولد ليس موجوداً وأنا إلى أين أذهب » (ع ٢٩ ، ٣٠) .

قول رأوبين « الولد ليس موجوداً وأنا إلى أين أذهب » ، لأنه ظن أن يوسف قد قُتِلَ وهو المتقدم فيهم .

« فاخذوا قميص يوسف وذبحوا تيساً[٢١١] من المعزى وغمسوا القميص فى الدم. وارسلوا القميص الملون واحضروه إلى أبيهم وقالوا وجدنا هذا حقق أقميص ابنك هو أم لا » (ع ٣١ ، ٣٢) .

لما كان أخوة يوسف قد بلغوا مناهم وأقصوا بمَنْ ابغضوا إلى أرض غريبة ، وشفوا غليل حسدهم أخذوا فى إحكام الحيلة ، وستر ذلك عن أبيهم وكتمان اتفاقهم الذميم، وذلك أنهم « ذبحوا تيسا من المعزى ، وغمسوا القميص فى الدم وارسلوا القميص الملون ، وأحضروه إلى أبيهم وقالوا وجدنا هذا حقق أقميص ابنك هو أم لا » ، يا جهلة لأى حال تغالطون أنفسكم ، يا ويلكم ، أيختفى ما تفعلونه على العين التى لا يلم بها النعاس ، التى هى أولى أن ترهب أكثر من الكل .

« فتحققه وقال قميص ابنى وحش ردئ أكله افترس يوسف افتراساً » (ع ٣٣) .

صدق يعقوب فى قوله هذا ؛ لأن يوسف وقع فى أيدى قوم كأنهم وحوش ذوات دهاء ومكر .

---

(٢١١) التيس : الذكر من المَعز .

« فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحا على حقويه وناح على ابنه أياما كثيرة . فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه فأبى أن يتعزى وقال إنى انزل إلى ابنى نائحاً إلى الهاوية وبكى عليه أبوه » (ع ٣٤ ، ٣٥) .

أهؤلاء أهل ؟! لا ، لأنهم باعوا أخاهم ، وليس هذا فقط ، بل ولأنهم جلبوا لأبيهم فى آخر عمره كآبة متفاقمة .

« وأما المديانيون فباعوه فى مصر لفوطيفار[٢١٢] خصى فرعون[٢١٣] رئيس الشرط » (ع ٣٦) .

وهؤلاء فعلوا حسب ما توصيه سياسة الله .

✣ ✣ ✣

---

(٢١٢) فوطيفار : اسم مصرى معناه « عطية رع إله الشمس » .
(٢١٣) فرعون : كلمة مصرية معناها « البيت الكبير » .



الأصحاح الثامن والثلاثون

«وحدث فى ذلك الزمان أن يهوذا نزل من عند إخوته ومال إلى رجل عدلامى(٢١٤) اسمه حيرة(٢١٥) . ونظر يهوذا هناك ابنه رجل كنعانى اسمه شوع(٢١٦) فأخذها ودخل عليها . فحبلت وولدت ابنا ودعا اسمه عيرا(٢١٧) ثم حبلت أيضا ودعت اسمه أونان(٢١٨) . ثم عادت فولدت أيضا لبنا ودعت اسمه شيلة(٢١٩) . وكان فى كزيب(٢٢٠) حين ولدته واخذ يهوذا زوجة لعيرا بكره اسمها ثامار(٢٢١) . وكان عيرا بكر يهوذا شريراً فى عينى الرب فأماته الرب . فقال يهوذا لاونان ادخل على امرأة اخيك وتزوج بها واقم نسلاً لأخيك . فعلم أونان أن النسل لا يكون له فكان إذ دخل على امرأة اخيه أنه افسد على الأرض لكيلا يعطى نسلاً لأخيه فقبح فى عينى الرب ما فعله فأماته أيضا . فقال يهوذا لثامار كنته اقعدى أرملة فى بيت أبيك حتى يكبر شيلة ابنى . لأنه قال لعله يموت هو أيضاً كأخويه فمضت ثامار وقعدت فى بيت أبيها » (ع ١ ـ ١١) .

أرأيت كيف تمكن الحسد من أخوة يوسف حتى أنهم نسوا الأخوّة ، وهجموا على مَنْ لم يسئ إليهم البتة هجوم الوحوش المفترسة ، وكيف أعلنوا شرهم ، ولم ينل اخاهم من الضراء ما نالهم من الخزى والعار ، لأنهم وان كانوا باعوه لخصى فرعون إلا أن التعطف الإلهى توجه إليه فآزره فى جميع الأمور وضافره فى سائر الشئون ، وسهّل عليه كل ما أصابه .

ولقد أردت أن أتكلم اليوم فى نفس الخبر وأقتصر التعليم عليه ، إلا أنه جاءنا شيء

(٢١٤) عدلام : اسم عبرى معناه « ملجأ » وهى إحدى المدن التى كانت من نصيب سبط يهوذا مع ضياعها .

(٢١٥) حيرة : اسم عبرى ربما كان معناه « نبيل أو شريف » ، وهو عدلامى صديق يهوذا .

(٢١٦) شوع : اسم سامى معناه « غنى » .

(٢١٧) عيرا : اسم عبرى معناه « حذر » .

(٢١٨) أونان : اسم عبرى معناه « قوى » .

(٢١٩) شيلة : اسم عبرى معناه « طلب » .

(٢٢٠) كزيب : اسم عبرى معناه « كاذب » .

(٢٢١) ثامار : اسم عبرى معناه « نخلة » .

عارض لا يجوز لنا إهماله والتغافل عنه ، بل يجب أن نبحث عنه ونقدمه حسب المقدرة، ثم نعود إلى ماكنا فيه من خبر يوسف .

فإن سألتنى : ما هذا الذى جاءنا عارضا ؟ أجيبك : شرح ما كان من يهوذا ، وذلك أنه تزوج بابنة إنسان كنعانى اسمه شوع ، وجاءه منها ثلاثة اولاد ، وزوّج الكبير منهم وهو عيرا لثامار فأماته الله لسوء سلوكه ، ورسم لأونان أخيه أن يأخذ امرأته ويقيم نسلاً له ، لأن الناموس كان يأمر بهذا ، وهو متى مات الأخ بلا ولد يأخذ أخوه امرأته ويأتى له بنسل .

ولما أمات الله أونان أيضاً لمكره ودهائه ، أرهب ذلك يهوذا وازعجه حين رأى ابنه قد تجرع كأس الموت بسرعة ، فأراد تعزية ثامار فوعدها بأن يزوجها بابنه الآخر ، إلا أنه لم يفِ بذلك خوفاً من أن يلحقه ما لحق أخويه ، أما ثامار فكانت تُردد هذه المواعيد فى نفسها جالسة فى دار أبيها متوقعة تمام ما وعدها به حموها ولما رأت أن حماها لا يستجيز تنفيذ ما قاله لها كرهت نفسها الاجتماع بالولد الآخر ، ورضيت بالترمل مترصدة وقتاً ملائماً .

« ولما طال الزمان ماتت ابنة شوع امرأة يهوذا ثم تعزى يهوذا فصعد إلى جُـزّاز غنمه إلى تمنة[٢٢٢] هو وحيرة صاحبه العدلامى فأُخبرت ثامار وقيل لها هوذا حموك صاعد إلى تمنة ليجز غنمه . فخلعت عنها ثياب ترملها وتغطت ببرقع وتلففت وجلست فى مدخل عينايم[٢٢٣] التى على طريق تمنة لأنها رأت ان شيلة قد كبر وهى لم تعط له زوجة . فنظرها يهوذا وحسبها زانية لأنها كانت قد غطت وجهها . فمال إليها على الطريق وقال هاتى ادخل عليك لأنه لم يعلم انها كنّته[٢٢٤] فقالت ماذا تعطينى لكى تدخل علىّ . فقال إنى أرسل جدى معزى من الغنم فقالت هل تعطينى رهنا حتى ترسله . فقال ما الرهن الذى اعطيكِ فقالت خاتمك[٢٢٥] وعصابتك وعصاك التى فى يدك فاعطاها

---

(٢٢٢) تمنة : اسم عبرى معناه « القسم المعين » .

(٢٢٣) عينايم : اسم عبرى معناه « عينان » وهى بلدة على الطريق إلى تمنة .

(٢٢٤) الكنّة : امرأة الابن أو الأخ .

(٢٢٥) كانت الخواتم تلبس فى الاصابع والآذان والمعاصم والمنخرين ، أو تربط بحبل وتعلق فى العنق ، وكان الناس يختمون باختامهم المكاتيب أو المستندات ، وهذا ما يفعله الأميون فى بعض البلدان حتى اليوم .

ودخل عليها فحبلت منه . ثم قامت ومضت وخلعت عنها برقعها ولبست ثياب ترملها » (ع ١٢ ـ ١٩) .

لما رأت ثامار أن حماتها قد ماتت ، ونظرت يهوذا حماها ماضيا إلى جُزاز الغنم ، أرادت أن تجامعه سرقة ، إذ حرصت أن تأتى منه بولد من جماعها هذا ، لا رغبة فى النكاح ، بل خوفا من أن يُعفى على اسمها ، وينسى ذكرها .

فلا يلومن أحد ثامار إذا ما سمع هذا الأمر ، لأنها فعلت ما فعلته إلا على سبيل السياسة ، ولهذا السبب لا تلحقها لائمة ولا مسبّة ، ولا يهوذا أيضا ، فاذا أنت تصفحت الخبر وجدت أن المسيح من المولودين منها بالجسد .

« فأرسل يهوذا جدى المعزى بيد صاحبه العدلامى ليأخذ الرهن من يد المرأة فلم يجدها . فسأل اهل مكانها قائلاً اين الزانية التى كانت فى عينايم على الطريق فقالوا لم تكن ههنا زانية . فرجع إلى يهوذا وقال لم اجدها واهل المكان أيضا قالوا لم تكن ههنا زانية. فقال يهوذا لتأخذ لنفسها لئلا تصير اهانة انى قد أرسلت هذا الجدى وانت لم تجدها » (ع ٢٠ ـ ٢٣) .

لما بلغت ثامار غرضها ، ابدلت شكلها ، ومضت من هناك إلى بيتها ، أما يهوذا فلما لم يعرف شيئا مما جرى وفىّ بوعده ، وأرسل لها الجدى ليأخذ ما كان أرهنه عندها، إلا أن الرسول لم يصادف ثامار هناك فعاد إليه .

« ولما كان نحو ثلاثة اشهر أخبر يهوذا وقيل له قد زنت ثامار كنتك وها هى حُبلى أيضا من الزنا فقال يهوذا اخرجوها فتُحرق » (ع ٢٤) .

ما أعظم هذا السخط ! ما أبهظ هذا العقاب ! لما ظن يهوذا بالهفوة أنها فى غاية القباحة ، لذلك بث بهذا العقاب .

« اما هى فلما اخُرجت أرسلت إلى حميها قائلة منَ الرجل الذى هذه له أنا حُبلى وقالت حقق لمن الخاتم والعصابة والعصا هذه » (ع ٢٥) .

تأمل يا صاحب كيف تورد ثامار شهوداً ثقات كفاة يبرءون ساحتها ويخلصونها مما تعترف به صامتة ، إذ أرسلت ثلاثة أشياء كأنها ناطقة ، وجلست فى منزلها ساكنة وبالغلبة ظافرة .

« فتحققها يهوذا وقال هى أبُّر منى لأنى لم اعطها لشيلة ابنى فلم يعد يعرفها أيضاً » (ع ٢٦) .

فإن سألت ما معنى قول يهوذا « هى أبّر منى » أجيبكِ : أى لا إثم عليها ولا عقاب يلزمها ، أما أنا فأوجب على نفسى القضية وإن لم يحضر معنف وينفذ ، فأنا أشهر أمرى على أن لى موبخا كافياً ، وهو الرهن الذى دفعته إليها .

ولما أراد يهوذا إقامة العذر لثامار أيضا قال « لأنى لم أعطها لشيلة ابنى » .

فلما اعترف يهوذا بزلته وأنقذ ثامار من العذاب قال الكتاب الإلهى عنه « فلم يعد يعرفها أيضاً » ، فدل بذلك على أن يهوذا لم يقدم على مضاجعتها لو لم يكن غير خبير بالحال .

« وفى وقت ولادتها إذا فى بطنها تؤمان . وكان فى ولادتها ان احدهما اخرج يدا فأخذت القابلة وربطت على يده قرمزا [٢٢٦] قائلة هذا خرج أولاً . ولكن حين رد يده إذا اخوه قد خرج فقالت لماذا اقتحمت عليك اقتحامِ . فدعى اسمه فارص [٢٢٧] . وبعد ذلك خرج اخوه الذى على يده القرمز فدُعِيَ اسمه زارح [٢٢٨] » (ع ٢٧ - ٣٠) .

تأمل ههنا يا صاحب هذا السر اللطيف والإنذار بما يريد الله أن يكون ، إذ بعد أن ربطتِ القابلة يد المولود الأول بالخيط الأحمر ليتبين حاله وينكشف أمره ، فأمكن أخاه الآخر من التقدم فبرز أولاً المظنون أخيراً .

إن ما جرى لم يكن عبثا ، بل رسما لما سيكون فالأمور نفسها تدل على ذلك ، إذ إن الحادث لم يحدث على ما توجبه الطبيعة ، إذ كيف يمكن أن تنقبض يد إلى داخل بعد ربطها بالخيط الأحمر ، ويبرز الأخير أولاً ، إن القوة الإلهية كانت مدبرة هذا الأمر ، فإخراج زارح الذى هو النور يده ثم إدخاله إياها إشارة إلى البيعة ، وبروز فارص بعده ، رمز على شريعة اليهود وطول مكوثها ، ثم صرفت الأول الذى هو زارح إلى الخروج ، تلويحاً بانتشار أمر البيعة وزوال المذهب اليهودى .

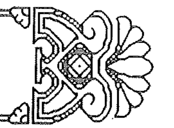
✣ ✣ ✣

---

(٢٢٦) القرمز : صبغ أحمر ارمنى الأصل .

(٢٢٧) فارص : اسم عبرى معناه « ثغرة » .

(٢٢٨) زارح : اسم عبرى معناه « بزوغ النور » . .



الأصحاح التاسع والثلاثون

« وأما يوسف فانُزل إلى مصر واشتراه فوطيفار خصى فرعون رئيس الشرط رجل مصرى من يدَ الاسمعيليين الذين انزلوه إلى هناك . وكان الرب مع يوسف فكان رجلاً ناجحاً وكان فى بيت سيده المصرى » (ع ١ ، ٢) .

فإن سألت : ما معنى « وكان الرب مع يوسف » ؟ أجيبك : أى أن المؤازرة الإلهية شملته فسهّلت عليه المستصعب ، ودبرت سائر شئونه وراعته فى كل أموره ، وودّعت طبيعة اولئك التجار التى كانت تشابه صنم الصخرة جفاءً وغلظة ، وبعثتهم على بيعه لفوطيفار خصى فرعون ، لتقرّب عليه الطريق للمملكة وليمكنه الارتقاء إلى عرشها بخوضه فى أنواع المحن .

لكن يا صاحب إذا ما سمعت عن احتمال يوسف لعبودية أولئك التجار ، وخدمته بعد ذلك لخصى فرعون ، فامعن النظر فى أنه لم يلمّ به قلق ، ولا مذلة ولا حيرة ، ولا قال فى نفسه يا سبحان الله ، لقد كان كل ما نظرته فى أحلامى خدعة ، فهذه الأمور لم يتفوه بها هذا العجيب ولا أجالها فى خاطره ولا أخطرها بباله بل صبر عليها كلها صبر الأبطال الودعاء .

فإن سألتِ يا صاحب ما معنى « فكان رِجلاً ناجحاً » ؟ أجيبك : أى أن جميع أموره كانت مُيسرة ، وكان الاشتمال الإلهى مُحيطاً به ، ومصاحبا له فى كل موضع .

« ورأى سيده ان الرب معه وانٍ كل ما يصنع كان الرب ينجحه بيده . فوجد يوسف نعمة فى عينيه وخدمهُ فوكله على بيته ودفع إلى يده كل ما كان له . وكان من حين وكله على بيته وعلى كل ما كان له ان الرب بارك بيت المصرى بسبب يوسف وكانت بركة الرب على كل ما كان له فى البيت وفى الحقل . فترك كل ما كان له فى يد يوسف ولم يكن معه يعرف شيئا إلا الخبز الذى يأكل وكان يوسف حسن الصورة وحَسن المنظر » (ع ٣ ـ ٦) .

أرأيت مقدار مؤازرة اليمين الإلهية ؟ والدليل على ذلك أن هذا الغريب والعبد نظر فى جميع ما لسيده وتسلم كل ما له ، حتى ان سيده لم يكن يعرف شيئاً إلا ما يأكله ، فكأنه جعله صاحب الدار ، فاحتوى ذلك العبد الاسير احتواء الأصحاب على كل ما كان لسيده .

هذه الصورة صورة الفضيلة ، وهي إنها إذا ما برزت استولت على الكل ، وكما أن الضياء إذا ما لمع طرد الظلام ، وهكذا الفضيلة إذا ما ظهرت بادت الرذيلة بالكمال .

وإن سأل سائل فقال : لأى حال ذكر لنا الكتاب الإلهى جمال جسد يوسف فقال « وكان يوسف حسن الصورة وحسن المنظر » ؟ أجيبه : إنما ذكر ذلك رغبة فى أن يُعلمنا أن الجمال كان قد شمله من الجهتين ، النفس والجسد ، لأنه كان فى عنفوان الشباب جميل الصورة حسن المحيا ، وإذ تقدم الكتاب الإلهى يشرح هذا رغبة فى أن يلقننا أن المصرية تغرمت بجماله وشغفها ظرفه وبهاؤه ، وتيمنت بحسنه فاستدعته إلى ذلك الجماع الشنيع .

« وحدث بعد هذه الأمور ان امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف وقالت اضطجع معى » (ع ٧) .

إن قال قائل : ما معنى قول الكتاب الإلهى : « وحدث بعد هذه الأمور » ؟ أجيبه : أى بعد تقلد يوسف النظر فى جميع المنزل وإكرام سيده له بهذه الكرامة ، أن رفعت امرأة سيده عينيها إليه .

وقول امرأة فوطيفار ليوسف « اضطجع معى » تأمل وقاحة هذه المرأة الفاسقة ، وذلك أنها لم يخطر ببالها أنها سيدة وذلك عبد ، لكنها أولعت بجماله ، والتهب قلبها بنار العشق الشيطانى .

« فأبى وقال لامرأة سيده هوذا سيدى لا يعرف معى ما فى البيت وكل ما له قد دفعه إلى يدى . ليس هو فى هذا البيت اعظم منى ولم يمسك عنى شيئا غيرك لانك امرأته فكيف اصنع هذا الشر العظيم وأُخطئ إلى الله » (ع ٨ ، ٩) .

وى لحسن وفاء هذا المرء الفاضل ، انظر يا صاحب كيف يعدد إحسان سيده ، رغبة فى أن يعرّفها ردئ ما ارتكبته مِن الخيانة لزوجها ، ثم لرغبته أن يقطع أملها منه ويذكرها بسيده زوجها ويبعثها على حسن الإخلاص له دون الخيانة لمضجعه قال « ولم يمسك عنى شيئا غيرك لأنك امرأته » وكأنه يقول لها : وإن كنتِ زوجة له فكيف يجوز لى أن انصاع لهذا الأمر الشرير .

ولما كانت المرأة تحاول الخلوة بيوسف مجتهدة فى أن ينكتم ما تفعله عن زوجها وعن كل مَنْ بالبيت قال لها « فكيف أصنع هذا الشر العظيم وأُخطئ إلى الله » ، وكأنه يقول لها : أتراكِ أيتها المرأة تظنين اننا نخفى عن العين التى لا تنام وإن امكننا الاستتار عن الكل فمن الله وحده يجب أن نخاف ونخشى .

« وكان إذ كلمت يوسف يوما فيوما انه لم يسمع لها ان يضطجع بجانبها ليكون معها » (ع ١٠) .

ولرغبة الكتاب الإلهى أن نعلم تفاقم فضيلة الصديق ، وأنه لم يحتمل هذه المجاهرة والمناظرة ، لا دفعة واثنتين بل عدة مرات قال « وكان إذ كلمت يوسف يوماً فيوماً » .

« ثم حدث نحو هذا الوقت انه دخل البيت ليعمل عمله ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك فى البيت . فامسكته بثوبه قائلة اضطجع معى فترك ثوبه فى يدها وهرب وخرج إلى خارج » (ع ١١ ، ١٢) .

لا نجوز أيها الخلان هذا الموضع على الإطلاق ، بل سبيلنا أن نحسن التأمل لمقدار ما جاهد هذا الصديق والمرء الفاضل ، فلست اتعجب من خلاص الفتية الثلاثة من لهيب النار فى بابل دون أن ينالهم شيء من الضرر كتعجبى وذهولى من هذا العجيب الذى انمسك من ثيابه وتركها فى يدى تلك الفاجرة النجسة قبح الله وجهها ، هارباً منها .

وكما أن الفتية الثلاثة حظوا بالحنو الإلهى لحسن سلوكهم فافلتوا من أتون النار ، هكذا وهذا المرء الفاضل ، فإنه لما بالغ فى المجاهدة عن العفة شملته المؤازرة الإلهية ، إذ إنه لم يكن بالقادر على الخوض فى هذه المعركة والمكافحة فى هذه الملحمة إلى هذا الحد، والانفلات من هذه الفاسقة ، لو لم تكن اليمين الإلهية معاونة له ومضافرة إياه .

وان كنت تريد أن تنظر يا صاحب من هذا اليافع العجيب شيئا يروقك ويذهلك ، انظر كيف خرج عارياً من ملابسه لابسا لباس العفة ناجيا من لهيب النار ، وليس انه ما احترق فقط ، بل وبرز ذا بهاء وضياء .

« وكان لما رأت أنه ترك ثوبه فى يدها وهرب إلى خارج . أنها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة انظروا قد جاء إلينا برجل عبرانى ليداعبنا دخل إلىّ ليضطجع معى فصرخت بصوت عظيم . وكان لما سمع انى رفعتُ صوتى

وصرختُ له ترك ثوبه بجانبى وهرب وخرج إلى خارج » (ع ١٣ ـ ١٥) .

لما لم تحتمل المصرية ما شملها من الخزى ، وأحاط بها من العار ، حاولت الممتنع، ورامت المتعذر فاستدعت أهل بيتها ، وشهّرت بالصديق عندهم ، واتهمته بما كانت هى قد فاوضتـه به قائلة : « انظروا قد جاء إلينا برجل عبرانى ليداعبنا دخل إلىّ ليضطجع معى » .

ولم تزل هذه الصفة صفة الرذيلة ، وهى أن تنسب دائما مناقصها إلى الفضيلة إذا ما حاولت مناقضتها ومجاهدتها ، ولقد فعلت هذه السخينة العين مع الصديق هذا الأمر بعينه ، إذ إنها وصفته بما يوصف به الفجرة ، ووصفت نفسها بالعفة ولهذا السبب قالت « وكان لما سمع انى رفعت صوتى وصرخت له ترك ثوبه بجانبى وهرب وخرج إلى خارج » .

« **فوضعـت ثوبـه بجانبهـا حتـى جـاء سـيده إلى بيته . فكلمته بمثل هـذا الكــلام قائلة دخل إلىّ العبدُ العبرانى الذى جئتَ به إلينا ليداعبنى . وكـان لمـا رفعتُ صوتى وصـرختُ أنه ترك ثيـابه بجـانبى وهرب إلى خـارج »** (ع ١٦ ـ ١٨) .

وعند مجىء زوجها طالعته بجميع ذلك ، وتناهت فى سبّ يوسف بغاية الخبث والمكر قائلة « دخل إلىّ العبد العبرانى الذى جئتَ به إلينا ليداعبنى » ثم أظهرت له ثياب الشاب برهانا على صدق ما ذكرته بقولها « وكان لما رفعتُ صوتى وصرختُ أنه ترك ثيابه بجانبى وهرب إلى خارج » .

« **فكان لما سمع سيـده كلام امرأته الذى كلمتـه به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بى عبدك ان غضبه حمى . فأخذ يوسف سيده ووضعه فى بيت السـجن المكان الذى كان اسـرى الملك محبـوسين فيه وكـان هناك فى بيت السجن »** (ع ١٩ ، ٢٠) .

فلو لم يصدقـها زوجها لما كان سجن يوسف ، ولو كان أيضا وثق بما قالتـه له وحققه لما كان حبسه ، بل قطع رأسه ، إلا أن اليمين الإلهية راعته واعتنت به ، فسهل عليه الصعب ، وتلطف معه الجفاة ، ورق له القساة .

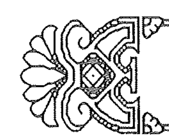
فاننا أيها الخلان إذا ما واصلنا جميل الأعمال وانعكفنا على كريم الأفعال شملنا الحنو الإلهى غاية الشمول .

« ولكن الرب كان مع يوسف وبسط إليه لطفا وجعل نعمة له فى عينى رئيس بيت السجن . فدفع رئيس بيت السجن إلى يد يوسف جميع الأسرى الذين فى بيت السجن وكل ما كانوا يعملون هناك كان هو العامل . ولم يكن رئيس بيت السجن ينظر شيئا البتة مما فى يده لأن الرب كان معه ومهما صنع كان الرب ينجحه » (ع ٢١ - ٢٣) .

حقا ، إنه لا يوجد أسعد من الحاظى بالمؤازرة الإلهية ، تأمل كيف أن السجان أوكل إلى يوسف أمر السجن وقلده النظر فى المسجونين ، وتقدم على كل مَنْ فى السجن بالرضوخ له وحسن الطاعة من غير أن يعلم بشيء البتة ، وجعل كل الأمر مردود إلى يوسف ، لأجل أن الرب كان معه ، وقد أجرى الرب النجاح على يديه فى كل ما كان يعمله .

امعن النظر أيها الخليل فى أمر هذا العجيب ، وكيف شمل الإقبال كل ما كان يعمله لما كانت المضافرة الإلهية مصاحبة له دائماً .





الأصحاح الأربعــون



« وحدث بعد هذه الأمور ان ساقى ملك مصر والخباز اذنبا إلى سيدهما ملك مصر . فسخط فرعون على خصيّيه رئيس السقاة ورئيس الخبازين . فوضعهما فى حبس بيت رئيس الشُرط فى بيت السجن المكان الذى كان يوسف محبوسا فيه . فاقام رئيس الشُرط يوسف عندهما فخدمهما وكانا اياماً فى الحبس » (ع ١ ـ ٤) .

قول الكتاب « وحدث بعد هذه الأمور » فإن قال قائل : أى الأمور يعنى ؟ أجيبه : يعنى ما شرحه لنا أى بعدما شُهِر بيوسف وحكم عليه بالمقام فى السجن ، وليس هذا فقط بل وبعد أن عرفنا أن الرب كان معه ، وأن السجان أوكل إليه النظر فى كل ما كان هناك .

وقوله « فاقام رئيس الشرط يوسف عندهما فخدمهما » إذ لم يكن يعامله رئيس الشرط معاملة محبوس بل مساهم فى النظر ، وليس هذا فحسب ، بل كان ينزله بمنزلة أمرء يخفف رزايا المعتقلين هناك ، ويحمل عنهم شطراً من ثقلها بحسن سياسته ولطيف معاملته .

« وحلما كلاهما حلما فى ليلة واحدة كل واحد بحسب تعبير حلمه ساقى ملك مصر وخبازه المحبوسان فى بيت السجن . فدخل يوسف إليهما فى الصباح ونظرهما وإذا هما مغتمان . فسأل خصيى فرعون اللذين معه فى حبس بيت سيده قائلاً لماذا وجهاكما مكمدان اليوم » (ع ٥ ـ ٧) .

لما كان هذا العجيب هدفه تعزية اللذين كانا معه فى السجن وإيراد المسرة عليهما ، إذ رآهما مضطربين ومن جهة الحلم منزعجين منحلين قال لهما « لماذا وجهاكما مكمدان اليوم » ، لأن هيئة وجههما دلت على الحزن الذى داخلهما ، لهذا السبب قال بعض الحكماء : إذا فرح القلب نضر الوجه ، وإذا شجى يقطب ، فلما رآهما كئيبين ، ومن أجل المنظر مضطربين استخبرهما عن العلة التى أوجبت ذلك رغبة أن يقف عليها .

تأمل يا صاحب هذا المرء الفاضل ، فعلى الرغم من حبسه لا يتخلف عن الفضيلة مجتهداً فى تخفيض حزن غيره .

« فقالا له حلمنا حُلما وليس مَنْ يعبّرهُ فقال لهما يوسف أليست لله التعابير قصا عليّ » (ع ٨) .

قولهما ليوسف « حلمنا حُلما وليس مَنْ يعبّرهُ » لأنهما جهلا حكمة المفاوض لهما ، إذ اعتقدا فيه أنه كواحد من الجماعة ، ولذلك لم يذكرا له الحلم ، وما هو ، بل قالا « حلمنا حُلما وليس مَنْ يعبّره » .

وقول يوسف لهما « أليست لله التعابير قصا عليّ » وكأنه يقول : أما يمكن أن يتفسر حلمكما بتفضل الله ، إشرحاه لى إذاً ، فلا أقول لكما شيئا من نفسى ، الله هو الكاشف .

انظر يا صاحب هذا الحرص ، وزيادة هذا الاتضاع لأنه لم يقل أنا أفسره لكما وأوضحه واطلعكما على ما يدل عليه ، بل إن الله هو القادر وحده على إبانة ذلك وإعلانه .

« فقص رئيس السقاة حلمه على يوسف وقال له كنت فى حلمى وإذا كرمة أمامى . وفى الكرمة ثلاثة قضبان وهى إذ أفرخت طلع زهرها وانضجت عناقيدها عنبا . وكانت كأس فرعون فى يدى فأخذت العنب وعصرته فى كأس فرعون واعطيت الكأس فى يد فرعون . فقال له يوسف هذا تعبيره الثلاثة قضبان هى الثلاثة أيام . فى ثلاثة أيام أيضا يرفع فرعون رأسك ويردك إلى مقامك فتعطى كأس فرعون فى يده كالعادة الأولى حين كنت ساقيه وانما إذا ذكرتنى عندك حينما يصير لك خير تصنع إلىّ إحساناً وتذكرنى لفرعون وتخرجنى من هذا البيت » (ع ٩ ـ ١٤) .

قول يوسف لرئيس السقاة « حينما يصير لك خير تصنع إلىّ إحسانا وتذكرنى لفرعون وتخرجنى من هذا البيت » ، فاذا سمعت أيها الخليل هذا الأمر فلا تنسبن إلى الصديق ضيق الافق وصغر النفس ، بل بالأحرى بك كثيراً أن تذهل من حسن صبره وجميل شكره على هذه المصاعب والنوائب ، فإنه وإن كان قد نال حظوة عند السجان ، إلا أن السجن كريه ، والوجود مع الانجاس الأرجاس مهلك .

واستدل من هذا يا صاحب على لطيف فلسفته وبالغ حكمته ، وذلك أنه احتمل سائر ما أصابه بأوفر البسالة وأحمد الحماسة ، باذلاً من المسكنة ألطفها ، ومن حسن

المعاملة أشفّها بقوله : « حينما يصير لك خير تصنع إليّ إحسانا وتذكرني لفرعون وتخرجني من هذا البيت » .

« لأني قد سُرقتُ من أرض العبرانيين وهنا أيضا لم افعل شيئاً حتى وضعوني في السجن » (ع ١٥) .

قول يوسف لرئيس السقاة « لأني قد سُرقتُ من أرض العبرانيين » ، فلم يذكر اخوته ولا تفوّه بالعلة التي لأجلها جاء ، ولا أظهر ما جرى عليه من قبح المعاملة ، بل دفن ما اقترفه أخوته ، وذكر ما يختص به بقوله « سرقتُ من أرض العبرانيين » .

وبقوله « وهنا أيضا لم افعل شيئا حتى وضعوني في السجن » أغمض عن ذكر تلك المصرية الفاجرة ، وعن سخط سيده عليه في غير موضعه .

فإذا ما سمعنا هذه الأمور ، فلنتأدب بها ونحرص على إيراد مثلها إن دعانا إلى ذلك داع ، وإذا ما أصابنا شيء مثل هذا فلا نقبح فاعلي السوء بنا ولا ندرب عليهم ألسنة السب ، بل نظهر براءتنا مما ظلمنا به بوداعة وسكون جأش ، ونشابه هذا العجيب الذي لم يستجز أن يتفوّه في هذه الفاجرة ولا بلفظة واحدة ، ولا أظهر فسقها ، على الرغم من أنه في ضنك السجن .

فلنستدل الآن من جميع ما جرى بعد هذا على صبر الرجل ، وكيف أنه لم يتثاقل بالانتظار ولا استصعبه ، بل صبر على كل ذلك بغاية الشهامة .

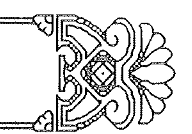
« فلما رأى رئيس الخبازين أنه عبَّر جيداً قال ليوسف كنت أنا أيضا في حلمي وإذا ثلاثة سلال حواري[٢٢٩] على رأسي . وفي السلّ الأعلى من جميع طعام فرعون من صنعة الخباز والطيور تأكله من السل عن رأسي . فأجاب يوسف وقال هذا تعبيره الثلاثة السلال هي ثلاثة أيام . في ثلاثة أيام أيضا يرفع فرعون رأسك عنك . ويعلقك على خشبة وتأكل الطيور لحمك عنك فحدث في اليوم الثالث يوم ميلاد فرعون أنه صنع وليمة لجميع عبيده ورفع رأس رئيس السقاة ورأس رئيس الخبازين بين عبيده . ورد رئيس السقاة إلى سقيه فأعطى الكأس في يد فرعون . وأما رئيس الخبازين فعلقهُ كما عبَّر لهما يوسف . ولكن لم يذكر رئيس السقاة يوسف بل نسيه » (ع ١٦ ـ ٢٣) .

---

(٢٢٩) حواري : دقيق أبيض أو ما يخبز منه .

تأمل يا صاحب هذا الصديق ، وكيف أنه أقام البرهان على فضائله الزاهرة ، واستعماله من السكون أوفره ، ومن الهدوء أخطره ، ولا قلق حدث له ، ولا قال ككثيرين من الناس : ما هذا الأمر ؟ لقد فسرت الحلم لرئيس سقاة الملك ، وصار إليه بسرعة ما ذكرته له وبشرته به من لطف الشأن وخصيص المكان فاهملنى هكذا ورمانى بظهر ، منعكفا على ما صار إليه من السعادة ، ومشتملاً بما شمله من الفرح والسرور ، وغير ملتفت إليّ أنا السجين مع سفاكى الدماء واللصوص وغيرهم من ذوى الشرور الكثيرة من غير أن أعمل عملاً يوجب ذلك ، فلم يخطر ببال هذا المرء الزكى مثل هذا، ولا أجاله فى عقله .





الأصحاح الحادى والأربعون

« وحدث من بعد سنتين من الزمان ان فرعون رأى حلما وإذا هو واقف عند النهر » (ع ١) .

قول الكتاب « وحدث من بعد سنتين من الزمان » أى بعد حُسن حال رئيس السقاة ، وإذ وجب أن يترتب الوقت ليخرج يوسف فى الوقت الملائم من السجن بنباهة وعلو صيت ، لأن رئيس السقاة لو كان ذكر يوسف للملك قبل أن ينظر ذلك الحلم وأخرجه من السجن لم تكن فضيلته قد شهرت لعدد كبير من الناس ، إلا أن الله اللطيف الخبير الحكيم دبر الأمر تدبير الصانع الحاذق ، وعرف المدة التى يجب أن يبقى فيها الذهب ملابساً للنار ، ثم يخرج منها ، فأطلق النسيان على رئيس السقاة سنتين رغبة فى أن يشتهر يوسف عند سائر الدولة وخواص الملك .

« وهوذا سبع بقرات طالعة من النهر حسنة المنظر وسمينة اللحم فارتعت فى روضة . ثم هوذا سبع بقرات اخرى طالعة وراءها من النهر قبيحة المنظر ورقيقة اللحم فوقفت بجانب البقرات الأولى على شاطىء النهر . فأكلت البقرات القبيحة المنظر والرقيقة اللحم البقرات السبع الحسنة المنظر والسمينة واستيقظ فرعون . ثم نام فحلم ثانية وهوذا سبع سنابل طالعة فى ساق واحد سمينة وحسنة . ثم هوذا سبع سنابل رقيقة وملفوحة بالريح الشرقية نابتة وراءها . فابتلعت السنابل الرقيقة السنابل السمينة الممتلئة واستيقظ فرعون وإذا هو حُلم . وكان فى الصباح ان نفسه انزعجت فأرسل ودعا جميع سحرة مصر وجميع حكمائها وقص عليهم فرعون حُلمه فلم يكن من يعبّره لفرعون » (ع ٢ ـ ٨) .

انظر يا صاحب إلى باهر سياسة الله ، وذلك أنه سمح باجتماع القوم المظنونين حكماء عن بكرة أبيهم واجتماعهم للحُلم وخوضهم فيه ، قصداً لأن تشتهر عند الكل النعمة الإلهية المعلقة بذاك المحبوس والعبد واليهودى ، إذا ما أُحضر إلى حضرة الملك وفسر ما جهلته هذه الطوائف وخفى عنها .

« ثم كلم رئيس السقاة فرعون قائلاً أنا اتذكر اليوم خطاياى . فرعون سخط على عبديه فجعلنى فى حبس بيت رئيس الشرط أنا ورئيس الخبازين .

فحلمنا حُلما فى ليلة واحدة أنا وهو حلمنا كل واحد بحسب تعبير حُلمه . وكان هناك معنا غلام عبرانى عبد لرئيس الشرط فقصصنا عليه فعبّر لنا حُلمينا عبّر لكل واحد بحسب حلمه . وكما عبر لنا هكذا حدث ردنى أنا إلى مقامى وأما هو فعلقهُ » (ع ٩ - ١٣) .

انظر كيف ابتدأ رئيس السقاة يشرح ما حدث أثناء وجوده مع رفيقه الخباز فى السجن ، وكيف نظر يوسف الحلمين ، وأخذ فى تأويلهما ، وأن كل ما بشرهما به برز إلى الفعل .

« فارسل فرعون ودعا يوسف فاسرعوا به من السجن فحلق وابدل ثيابه ودخل على فرعون . فقال فرعون ليوسف حلمت حلما وليس مَنْ يعبّره وأنا سمعت عنك قولاً أنك تسمع احلاما لتعبّرها » (ع ١٤ ، ١٥) .

تأمل مقدار هذه الكرامة من بداية الأمر ، فإن يوسف لما أظهر من الصبر أحسنه ، خرج من السجن خروج الذهب الرائق ، وقدِم على فرعون ، أشاهدت يا صاحب مقدار المعونة الإلهية ؟ .

وتأمل فرعون ، كيف أنه يذكر ما يذكره محتشماً ، لأنه لم يقل بأنه لم يقدر أحد من حكمائه على تفسير الحلم ، بل قال « حلمت حُلما وليس مَنْ يعبّره » .

« فأجاب يوسف فرعون قائلاً ليس لى . الله يجيب بسلامة فرعون » (ع ١٦) .

امعن النظر ههنا يا صاحب فى لطيف قصد يوسف ، وفرط خشوعه ، وحُسن إجابته لفرعون ، وكأنه يقول له : لا تظن أيها الملك أننى أقدم شيئاً من ذاتى وافسره من حكمة بشرية ، لأنه لا يمكن فهم هذه الأمور دون الإعلان الإلهى ، فاعلم أنك ما تسمع جواباً يعود بنفعك من دون الله ، فاذا ما علمت أن سيد الكل هو الكاشف ذلك، فلا تطلب إذاً إيضاحه من الناس .

انظر كيف يُعلم يوسف فرعون بهذا الجواب ضعف حكماء فرعون وقوة الله .

« فقال فرعون ليوسف انى كنت فى حُلمى واقفاً على شاطىء النهر . وهوذا سبع بقرات طالعة من النهر سمينة اللحم وحسنة الصورة فارتعت فى روضة . ثم هوذا سبع بقرات اخرى طالعة وراءها مهزولة وقبيحة الصورة جداً

ورقيقة اللحم لم انظر فى كل أرض مصر مثلها فى القباحة . فأكلت البقرات الرقيقة والقبيحة البقرات السبع الأولى السمينة . فدخلت اجوافها ولم يُعلَم انها دخلت اجوافها فكان منظرها قبيحا كما فى الأول . واستيقظتُ . ثم رأيتُ فى حُلمى وهوذا سبع سنابل طالعة فى ساق واحد ممتلئة وحسنة . ثم هوذا سبع سنابل يابسة ملفوحة بالريح الشرقية نابتة وراءها . فابتلعت السنابل الرقيقة السنابل السبع الحسنة . فقلت للسحرة ولم يكن مَنْ يخبرنى . فقال يوسف لفرعون حُلم فرعون واحد قد أخبر الله فرعون بما هو صانع . البقرات السبع الحسنة هى سبع سنين والسنابل السبع الحسنة هى سبع سنين هو حُلم واحد . والبقرات السبع الرقيقة القبيحة التى طلعت وراءها هى سبع سنين والسنابل السبع الفارغة الملفوحة بالريح الشرقية تكون سبع سنين جوعا . هو الأمر الذى كلمت به فرعون قد اظهر الله لفرعون ما هو صانع . هوذا سبع سنين قادمة شبعا عظيما فى كل أرض مصر . ثم تقوم بعدها سبع سنين جوعا فينسى كل الشبع فى أرض مصر ويتلف الجوع الأرض . ولا يُعرف الشبع فى الأرض من أجل ذلك الجوع بعده لأنه يكون شديداً جداً . وأما عن تكرار الحلم على فرعون مرتين فلأن الأمر مقرر من قبل الله والله مسرع ليصنعهُ . فالآن لينظر فرعون رجلاً بصيراً ويجعله على أرض مصر . يفعل فرعون فيوكل نظاراً على الأرض ويأخذ خُمس غلة أرض مصر فى سبع سنى الشبع . فيجمعون جميع طعام هذه السنين الجيدة القادمة ويخزنون قمحا تحت يد فرعون طعاما فى المدن ويحفظونه . فيكون الطعام ذخيرة للأرض لسبع سنى الجوع التى تكون فى أرض مصر فلا تنقرض الأرض بالجوع » (ع ١٧ ـ ٣٦) .

لقد شرح فرعون الحلم ليوسف ، أما يوسف ففسر الحلم .

« فحسن الكلام فى عينى فرعون وفى عيون جميع عبيده . فقال فرعون لعبيده هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله » (ع ٣٧ ، ٣٨) .

اقتنع فرعون وعبيده بما قاله يوسف ، وبعد هذا أخذ فرعون فى العمل بحسب ما دلّ عليه حُلم يوسف وهو عند أبيه ، فإن فرعون وإن كان جهل ما ينتهى إليه معنى الحلم عندما سمع ذلك من يوسف قال لعبيده « هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله » ، أرأيت كيف علم فرعون أيضا بأن وضوح هذه الأمور ليوسف هى من الكشف الإلهى؟.

« ثم قال فرعون ليوسف بعدما اعلمك الله كل هذا ليس بصير وحكيم مثلك . انت تكون على بيتى وعلى فمك يقبل جميع شعبى إلا إن الكرسى اكون فيه اعظم منك . ثم قال فرعون ليوسف انظر قد جعلتك على كل أرض مصر . وخلع فرعون خاتمه من يده وجعله فى يد يوسف وألبسه ثياب بوص[٢٣٠] ووضع طوق ذهب فى عنقه . واركبه فى مركبته الثانية ونادوا أمامه اركعوا وجعله على كل أرض مصر . وقال فرعون ليوسف أنا فرعون فبدونك لا يرفع إنسان يده ولا رجله فى كل أرض مصر » (ع ٣٩ ـ ٤٤) .

تأمل يا صاحب كيف إذا أراد الله أن يبرز إلى الفعل أغراضه لا يمنع من ذلك مانع ، والدليل على ذلك حال هذا الرجل الفاضل الذى باعه اخوته واعتقل فى السجن مدة من الزمان ، وبعد هذا كله اعتلى كرسى الملك .

وتأمل يا صاحب كيف صار ذلك المعتقل بغتة ملكا على مصر ، أشاهدت مقدار الصبر على النوائب بشكر ، لهذا الحال قال بولس الرسول « وليس ذلك فقط بل نفتخر أيضا فى الضيقات عالمين أن الضيق ينشىء صبراً والصبر تزكية والتزكية رجاء والرجاء لا يخزى لأن محبة الله قد انسكبت فى قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا »(رو ٥ : ٣ ـ ٥) .

وانظر حال هذا المرء الزكى ليصح لك الدليل ، أنه احتمل الأحزان بحسن صبر ، وتولد له من الصبر أن صار مجرباً مهذباً .

« ودعا فرعون اسم يوسف صفنات فعنيح[٢٣١] واعطاه اسنات[٢٣٢] بنت فوطى فارع[٢٣٣] كاهن أون[٢٣٤] زوجة فخرج يوسف على أرض مصر » (ع ٤٥) .

---

(٢٣٠) ثياب بوص : نسيج رفيع من الكتان .

(٢٣١) صفنات فعنيح : مخلص العالم ، طعام الحياة ، قوت الأحياء .

(٢٣٢) اسنات : اسم مصرى لفظه فى اللغة المصرية القديمة«نس ـ نيت» وهى نسبة إلى الإلهة« نيت » .

(٢٣٣) فوطى فارع : اسم مصرى معناه « عطية رع إله الشمس » وهو كاهن أون « هيلوبوليس » مدينة الشمس .

(٢٣٤) أون : اسم عبرى معناه « قوة » ، وكانت أون مركز عبادة رع إله الشمس ، وموقع أون بالقرب من ضاحية المطرية الحالية على مسافة عشرة أميال شمالى القاهرة .

قول الكتاب « ودعا فرعون اسم يوسف صفنات فعنيح » ، رغبة للتنبيه دائما على ما فيه من الحكمة بهذه التسمية ، ورغبة فى إدامة الذكر ليوسف ، إذ إن فرعون لما وضح له ما جهله الكل اخترع ليوسف اسما فوصفه به ، وضاعف إحسانه لديه وأزوجه بابنة فوطى فارع كاهن أون .

« وكان يوسف ابن ثلاثين سنة لما وقف قدام فرعون ملك مصر فخرج يوسف من لدن فرعون واجتاز فى كل أرض مصر » (ع ٤٦) .

قول الكتاب « وكان يوسف ابن ثلاثين سنة لما وقف قدام فرعون ملك مصر » ، لا تظن أيها الخليل أن ذكره لعدد السنين عبثاً ، بل رغبة فى أن نفهم أنه لا عذر البتة لأحد إذا مرض فى باب الفضيلة ، إذ إن الشاب يجب أن يكون فاضلاً ، وألا يتوانى فى الفضيلة لصغر سنه ، والبرهان على ذلك هذا المرء ، فإنه لم يكن يافعا فقط ، بل وصبيحا وسيما ، إذ كان من واجب الشباب الجمال وهذا الشاب مع صباه وأنيق منظره وحسن صورته وجريان ماء الشباب فى جبينه وطلوع زهر الحداثة فى محياه ، استعبد وسجن ، لأن الكتاب يقول « يوسف إذ كان ابن سبع عشرة سنة كان يرعى مع إخوته الغنم وهو غلام عند بنى بلهة وبنى زلفة امرأتى أبيه وأتى يوسف بنميمتهم الرديئة إلى أبيهم » (تك ٣٧ : ٢) ، وبينما هو فى هذا السن من الشباب إندارت عليه تلك الفاجرة المصرية التى كانت سيدته ، فلم تقدر على الفتك به ، والظفر ببسالته ، وسجن وقاسى الشقاء مدة من الزمان ، صابراً على ذلك كأنه حجر الماس ، وليس انه ما ضعف فقط ، بل واجتاز من القوة أجسمها ، ومن النجدة أعظمها لأن التفضل الإلهى كان شاملاً له ، فلما تقدم بهذه المآثر العظيمة ، وأبرز إلى هذه الافعال الكريمة المرضية ، استدعى من السجن إلى الرئاسة على كل مصر .

« واثمرت الأرض فى سبع سنى الشبع بحزم . فجمع كل طعام السبع سنين التى كانت فى أرض مصر وجعل طعاما فى المدن طعام حقل المدينة التى حواليها جعله فيها . وخزن يوسف قمحا كرمل البحر كثيرا جدا حتى ترك العدد اذ لم يكن له عدد » (ع ٤٧ ـ ٤٩) .

لما أوكل فرعون إلى يوسف النظر فى جميع مصر ، جمع الغلال وخزنها فى البلدان، فأعد خزيناً كافياً يفى بما سيحدث من العوز .

أرأيت ايها الخليل تلك الجوائز التى صارت إلى يوسف عن صبره ، وغير ذلك من فضائله ، وكيف ارتقى إلى المُلك من السجن ؟ .

« وَوُلد ليوسف ابنان قبل أن تأتى سنة الجوع . ولدتهما له اسنات بنت فوطى فَارع كاهن أون . ودعا يوسف اسم البكر منسى[٢٣٥] قائلاً لأن الله انسانى كل تعبى وكل بيت أبى » (ع ٥٠ ، ٥١) .

تأمل يا صاحب محبة هذا الرجل لله ، وكيف انه سمى ابنه تسمية تذكره بكل ما جرى له ، حرصا على إدامة الشكر ، ورغبة لأن يعلم أيضا ابنه ما عاناه من أضاف الجهاد والصبر الذى صبره .

وإن قال قائل : ما معنى قول يوسف « انسانى كل تعبى وكل بيت أبى » ؟ أجيبه : على ما أظن أنه يشير بقوله « تعبى » إلى عبوديته وشقوته فى السجن ، وبقوله « وكل بيت أبى » يشير إلى مفارقته لأبيه وفقده لحضنه على صغر سن ، وكيف عاش العبودية بعد الحرية وجميل التربية ووافر الإهتمام والدلال .

« ودعا اسم الثانى أفرايم[٢٣٦] قائلاً لان الله جعلنى مثمراً فى أرض مذلتى » (ع ٥٢) .

أى أن يوسف لم ينس تلك الكوارث وحسب ، بل وقد كبر شأنه فى الأرض التى كان فيها ذليلاً إلى أبعد غاية ، واقترنت حياته بالموت .

« ثم كملت سبع سنى الشبع الذى كان فى أرض مصر . وابتدأت سبع سنى الجوع تأتى كما قال يوسف فكان جوع فى جميع البلدان واما جميع أرض مصر فكان فيها خبز . ولما جاعت جميع أرض مصر وصرخ الشعب إلى فرعون لأجل الخبز قال فرعون لكل المصريين اذهبوا إلى يوسف والذى يقول لكم افعلوا . وكان الجوع على كل وجه الأرض وفتح يوسف جميع ما فيه طعام وباع للمصريين واشتد الجوع فى أرض مصر . وجاءت كل الأرض إلى مصر إلى يوسف لتشترى قمحا لأن الجوع كان شديداً فى كل الأرض » (ع ٥٣ ـ ٥٧) .

---

(٢٣٥) منسى : اسم عبرى معناه « مَنْ ينسى » .
(٢٣٦) أفرايم : كلمة عبرية معناها « الأثمار المضاعفة » .

تأمــل يـا صاحــب جميل معاملة فرعون ليوسف ، وذلك أنه قال لكل المصريين « اذهبـوا إلى يوسف والذى يقـول لكم افـعلوا » ، فكأنه يقـول لهـم : لأى حـال قـد صـرخـتم نحوى ، أمـا تنظرون إننى أنا إن مـا لى من الملك الزى والشكـل فـقط ، وأمـا يوسف فقد صار السبب فى معونتنا كلنا فلا تتركوه إذاً وتبادروا إلىّ ، بل اشخصوا إليه وكل ما يذكره لكم أطيعوه .





الأصحاح الثاني والأربعون

« فلما رأى يعقوب أنه يوجد قمح فى مصر قال يعقوب لبنيه لماذا تنظرون بعضكم إلى بعض . وقال إنى قد سمعت أنه يوجد قمح فى مصر انزلوا إلى هناك واشتروا لنا من هناك لنحيا ولا نموت » (ع ١ ، ٢) .

أى لأى سبب أنتم جالسون هنا ، امضوا إلى مصر ، واحضروا لنا قوتاً .

وقد استتب كل هذا ليعاين اخوة يوسف كل ذلك وينظروا تفسير الحلم الذى فسّروه له عند ذكره إياه لهم بارزاً إلى الفعل .

« فنزل عشرة من اخوة يوسف ليشتروا قمحاً من مصر . وأما بنيامين اخو يوسف فلم يرسله يعقوب مع اخوته لأنه قال لعله تصيبه أذية » (ع ٣ ، ٤) .

نزل الأخوة العشرة ولم يأخذوا معهم بنيامين الذى كان أخا يوسف من أمه ، لأن أباه حذر عليه لصغر سنه ولدونة غصنه ، فلم يمكنّه من المسير معهم .

« فأتى بنو اسرائيل ليشتروا بين الذين أتوا لأن الجوع كان فى أرض كنعان . وكان يوسف هو المسلط على الأرض وهو البائع لكل شعب الأرض فأتى اخوة يوسف وسجدوا له بوجوههم إلى الأرض . ولما نظر يوسف اخوته عرفهم فتنكر لهم وتكلم معهم بجفاء وقال لهم من اين جئتم فقالوا من أرض كنعان لنشترى طعاماً . وعرف يوسف اخوته واما هم فلم يعرفوه » (ع ٥ ــ ٨) .

ولما قدموا سجدوا ليوسف بوجوههم إلى الأرض سجود رئيس على مصر ، وعلى كل حال أنهم فعلوا كل هذا الآن فعل من قد جهل الأمر ، فلم يعرفوا صورة أخيهم نظراً لطول الزمان المنقضى ، وبالواجب تغيرت ، سيما وجهه لما تثقل فى السن ، وعلى ما أظن أن سائر هذا كان من سياسة إله الكل ، وهو ألا يقدروا على معرفته ، لا من المفاوضة ولا من النظر ، لأنه من أين كان يخطر هذا لهم ببال وهم يظنون أنه قد صار عبداً للإسماعيليين ، فلما لم يكن أن يجيلوا ذلك فى خواطرهم ، ولا يخطروه ببالهم لم يعرفوه ، فأما هو لما رآهم عرفهم ، وحرص على كتمان ذلك عنهم ، ورأى أن يفاوضهم مفاوضة الغرباء .

« فتذكر يوسف الاحلام التى حلم عنهم وقال لهم جواسيس أنتم لتروا عورة الأرض جئتم . فقالوا له لا يا سيدى بل عبيدك جاءوا ليشتروا طعاما . نحن جميعنا بنو رجل واحد نحن امناء ليس عبيدك جواسيس . فقال لهم كلا بل لتروا عورة الأرض جئتم . فقالوا عبيدك اثنا عشر أخا نحن بنو رجل واحد فى أرض كنعان وهوذا الصغير عند ابينا اليوم والواحد مفقود . فقال لهم يوسف ذلك ما كلمتكم به قائلاً جواسيس انتم . بهذا تُمتحنون وحيوة فرعون لا تخرجون من هنا إلا بمجيء اخيكم الصغير إلى هنا . ارسلوا منكم واحداً ليجيء باخيكم وانتم تُحبسون فيُمتحن كلامكم هل عندكم صدق وإلا فوحيوة فرعون انكم جواسيس . فجمعهم إلى حبس ثلاثة أيام » (ع ٩ - ١٧) .

تأمل أيها الخليل كيف يستكشف يوسف ما عند اخوته ، ويفحص ما يُضمرونه عليه ، ويوضح لهم محبة الأخ بما فاوضهم به .

« ثم قال لهم يوسف فى اليوم الثالث افعلوا هذا واحيوا أنا خائف الله . ان كنتم امناء فليحبس اخ واحد منكم فى بيت حبسكم وانطلقوا انتم وخذوا قمحاً لمجاعة بيوتكم . واحضروا اخاكم الصغير إلىّ فيتحقق كلامكم ولا تموتوا ففعلوا هكذا » (ع ١٨ - ٢٠) .

امعن النظر يا صاحب فى هذا الحرص البالغ ، وذلك أن يوسف لما أراد أن يعرف صدق ما يقولونه عن الأخ أمر باعتقال واحد منهم وسيّر الباقين .

« وقالوا بعضهم لبعض حقا إننا مذنبون إلى اخينا الذى رأينا ضيقة نفسه لما استرحمنا ولم نسمع لذلك جاءت علينا هذه الضيقة » (ع ٢١) .

انظر يا صاحب ، كيف قد صاروا هم خصما لنفوسهم من غير شاك ولا معتد ، والدليل على ذلك أن كل واحد منهم قال : « حقا إننا مذنبون إلى أخينا الذى رأينا ضيقة نفسه لما استرحمنا ولم نسمع » هذه الصورة صورة الخطيئة فإنها إذا ما تناهت وبرزت إلى الفعل حينئذ يظهر تفاقم قبحها ووافر شناعتها .

إن هؤلاء القوم لما رأوا البلاء منصباً عليهم لا محالة ، لجأوا للحين إلى الإعتراف قائلين « حقا إننا مذنبون إلى أخينا الذى رأينا ضيقة نفسه » أى أن هجوم هذه الأمور

علينا فى موضعه ، وبالواجب ننال العقوبة على الخطأ الذى ارتكبناه مع أخينا لأننا ما سمعنا منه حين ضرع إلينا ، أى صرنا جفاة قساة ، فلذلك أصابنا ما أصابه .

« فأجابهم رأوبين قائلاً ألم اكلمكم قائلاً لا تأثموا بالولد وانتم لم تسمعوا فهوذا دمه يُطلب » (ع ٢٢) .

انظر مقدار التأنيب الذى حلّ بهم من الضمير الذى لا يفارقهم البتة ، هاتفاً ولنفاقهم مذكراً .

« وهم لم يعلموا أن يوسف فاهم لأن الترجمان كان بينهم . فتحول عنهم وبكى ثم رجع إليهم وكلمهم وأخذ منهم شمعون وقيده أمام عيونهم » (ع ٢٣ ، ٢٤) .

قول الكتاب « لم يعلموا أن يوسف فاهم لأن الترجمان كان بينهم » ، إلا أن يوسف لم يطق الصبر على ذلك لأن الطبيعة الأخوية والحنو لم يمكّناه من احتمال ذلك فتوارى عنهم وبكى ، خوفاً من أن تظهر لهم القضية ، ثم عاد إليهم وكلمهم ، وأخذ شمعون واعتقله بحضرتهم .

لاحظ يا صاحب حرص يوسف فى إضافتهم رغبة فى أن يوضحوا حالهم إذا ما رأوا شمعون مقيداً .

« ثم امر يوسف ان تملأ أوعيتهم قمحاً وترد فضة كل واحد إلى عدله[٢٣٧] وان يعطوا زاداً للطريق ففعل لهم هكذا . فحملوا قمحهم على حَميرهم ومضوا من هناك » (ع ٢٥ ، ٢٦) .

انظر هذه الكرامة التى اصطنعها يوسف إلى اخوته والإحسان الذى بذله معهم عن غير ارادتهم ، فإنه لم يعطهم غلته فقط بل والثمن أيضاً .

« فلما فتح احدهم عدله ليعطى عليقا لحماره فى المنزل رأى فضته وإذا هى فى فم عدله . فقال لاخوته رُدت فضتى وها هى فى عدلى فطارت قلوبهم وارتعدوا بعضهم فى بعض قائلين ما هذا الذى صنع الله بنا » (ع ٢٧ ، ٢٨) .

---

(٢٣٧) عِدل : جولق : شِوال عند العامة ، وهو من شعر أو صوف .

إن الخوف قد شملهم أيضا خوفا من أن يكون ما جرى زيادة فى بليتهم ، فكلما نخسهم الضمير نسبوا ذلك إلى الفعل القبيح الذى فعلوه مع يوسف .

« فجاءوا إلى يعقوب أبيهم إلى أرض كنعان وأخبروه بكل ما اصابهم قائلين . تكلم معنا الرجل سيد الأرض بجفاء وحسبنا جواسيس الأرض . فقلنا له نحن امناء لسنا جواسيس . نحن اثنا عشر اخا بنو ابينا الواحد مفقود والصغير اليوم عند ابينا فى أرض كنعان . فقال لنا الرجل سيد الأرض بهذا اعرف انكم امناء دعوا أخاً واحداً منكم عندى وخذوا لمجاعة بيوتكم وانطلقوا . واحضروا اخاكم الصغير إلىّ فاعرف انكم لستم جواسيس بل انكم امناء فاعطيكم اخاكم وتتجرون فى الأرض . وإذ كانوا يفرّغون عدالهم إذا صُرة فضة كل واحد فى عدله فلما رأوا صُرر فضتهم هم وابوهمَ خافوا » (ع ٢٩ ـ ٣٥) .

قَدِموا على أبيهم وأطلعوه على كل ما جرى إطلاعا شافياً وشرحوا له ما حلّ بهم من رئيس مصر ، وأنه اعتقلهم اعتقال جواسيس .

« فقال لهم يعقوب اعدمتمونى الأولاد يوسف مفقود وشمعون مفقود وبنيامين تأخذونه صار كل هذا علىّ » (ع ٣٦) .

أى ما كفانى العويل على يوسف حتى أضفتم إليه شمعون ، ثم ولا إلى هذا الحد قد امسكتْ عنى الاهوال بل ، وأنكم متأهبون على أخذ بنيامين ، أكل هذا علىّ ؟! .

وبهذا الكلام أقام يعقوب البرهان على تقطع أحشائه ، والتهاب جوانحه ، فكما أن يوسف انستر عنه فظن وحشاً افترسه ، هكذا قد جرى أمره فى شمعون ، وهذا مما يزيده حذراً وإشفاقاً على بنيامين .

« وكلم رأوبين أباهُ قائلاً أقتُل ابنى إن لم اجىء به إليك سلمه بيدى وأنا اردهُ إليك » (ع ٣٧) .

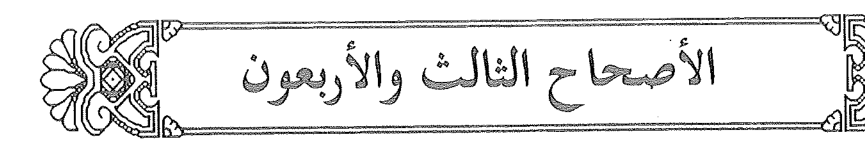
قال رأوبين هذا القول لعلمه أنه لا يمكنهم المضِى إلى مصر وأن يشتروا طعاما إن لم يأخذوا بنيامين معهم .

« فقال لا ينزل ابنى معكم لأن أخاه قد مات وهو وحده باق فإن أصابته اذية فى الطريق التى تذهبون فيها تنزلون شيبتى بحزن إلى الهاوية » (ع ٣٨) .

ولم يدفع يعقوب بنيامين إليهم ، بل قال لهم « لا ينزل ابنى معكم » ثم ذكر السبب على سبيل الاعتذار عنهم قائلاً « لأن أخاه قد مات وهو وحده باق فإن أصابته أذية فى الطريق التى تذهبون فيها تنزلون شيبتى بحزن إلى الهاوية » ، أى أننى أحذر على طفولة ابنى وأخاف أن أعدم التعزية به فافارق الحياة موجعاً مذبولاً ، فإنه ما دام معى فلى به بعض العزاء ، ووجوده عندى قد هدم شطراً وافراً من حزنى على أخيه يوسف وزال اكتئابى عليه .

ولفرط اشتياق يعقوب إلى بنيامين وغزير تلهفه عليه لم يتسامح بإرساله معهم .





الأصحاح الثالث والأربعون

« وكان الجوع شديداً فى الأرض . وحدث لما فرغوا من أكل القمح الذى جاءوا به من مصر أن أباهم قال لهم ارجعوا اشتروا لنا قليلاً من الطعام . فكلمه يهوذا قائلاً ان الرجل قد اشهد علينا قائلاً لا ترون وجهى بدون ان يكون اخوكم معكم . إن كنت ترسل أخانا معنا ننزل ونشترى لك طعاما . ولكن إن كنت لا ترسله لا ننزل لأن الرجل قال لنا لا ترون وجهى بدون ان يكون اخوكم معكم » (ع ١ ـ ٥) .

قول يهوذا لأبيه « إن كنت ترسل اخانا معنا ننزل ونشترى لك طعاما ، ولكن إن كنت لا ترسله لا ننزل » ، وكأنه يقول : لا تظننا نتمكن من النزول إلى هناك خلوا من أخينا ، فان كنت تريد أن يكون نزولنا باطلاً ونهلك كلنا فنحن نمضى ، واعلم أن الرجل قد أشهد علينا باننا لا نرى وجهه دون أن يصحبنا أخونا الأصغر .

« فقال إسرائيل لماذا أسأتم إلىّ حتى اخبرتم الرجل ان لكم اخاً أيضا . فقالوا ان الرجل قد سأل عنا وعن عشيرتنا قائلاً هل ابوكم حىّ هل لكم اخ فأخبرناه بحسب هذا الكلام هل كنا نعلم انه يقول انزلوا باخيكم » (ع ٦ ، ٧) .

لقد ضاقت الأمور بيعقوب من كل جهة وقعدت به الأسباب واشتبهت عليه السبل والأبواب ولذلك خاطبهم نادباً بقوله « لماذا أسأتم إلىّ حتى أخذتم الرجل ان لكم اخاً أيضاً » ، أى لأى حال أوردتم علىّ العناء ؟ لماذا سببتم لىّ هذه الأحوال لو لم تطلعوه على هذا الأمر .

فقالوا له « إن الرجل قد سأل عنا وعن عشيرتنا قائلاً هل ابوكم حىّ هل لكم أخ فاخبرناه بحسب هذا الكلام » أى لا تظننا أننا أقررنا للرجل بأمورنا طوعاً واختياراً ، لأن الذى حملنا على ذلك تصوره إيانا بصورة الجواسيس وسؤاله إيانا أن نشرح له كل أحوالنا شرحاً شافياً .

« وقال يهوذا لإسرائيل ابيه ارسل الغلام معى لنقوم ونذهب ونحيا ولا نموت نحن وانت وأولادنا جميعا . انا اضمنه . من يدى تطلبه ان لم اجىء به اليك واوقفه قدامك اصير مذنبا إليك كل الأيام . لاننا لو لم نتوان لكنا قد رجعنا الآن مرتين » (ع ٨ ـ ١٠) .

وكأن يهوذا يقول لأبيه : إن حَذَرَك على الصبى يجلب على كافتنا الهلاك ، لأن الجوع يأتى علينا إذ لم ترد أن تطلعه وترسله وإيانا .

« فقال لهم إسرائيل ابوهم ان كان هكذا فافعلوا هذا خذوا من افخر جنى الأرض فى أوعيتكم وانزلوا للرجل هدية قليلاً من البلسان وقليلاً من العسل وكثيراء ولاذنا وفستقا ولوزا . وخذوا فضة اخرى فى اياديكم والفضة المردودة فى افواه عدالكم ردوها فى اياديكم لعله كان سهوا . وخذوا اخاكم وقوموا ارجعوا إلىَ الرجل . والله القدير يعطيكم رحمة امام الرجل حتى يطلق لكم اخاكم الآخر وبنيامين وانا إذا عدمت الأولاد عدمتهم » (ع ١١ ـ ١٤) .

انظر ههنا أيها الخليل ، كيف غلبت قسوة المجاعة حنو الأب ، فإنه لما رأى أولاده غير واجدين فرجاً ، والمجاعة تتزايد ، أمرهم أن ينزلوا للرجل ويأخذوا معهم هدية ويأخذوا أخاهم بنيامين .

« فاخذ الرجال هذه الهدية . واخذوا ضعف الفضة فى اياديهم وبنيامين وقاموا ونزلوا إلى مصر ووقفوا أمام يوسف . فلما رأى يوسف بنيامين معهم قال للذى على بيته أدخل الرجال إلى البيت واذبح ذبيحة وهيئ لأن الرجال يأكلون معى عند الظهر . ففعل الرجل كما قال يوسف وادخل الرجل الرجال إلى بيت يوسف . فخاف الرجال إذ ادخلوا إلى بيت يوسف وقالوا لسبب الفضة التى رجعت اولا فى عدالنا نحن قدَ ادخلنا ليهجم علينا ويقع بنا ويأخذنا عبيداً وحميرنا . فتقدموا إلى الرجل الذى على بيت يوسف وكلموه فى باب البيت . وقالوا استمع يا سيدى انا قد نزلنا اولا لنشترى طعاما . وكان لما اتينا إلى المنزل اننا فتحنا عدالنا واذا فضة كل واحد فى فم عدله فضتنا بوزنها فقد رددناها فى ايادينا . وانزلنا فضة اخرى فى ايادينا لنشترى طعاماً لا نعلم من وضع فضتنا فى عدالنا » (ع ١٥ ـ ٢٢) .

اهتم يوسف بهم ، وأظهر جميل نيته فيهم ، أما هم فارتاعوا وخشوا أن يباشروا القضية من أجل الفضة .

« فقال سلام لكم لا تخافوا الهكم واله ابيكم اعطاكم كنزاً فى عدالكم فضتكم وصلت إلىّ ثم اخرج إليهم شمعون . وادخل الرجل الرجال إلى بيت يوسف واعطاهم ماء ليغسلوا ارجلهم وأعطى عليقا

لحميرهم . وهيأوا الهدية إلى ان يجيء يوسف عند الظهر لأنهم سمعوا انهم هناك يأكلون طعاما » (ع ٢٣ ـ ٢٥) .

تأمل يا صاحب كيف سُهِّلتْ لهم جميعِ الأمور .

« فلما جاء يوسف إلى البيت أحضروا إليه الهدية التى فى ايديهم إلى البيت وسجدوا له إلى الأرض . فسأل عن سلامتهم وقال أسالم ابوكم الشيخ الذى قلتم عنه أحيّ هو بعد . فقالوا عبدك ابونا سالم هو حيّ بعد وخروّا وسجدوا . فرفع عينه ونظر بنيامين أخاه ابن امه وقال أهذا اخوكم الصغير الذى قلتم لى عنه ثم قال الله ينعم عليك يا ابنى » (ع ٢٦ ـ ٢٩) .

تأمل يا صاحب ما يبرزه يوسف من الصبر ، فهو يتجاهل عليهم حرصا على فحص ما عندهم وأن يعرف كيف حالهم مع بنيامين .

« واستعجل يوسف لأن احشاءه حنت إلى اخيه وطلب مكانا ليبكى فدخل المخدع وبكى هناك » (ع ٣٠) .

ولما كانت الطبيعة قد ملكته وأحشاؤه تتلوى حال النحيب ، فدخل ليسكب من العبرات ما غزر ، وأبدى من المدامع ما كثر ، ورحض محياه وخرج ، وعاود إلى ما كان فيه من الاحتفال بهم .

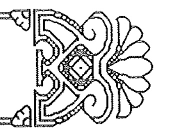
« ثم غسل وجهه وخرج وتجلّد وقال قدموا طعاما . فقدموا له وحده ولهم وحدهم وللمصريين الآكلين عنده وحدهم لأن المصريين لا يقدرون ان يأكلوا طعاما مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين . فجلسوا قدامه البكر بحسب بكوريته والصغير بحسب صغره فبُهِتَ الرجال بعضهم إلى بعض » (ع ٣١ ـ ٣٣) .

رسم يوسف أن يُقدمَ لهم خبزاً ، فقدموا له وحده كملك ورئيس على كل مصر ، ولهؤلاء القوم على انفراد ، وللمصريين الذين يأكلون معه على حدة ، لأن المصريين ما كانوا يريدون الأكل مع اليهود ، لأنهم كانوا عندهم مرذولين .

« ورفع حصصا من قدامه إليهم فكانت حصّة بنيامين اكبر من حِصَصِ جميعهم خمسة اضعاف وشربوا ورووا معه » (ع ٣٤) .

أعطى يوسف لكل واحد نصيباً وخص بنيامين بخمسة أنصبه ، وهم ما حسوا ولا مع حدوث هذا بشيء ، لكنهم ظنوا أن ما فعله يوسف مع بنيامين من أنه وفرّ نصيبه ، إنما هو على الإطلاق لا سبب آخر أوجبه إلا حداثة سنه ولدونة غصنه .





الأصحاح الرابع والأربعون

« ثم أمر الذى على بيته قائلاً املأ عدال الرجال طعاما . حسب ما يطيقون حمله وضع فضة كل واحد فى فم عدلهَ . وطاسى طاس[٢٣٨] الفضة تضع فى عدل الصغير وثمن قمحه ففعل بحسب كلام يوسف الذى تكلم به . فلما اضاء الصبح انصرف الرجال هم وحميرهم . ولما كانوا قد خرجوا من المدينة ولم يبتعدوا قال يوسف للذى على بيته قُم اسع وراء الرجال ومتى ادركتهم فقل لهم لماذا جازيتم شرا عوضاً عن خير . أليس هذا هو الذى يشرب سيدى فيه وهو يتفاءل به أسأتم فى ما صنعتم . فادركهم وقال لهم هذا الكلام . فقالوا له لماذا يتكلم سيدى مثل هذا الكلام حاشا لعبيدك ان يفعلوا مثل هذا الأمر . هوذا الفضة التى وجدنا فى افواه عدالنا رددناها إليك من أرض كنعان فكيف نسرق من بيت سيدك فضة أو ذهباً . الذى يوجد معه من عبيدك يموت ونحن أيضا نكون عبيداً لسيدى . فقال نعم الآن بحسب كلامكم هكذا يكون الذى يوجد معه يكون لى عبداً واما انتم فتكونون ابرياء . فاستعجلوا وانزلوا كل واحد عدله إلى الأرض وفتحوا كل واحد عدله . ففتش مبتدئا من الكبير حتى انتهى إلى الصغير فوجد الطاس فى عدل بنيامين . فمزقوا ثيابهم وحمّل كل واحد على حماره ورجعوا إلى المدينة . فدخل يهوذا واخوته إلى بيت يوسف وهو بعد هناك ووقعوا أمامه على الأرض . فقال لهم يوسف ما هذا الفعل الذى فعلتم ألم تعلموا ان رجلاً مثلى يتفاءل . فقال يهوذا ماذا نقول لسيدى ماذا نتكلم وبماذا نتبرر الله قد وجد اثم عبيدك ها نحن عبيد لسيدى نحن والذى وُجد الطاس فى يده جميعا . فقال حاشا لى ان افعل هذا الرجل الذى وجد الطاس فى يده هو يكون لى عبداً واما انتم فاصعدوا بسلام إلى ابيكم » (ع ١ ـ ١٧) .

تأمل يا صاحب كيف عرضت لهم ما كان يخشاه أبوهم ، فاضطربوا وانزعجوا ولم يدروا ما يصنعون .

« ثم تقدم إليه يهوذا وقال استمع يا سيدى ليتكلم عبدك كلمة فى اذنى سيدى ولا يحم غضبك على عبدك لأنك مثل فرعون » (ع ١٨) .

---

(٢٣٨) طاسى طاس : إناء يشرب فيه .

تأمل كيف يخاطب يهوذا يوسف خطاب العبد للسيد .

« سيدى سأل عبيده قائلاً هل لكم أب أو أخ . فقلنا لسيدى لنا أب شيخ وابن شيخوخة صغير مات أخوه وبقى هو وحده لأمه وابوه يحبه » (ع ١٩ ، ٢٠) .

امعن النظر هنا أيها الحليم في يوسف وكيف كانت حاله حين سمع هذا الكلام من يهوذا « وبقى هو وحده لأمه وأبوه يحبه » ؟! .

ولأى حال كذب يهوذا هنا بقوله « مات أخوه » وهم باعوه للتجار ؟! أظن أن يهوذا أطلق هذا الإطلاق كما كانوا قد ذكروا لأبيه أن وحشاً افترسه وعلى وجه آخر ، أنه قال هذا القول ظناً منه أنه قد مات .

« فقلت لعبيدك انزلوا به إلىّ فاجعل نظرى عليه . فقلنا لسيدى لا يقدر الغلام ان يترك اباه وإن ترك أباه يموت . فقلت لعبيدك ان لم ينزل اخوكم الصغير معكم لا تعودوا تنظرون وجهى . فكان لما صعدنا إلى عبدك ابى اننا اخبرناه بكلام سيدى . ثم قال ابونا ارجعوا اشتروا لنا قليلاً من الطعام . فقلنا لا نقدر ان ننزل وانما إذا كان اخونا الصغير معنا ننزل لأننا لا نقدر أن ننظر وجه الرجل واخونا الصغير ليس معنا . فقال لنا عبدك ابى انتم تعلمون ان امرأتى ولدت لى اثنين . فخرج الواحد من عندى وقلت انما هو قد اُفترس افتراسا ولم انظره إلى الآن . فإذا اخذتم هذا أيضا من امام وجهى واصابته أذية تنزلون شيبتى بشر إلى الهاوية . فالآن متى جئت إلى عبدك ابى والغلام ليس معنا ونفسه مرتبطة بنفسه . يكون متى رأى ان الغلام مفقود انه يموت فُينزل عبيدك شيبة عبدك ابينا بحزن إلى الهاوية . لان عبدك ضَمن الغلام لأبى قائلاً إن لم اجىء به إليك أصر مذنبا إلى ابى كل الأيام . فالآن لَيمكث عبدك عوضا عن الغلام عبداً لسيَدى ويصعد الغلام مع اخوته . لأنى كيف اصعد إلى ابى والغلام ليس معى لئلا انظر الشر الذى يصيب أبى » (ع ٢١ ـ ٣٤) .

لقد ملك هذا الكلام مفاصل يوسف وأقام عنده البرهان على إكرامهم لأبيهم وحنوهم على الصبى بنيامين .

✣ ✣ ✣



الأصحاح الخامس والأربعون

« فلم يستطع يوسف أن يضبط نفسه لدى جميعِ الواقفين عنده فصرخ أخرجُوا كل إنسان عنى فلم يقف احد عنده حين عرّف يوسف اخوته بنفسه . فاطَلق صوته بالبكاء فسمع المصريون وسمع بيت فرعون » (ع ١ ، ٢) .

لم يطق يوسف الصبر ، ولا احتمل مثول الحاضرين فصرفهم عن بكرة أبيهم ، وبقى هو وحده بينهم ، وعج عجيجا مفرطا، وترقرقت مدامعه ، وانسكبت عبراته ، وتوافرت زفراته ، فعرفه أخوته ، ووقف على هذه القضية كل أهل الدولة وسائر اصحاب المملكة وكل مَنْ بقصر فرعون .

« وقال يوسف لاخوته انا يوسف . أحيّ أبى بعد فلم يستطع اخوته أن يجيبوا لأنهم ارتاعوا منه » (ع ٣) .

ولما عرّف يوسف أخوته بنفسه لم يقدروا على إجابته ، لأنهم اضطربوا كثيراً ، وبالواجب ، لأنهم تأملوا ما فعلوه هم وما صنعه هو بهم ، ونظروا إلى صيته وجلالة قدره وعلو حظوه .

« فقال يوسف لاخوته تقدموا إليّ تقدموا فقال أنا يوسف اخوكم الذى بعتموه إلى مصر » (ع ٤) .

وذلك لتقوية عزيمتهم وتطيّب نفوسهم وإيراد الطمأنينة عليهم ، وإزالة الخوف منهم.

« فالآن لا تتأسفوا ولا تغتاظوا لانكم بعتمونى إلى هنا لأنه لاستبقاء حيوة ارسلنى الله قدامكم . لأن للجوع فى الأرض الآن سنتين وخمس سنين أيضا لا تكون فيها فلاحة ولا حصاد . فقد ارسلنى الله قدامكم ليجعل لكم بقية فى الأرض وليستبقى لكم نجاة عظيمة » (ع ٥ ـ ٧) .

تأمل يا صاحب كيف أن يوسف يطيّب نفوسهم ويسكّن جأشهم .

« فالآن ليس انتم ارسلتمونى إلى هنا بل الله وهو قد جعلنى ابا لفرعون وسيداً لكل بيته ومتسلطا على كل أرض مصر » (ع ٨) .

وكأن يوسف يقول : ما أنسب لكم علة نزولى إلى مصر ، بل إلى الله ، فإنه فعل هذا لترتقيِ منزلتى إلى هذا المكان الرفيع ، إذ إنه أرسلنى وجعلنى أبا لفرعون وسيداً على جميع من فى قصره ورئيسا على سائر مصر ، أى أن تلك العبودية سببت لى هذه الرئاسة، وذلك البيع رقانى إلى هذه الجلالة ، وذلك الحزن أنتج هذا السرور ، وذاك الحسد ولدّ لىّ هذا الشرف .

« أسرعوا واصعدوا إلى ابى وقولوا له هكذا يقول ابنك يوسف قد جعلنى الله سيدا لكل مصر انزل إلىّ لا تقف . فتسكن فى أرض جاسان[٢٣٩] وتكون قريبا منى انت وبنوك وبنو بنيك وغنمك وبقرك وكل ما لك . وأعولُك هناك لأنه يكون أيضا خمس سنين جوعا لئلا تفتقر انت وبنيك وكل ما لك . وهوذا عيونكم ترى وعينا أخى بنيامين ان فمى هو الذى يكلمكم . وتخبرون أبى بكل مجدى فى مصر وبكل ما رأيتم وتستعجلون وتنزلون بابى إلى هنا . ثم وقع على عنق بنيامين أخيه وبكى وبكى بنيامين على عنقه . وقبَّل جميع اخوته وبكى عليهم وبعد ذلك تكلم اخوته معه » (ع ٩ ـ ١٥) .

فالحرى أيها الخلان إذ لا نسمع هذه الأمور فقط ، بل وأن نفعل مثلها ، ونلاطف هكذا المسيئين إلينا ، ونقيم لهم المعاذير ، ونعفيهم من الملامة ونتغاضى لهم ، ونبرئ ساحتهم مما فعلوه بنا ، ونحتمل جميع ما يصيبنا بأحسن يقين وأجمل نية ، كهذا العجيب يوسف .

« وسُمِعَ الخبر فى بيت فرعون وقيل جاء اخوة يوسف فحسُن فى عينى فرعون وفى عيون عبيده . فقال فرعون ليوسف قل لاخوتك افعلوا هذا احملوا دوابكم وانطلقوا اذهبوا إلى أرض كنعان . وخذوا أباكم وبيوتكم وتعالوا إلىّ فاعطيكم خيرات أرض مصر وتأكلوا دسم الأرض . فانت قد امِرت افعلوا هذا خذوا لكم من أرض مصر عجلات لأولادكم ونسائكم واحمَلوا أباكم وتعالوا . ولا تحزن عيونكم على اثاثكم لان خيرات جميع أرض مصر لكم » (ع ١٦ ـ ٢٠) .

تأمل كيف أن الملك أيضاً مهتم بمجىء يعقوب .

---

(٢٣٩) جاسان : منطقة خصيبة فى مصر كثيرة المرعى للقطعان والماشية ، واقعة شرق الدلتا ، وهى المعروفة الآن بالشرقية .

« ففعل بنو إسرائيل هكذا واعطاهم يوسف عجلات بحسب أمر فرعون واعطاهم زاداً للطريق . واعطى كل واحد منهم حُلل ثياب وأما بنيامين فأعطاه ثلاث مئة من الفضة وخمس حُلل ثياب. وارسل لابيه هكذا عشرة حمير حاملة من خيرات مصر وعشر أُتُنٍ حاملة حنطة وخبزا وطعاما لأبيه لأجل الطريق . ثم صرف اخوته فانطلقوا وقال لهم لا تتغاضبوا فى الطريق » (ع ٢١ ـ ٢٤) .

انظر هذه الشخصية المتفلسفة ، فإنه ما سمح لهم بكل ما أجرموه وعفا لهم عن سائر ما أخطأوه فقط بل ووعظهم قائلاً « لا تتغاضبوا فى الطريق » .

« فصعدوا من مصر وجاءوا إلى أرض كنعان إلى يعقوب ابيهم . واخبروه قائلين يوسف حيّ بعد وهو متسلط على كل أرض مصر فجمد قلبه لأنه لم يصدقهم » (ع ٢٥ ، ٢٦) .

ارتاب يعقوب فيما قالوه فى باب يوسف ونسبه إلى الخديعة ، وبالواجب تقسم فكره وذهل عقله إذ كان الآتون إليه بهذا الخبر من أن « يوسف حى بعد وهو متسلط على كل أرض مصر » ، هم الذين أتوه بقميصه مغموسا فى دم التيس ، وحققوا فى نفسه أن وحشاً افترسه ، فإن الصديق فكّر فى نفسه وقال كيف يجوز هذا فى المعقول ، إن كان الخبر الأول صدقا فهذا لا محالة كذباً ، وان كان هذا حقا فذاك خدعة ، لذلك انزعج فكره مما سمعه منهم من قبل ، ومما عرفه منهم الآن .

« ثم كلموه بكل كلام يوسف الذى كلمهم به وابصر العجلات التى ارسلها يوسف لتحمله فعاشت روح يعقوب ابيهم » (ع ٢٧) .

لما رأوا أباهم مضطرباً ، وبما قالوه مرتاباً أرادوا تحقيق الأمر عنده ، ليبعثوه على تصديق ما يقولونه له فعرّفوه « بكل كلام يوسف الذى كلمهم به وأبصر العجلات التى ارسلها يوسف لتحمله » ، وبالكد والجهد قدروا على اقناعه بأن ما يذكرونه ليس كذباً ، فعندما « أبصر العجلات التى أرسلها يوسف لتحمله فعاشت روح يعقوب أبيهم » .

فإن سألتنى : ما معنى « فعاشت روح يعقوب » ؟! أجيبك : كما أن المصباح إذا ما فرغ من الزيت يشرف على الانطفاء ، ولكن إذا ما وضع فيه إنسان قليلاً من الزيت للحين يضىء ، هكذا جرى أمر يعقوب ، فكان كمصباح قد أخذ فى الانطفاء لفرط

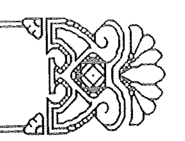
حزنه وكآبته ، فلما علم أن يوسف حيّ ، وأنه رئيس على مصر ، ورأى تلك العجلات ، عاشت روحه وتحوّل من عجز الشيخوخة إلى نضارة الشباب وأزال اضطرابه ووجد فى سكون .

« فقال إسرائيل كفى يوسف ابنى حى بعد أذهب وأراه قبل أن أموت » (ع ٢٨) .

وكأن يعقوب يقول إن كان ابنى يوسف حياً فما أعظم ما قد صار إلىّ وجاء علىّ ، إننى أمضى لأعاينه قبل موتى ، فأسير الآن لأشاهده واجتهد فى لقائه والاجتماع به ، قبل أن تحضر وفاتى ، إن ما قد سمعته الآن قد نشلنى وقوّى عزمى وأذهب منى ضعف الشيخوخة ، فإن اتفق لى الاجتماع به والنظر إليه فيالها من سعادة ويا لها من بهجة قد تمتعت بهما قبل إنقضاء مدتى .

ولم يتباطأ الصديق فى المسير حرصاً على ملاحظة مشوقه ، واجتهاداً فى رؤيا مهجة قلبه وحبيبه ، رغبة فى أن يعاين ملكاً على مصر ، ذاك الذى كان يظن أن وحشاً قد افترسه منذ سنين عدة .





الأصحاح السادس والأربعون

« فارتحل إسرائيل وكل ما كان له واتى إلى بئر سبع وذبح ذبائح لإله ابيه إسحق» (ع ١) .

قول الكتاب « فارتحل إسرائيل وكل ما كان له وأتى إلى بئر سبع وذبح ذبائح » فاذا ما سمعنا أيها الخلان هذه الأمور فلنتأدب بها ونحذو حذوها ، فى أننا إذا شرعنا فى فعل شىء من الأشياء ، أو الابتداء بأمر ما ، أو الشروع فى سفر ، فلنقدم لله أولاً ذبيحة الشكر ، ونطلب مؤازرته ومضافرته ، وبعد ذلك نفعل فى ما نحن بسبيله تشبها بمحبة هؤلاء الأبرار والرجال الأخيار لله والاقتداء بهم .

وقوله « وذبح ذبائح لإله ابيه إسحق » ، لما نظر يعقوب إلى بُعد المسافة وامعن النظر فى شيخوخته خشى ألا يعدم نسيم الحياة قبل رؤية ابنه يوسف ، فضرع إلى الله فى أن ينعم عليه بالحياة لتكمل مسرته وتتم بهجته وسعادته .

« فكلم الله إسرائيل فى رؤى الليل وقال يعقوب يعقوب فقال هانذا . فقال انا الله إله ابيك لا تخف من النزول إلى مصر لأنى اجعلك أمة عظيمة هناك . انا انزل معك إلى مصر وأنا أصعدك أيضا ويضع يوسف يده على عينيك » (ع ٢ ـ ٤) .

عندما جَبُنَ يعقوب من طول الطريق قال له الله « لا تخف من النزول إلى مصر » ، ولا تلتفت إلى ضعف الشيخوخة ، لأننى « أجعلك أمة عظيمة هناك » وأرافقك وأسهل عليك كل ما أنت فيه .

لاحظ تنازل هذا الخطاب وهو قول الله « أنا انزل معك إلى مصر » ، فمَنْ ذا الذى يكون أسعد من الذى يكون رفيقه فى السفر إله الكل تقدس اسمه .

ثم أردف الله تعزية عظيمة كان الصديق فى احتياج إليها وهى قوله « ويضع يوسف يده على عينيك » ، إذ إن يوسف الذى قد تضرمت شوقاً إليه هو الذى يلتقى بك ويضع يده على عينيك ، فافرح إذاً وليزل منك كل جبن .

« فقام يعقوب من بئر سبع وحمل بنو إسرائيل يعقوب اباهم وأولادهم ونساءهم فى العجلات التى ارسل فرعون لحمله . واخذوا مواشيهم ومقتناهم الذى اقتنوا فى أرض كنعان وجاءوا إلى مصر يعقوب وكل نسله معه . بنوه

وبنو بنيه معه وبناته وبنات بنيه وكل نسله جاء بهم معه إلى مصر . وهذه اسماء بني إسرائيل الذين جاءوا إلى مصر يعقوب وبنوه بكر يعقوب رأوبين . وبنو رأوبين حنوك وفلو وحصرون وكرمى . وبنو شمعون يموئيل ويامين واوهد وياكين وصوحر وشاول ابن الكنعانية . وبنو لاوى جرشون وقهات ومرارى . وبنو يهوذا عير واونان وشيلة وفارص وزارح واما عير واونان فماتا فى أرض كنعان وكانَ ابنا فارص حصرون وحامول . وبنو يسّاكر تولاع وفوه ويوب وشمرون . وبنو زبولون سارد وايلون وياحليئيل . وهؤلاء بنو ليئة الذين ولدتهم ليعقوب فى فدان أرام مع دينة ابنته جميع نفوس بنيه وبناته ثلاث وثلاثون . وبنو جاد صفيون وحجى وشَونى واصبعون وعيرى وارودى وارئيلى . وبنو اشير يمنة ويشوة ويشوى وبريعة وسارح هى اختهم وابنا بريعة حابر وملكيئيل . هؤلاء بنو زلفة التى اعطاها لابان لليئة ابنته فولدت هؤلاء ليعقوب ست عشرة نفسا . ابناَ راحيل امرأة يعقوب يوسف وبنيامين . وولد ليوسف فى أرض مصر منسى وافرايم اللذان ولدتهما له اسنات بنت فوطى فارع كاهن أون . وبنو بنيامين بالع وباكر واشبيل ونعمان وايحى ورُوش ومفيم وأرد . هؤلاء بنو راحيل الذين ولدوا ليعقوب جميع النفوس اربع عشرة . وابن دان حوشيم . وبنو نفتالى ياحصئيل وجونى ويصر وشليم . هؤلاء بنو بلهة التى أعطاها لابان لراحيل ابنته فولدت هؤلاء ليعقوب جميع الانفس سبعَ . جميع النفوس ليعقوب التى اتت إلى مصر الخارجة من صلبه ماعدا نساء بنى يعقوب جميع النفوس ست وستون نفسا . وابنا يوسف اللذان وُلدا له فى مصر نفسان جميع نفوس بيت يعقوب التى جاءت إلى مصر سبعون » (ع ٥ ـ ٢٧) .

قام يعقوب وأولاده وأخذوا كل ما كان لهم وتوجهوا إلى مصر فى ستة وستين نفسا، وكان يوسف مع أولاده أربعة أنفس ، فتصير جملتهم إذاً سبعين إنساناً .

وإن سأل سائل فقال : لأية علة دلنا الكتاب الإلهى على هذا العدد ؟ أجيبه : إنما فعل ذلك رغبة فى أن تعلم بروز إنذار الله إلى الفعل القائل « لأنى اجعلك أمة عظيمة هناك » (ع ٣) ، والدليل على ذلك أن جنس إسرائيل نمى وتزايد من هؤلاء السبعين إلى أن أصبح « ست مئة الف وثلاثة آلاف وخمس مئة وخمسين » (عدد ١ : ٤٦) .

أيها الخليل إذ ذكر الكتاب الإلهى لنا عدد الذين نزلوا إلى مصر لم يكن عبثا ولا باطلاً ، بل رغبة لأن نعرف هذا الخلق الوافر والشعب المتكاثر من كم قد صار ونشأ ،

فلا يقلّ ايماننا بمواعيد الله ، فاذا ما أنت تصورت حق التصور وأجلت فكرك فى أن ملك المصريين بعد وفاة يعقوب ويوسف تحايل على تقليل كثرتهم بكلٍ ما وجد من السبل ، فلم يقدر على ذلك بل تزايد هذا الشعب وتكاثر .

فليعظم استعجابك من لطيف سياسة الله ، وتحقق أنه لا يمكن أن تقوّض أغراضه البتة ، ولو تحايل على إبطال ذلك الآلاف .

« فارسل يهوذا امامه إلى يوسف ليُرى الطريق امامه إلى جاسان ثم جاءوا إلى أرض جاسان . فشد يوسف مركبته وصعد لاستقبال إسرائيل ابيه إلى جاسان ولما ظهر له وقع على عنقه وبكى على عنقه زماناً » (ع ٢٨ ، ٢٩) .

قول الكتاب عن يوسف « ولما ظهر له وقع على عنقه وبكى على عنقه » ، لأن الفرح قد يسكب العبرات .

ولم يقل « بكى » فقط ، بل اضاف إلى ذلك « زمانا » لأن يوسف لما أخطر بباله ما قاساه هو وما لقيه أبوه من أجله وتطاول الزمان المعترض بين لقائهما وأن نظره إلى أبيه عن غير أمل ، وكذلك إلحاظ ابيه له من غير رجاء أظهر أمرين : ماء عيون تتدفق ، وضياء سرور يتألق !! .

« فقال إسرائيل ليوسف اموت الآن بعدما رأيت وجهك انك حيّ بعد » (ع ٣٠) .

وكأن يعقوب يقول ليوسف : إذ قد عاينتك يا قُرة عينى ومُهجة قلبى حيا بعد ، فلا أبالى إن مُتَ الآن ، لأننى قد نلت المنى ، وبلغت الغرض وأدركت ما لم أتوقعه قط ، واتجه لى ما لم يتحرك به خاطر ولا تخيله أمل ، أقتنع فى ما بعد بالحياة ، لأنى قد رأيت مَنْ كنت شديد الشوق إليه ، وأن رؤيتى له حياً لتفى عندى بكل بهجة وحبور ، ذاك الذى كنت أظنه قد فارق لذيذ الحياة منذ مدة طويلة وأن وحشاً قد افترسه .

هذا القول قول أبوى مفعم من خالص الوداد وجميل الاعتقاد ، دال على نية النفس وموضح لها .

« ثم قال يوسف لاخوته ولبيت أبيه أصعد واخبر فرعون واقول له اخوتى وبيت ابى الذين فى أرض كنعان جاءوا إلىّ . والرجال رعاة غنم فانهم كانوا

أهل مواشٍ وقد جاءوا بغنمهم وبقرهم وكل ما لهم . فيكون إذا دعاكم فرعون وقال ما صناعتكم . أن تقولوا عبيدك أهل مواشٍ منذ صبانا إلى الآن نحن وآباؤنا جميعا لكي تسكنوا في أرض جاسان لأن كل راعي غنم رجس للمصريين » (ع ٣١ ـ ٣٤) .

تأمل هذه المشورة التي يوردها يوسف على إخوته ، فإنه لم يقل لهم هذا القول عبثا ، بل رغبة لأن يكونوا في هدوء وسكون جأش ، وبمعزل عن الاختلاط بالمصريين ، لأن المصريين كانوا يزدرون بمَنْ يمارس رعي الغنم ، فلهذه العلة أشار عليهم أن يتصدروا بذكر صناعتهم أنهم « أهل مواشٍ » لكي يميز فرعون برسمهم أرضاً جديدة بحجة واضحة تسبب لهم راحة كثيرة وافرة وفسحة مجزية متكاثرة .





الأصحاح السابع والأربعون

« فأتى يوسف واخبر فرعون وقال ابى واخوتى وغنمهم وبقرهم وكل ما لهم جاءوا من أرض كنعان وهوذا هم فى أرض جاسان . واخذ من جملة أخوته خمسة رجال واوقفهم أمام فرعون . فقال فرعون لأخوته ما صناعتكم فقالوا لفرعون عبيدك رعاة غنم نحن وآباؤنا جميعا . وقالوا لفرعون جئنا لنتغرب فى الأرض إذ ليس لغنم عبيدك مرعى لأن الجوع شديد فى أرض كنعان فالآن ليسكن عبيدك فى أرض جاسان . فكلم فرعون يوسف قائلاً ابوك واخوتك جاءوا إليك . أرض مصر قدامك فى أفضل الأرض أسكن اباك واخوتك ليسكنوا فى أرض جاسان وإن علمْت انه يوجد بينهم ذوو قدرة فاجعلهم رؤساء مواشٍ على التى لى » (ع ١ ـ ٦) .

قول فرعون ليوسف عن إخوته « وان علمت أنه يوجد فيهم ذوو قدرة فاجعلهم رؤساء مواشِ على التى لى » دليل على جميل نيته فيه .

« ثم ادخل يوسف يعقوب اباه واوقفه امام فرعون وبارك يعقوب فرعون . فقال فرعون ليعقوب كم هى أيام سنى حياتك . فقال يعقوب لفرعون أيام سنى غربتى مئة وثلاثون سنة قليلة ورديئة كانت أيام سنى حياتى ولم تبلغ إلى أيام سنى حيوة آبائى فى أيام غربتهم . وبارك يعقوب فرعون وخرج من لدن فرعون » (ع ٧ ـ ١٠) .

قول يعقوب لفرعون « أيام سنى غربتى مئة وثلاثون سنة قليلة ورديئة » ، تأمل كيف أن كل واحد من الأبرار تصرف فى هذا العالم تصرف الضيوف ، واسمع ماذا يقول داود النبى بعد هذا ليصح لك الدليل « غريب أنا فى الأرض لا تخف عنى وصاياك » (مز١١٩ : ١٩) ، فلهذا الحال قال بولس الرسول « فى الإيمان مات هؤلاء اجمعون وهم لم ينالوا المواعيد بل من بعيد نظروها وصدقوها وحيوها وأقروا بأنهم غرباء ونزلاء على الأرض » (عب ١١ : ١٣) .

وقوله « أيام سنى غربتى مئة وثلاثون سنة قليلة ورديئة » فهو يشير إلى سنى العبودية التى عاناها عند لابان حماه ، عندما هرب من أخيه عيسو ، وإلى الحزن الذى شمله فى هذا الزمان الطويل .

كم تظن يا صاحب مقدار الخوف الذى حلّ بيعقوب عندما قتل شمعون ولاوى كل أهل مدينة شكيم من أجل اختهما دينة ونهبهما كل ما فى المدينة ، فمن البيِّن

الظاهر أن يعقوب كثير الخوف والبرهان على ذلك قوله لابنيه « كدرتماني بتكريهكما إياى عند سكان الأرض الكنعانيين والفرزيين وأنا نفر قليل فيجتمعون عليّ ويضربونني فأبيد أنا وبيتي » (تك ٣٤ : ٣٠) .

« فاسكن يوسف اباه واخوته واعطاهم ملكا فى أرض مصر فى افضل الأرض فى أرض رعمسيس[٢٤٠] كما امر فرعون . وعال يوسف اباه واخوته وكل بيت أبيه على حسب الأولاد » (ع ١١ ، ١٢) .

قول الكتاب «وعال يوسف أباه واخوته وكل بيت أبيه بطعام على حسب الأولاد» ، وهذا ما قاله يوسف لإخوته من قبل « فقد ارسلنى الله قدامكم ليجعل لكم بقية فى الأرض وليستبقى لكم نجاة عظيمة » (تك ٤٥ : ٧) .

وقوله « بطعام على حسب الأولاد » أى ما يقيم بكل واحد منهم .

« ولم يكن خبز فى كل الأرض لأن الجوع كان شديداً جداً فخورت أرض مصر وأرض كنعان من أجل الجوع » (ع ١٣) .

لاحظ اهتمام الله الذى لا يوصف وكيف أنه أنزل الصديق إلى مصر قبل امتداد الغلاء وانتشاره .

« فجمع يوسف كل الفضة الموجودة فى أرض مصر وفى أرض كنعان والقمح الذى اشتروا وجاء يوسف بالفضة إلى بيت فرعون . فلما فرغت الفضة من أرض مصر ومن أرض كنعان أتى جميع المصريين إلى يوسف قائلين اعطنا خبزاً فلماذا نموت قدامك لان ليس فضة أيضاً . فقال يوسف هاتوا مواشيكم فاعطيكم بمواشيكم إن لم يكن فضة أيضاً . فجاءوا بمواشيهم إلى يوسف فاعطاهم يوسف خبزا بالخيل وبمواشى الغنم والبقر وبالحمير فقاتهم بالخبز تلك السنة بدل جميع مواشيهم . ولما تمت تلك السنة اتوا إليه فى السنة الثانية وقالوا له لا نخفى عن سيدى أنه إذ قد فرغت الفضة ومواشى البهائم عند سيدى لم يبق قدام سيدى إلا اجسادنا وأرضنا . لماذا نموت أمام عينيك نحن

---

(٢٤٠) رعمسيس : اسم مصرى قديم معناه « ابن إله الشمس » ، وهى مدينة فى مصر فى أخصب منطقة فى البلاد ، بناها رمسيس الثانى وسماها باسمه ، موقعها الآن مدينة صا الحجر أو صان الحجر .

وأرضنا جميعا اشترنا وأرضنا بالخبز فنصير نحن وأرضنا عبيداً لفرعون واعط بذاراً لنحيا ولا نموت ولا تصير أرضنا قفراً » (ع ١٤ ـ ١٩) .

إلى هذا المقدار بلغت شدة الغلاء !! .

« فاشترى يوسف كل أرض مصر إذ باع المصريون كل واحد حقله لأن الجوع اشتد عليهم فصارت الأرض لفرعون . واما الشعب فنقلهم إلى المدن من أقصى حد مصر إلى أقصاه . إلا أن أرض الكهنة لم يشترها إذ كانت للكهنة فريضة من قِبل فرعون فأكلوا فريضتهم التى اعطاهم فرعون لذلك لم يبيعوا أرضهم . فقال يوسف للشعب انى قد اشتريتكم اليوم وأرضكم لفرعون هوذا لكم بذار فتزرعون الأرض . ويكون عند الغلة انكم تعطون خُمساً لفرعون والأربعة الأجزاء تكون لكم بذاراً للحقل وطعاما لكم ولمن فى بيوتكم وطعاما لأولادكم . فقالوا احييتنا ليتنا نجد نعمة فى عينى سيدى فنكون عبيداً لفرعون . فجعلها يوسف فرضا على أرض مصر إلى هذا اليوم لفرعون الخُمس إلا إن أرض الكهنة وحدهم لم تَصر لفرعون » (ع ٢٠ ـ ٢٦) .

تأمل مقدار بهاء يوسف وحكمته ، وذلك أنه لم يمكّن المصريين من الإحساس بالغلاء ، واقتنى لفرعون كل الأرض مع استملاكه له كل المصريين .

وأسألك أن تمعن النظر فى حُسن مراعاته لهم والدليل على ذلك أنه قال لهم « انى قد اشتريتكم اليوم وأرضكم لفرعون هوذا لكم بذار فتزرعون الأرض ، ويكون عند الغلة أنكم تُعطون خُمساً لفرعون والأربعة الأجزاء تكون لكم بذاراً للحقل وطعاماً لكم ولـمَنْ فى بيوتكم وطعاما لأولادكم » ، ما اغزر هذه الأفضال ، ما أوفر هذا الاهتمام وآهاً لهذه المراعاة التى لا توصف ، لهذا السبب قال الشعب حين أحسوا بالإحسان الصائر إليهم والإنعام الوافد عليهم « احييتنا ليتنا نجد نعمة فى عينى سيدى فنكون عبيداً لفرعون » .

« وسكن إسرائيل فى أرض مصر فى أرض جاسان وتملكوا فيها واثمروا وكثروا جداً . وعاش يعقوب فى أرض مصر سبع عشرة سنة فكانت أيام يعقوب سنو حياته مئة وسبعاً وأربعين سنة . ولما قربت أيام إسرائيل ان يموت دعا ابنه يوسف وقال له ان كنت قد وجدت نعمة فى عينيك فضع يدك تحت فخذى

واصنع معى معروفا وامانة لا تدفننى فى مصر . بل أضطجع مع آبائى فتحملنى من مصر وتدفننى فى مقبرتهم فقال أنا أفعل بحسب قولك » (ع ٢٧ ـ ٣٠) .

قول يعقوب ليوسف « لا تدفننى فى مصر بل أضطجع مع آبائى » ، اسمع وصفه للموت بأنه رقاد ، إذ إن الآباء تصوروا ما سيكون بعينى الإيمان فقال يعقوب هنا «أضطجع مع آبائى » ، ولذلك قال بولس الرسول « فى الإيمان مات هؤلاء أجمعون وهم لم ينالوا المواعيد بل من بعيد نظروها وصدقوها وحيوها وأقروا بانهم غرباء ونزلاء على الأرض » (عب ١١ : ١٣) ، فإن سألت : وكيف ؟ أجيبك : أنهم تصوروا ما سيكون بعينى الإيمان ، فلا ينسب ناسب إذاً هذا الأمر الذى صدر عن الصديق إلى صغر نفس وضعف يقين ، بل ليعفه من كل لائمة .

« **فقال احلف لى فحلف له فسجد إسرائيل على رأس السرير** » (ع ٣١).

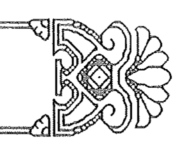
انظر هذا الشيخ ، هذا الشارف ، أب الآباء ، كيف أقام الدليل على إكرامه ليوسف بالسجود ، وتمم بهذا الفعل تفسير الحُلم ، والدليل على ذلك أن يوسف عندما قص على أبيه الحُلم قال له أبوه « ما هذا الحُلم الذى حلمت هل نأتى أنا وأمك وأخوتك ونسجد لك إلى الأرض « (تك ٣٧ : ١٠) .

وعسى أن قائلاً يقول : كيف تم تفسير كل الحُلم ، إذ إن الأم قد ماتت ، وأنها لم تسجد لابنها ؟! فأجيبه : من طبيعة الكتاب الإلهى أنه يبرهن على جملة الأمر من الأشرف ، فلما كان الرجل رأس المرأة كقول بولس الرسول « لأن الرجل هو رأس المرأة كما أن المسيح هو رأس الكنيسة » (أف ٥ : ٢٣) ، فإن الاثنان « يكونان جسداً واحداً» (تك ١ : ٢٤) ، ومن البيّن الظاهر أن الرأس إذا سجد تبعه الجسم ، والدليل على صحة ما نقول أن الأب إن كان فعل هذا الأمر ، فإن الأم لو لم تكن قد فارقت الحياة لكانت بادرت إلى هذا الشىء أحدّ مبادرة .

وقول الكتاب « فسجد إسرائيل على رأس السرير » ولهذا السبب قال بولس «بالإيمان يعقوب عند موته بارك كل واحد من ابنى يوسف وسجد على رأس عصاه » (عب ١١ : ٢١) .

أما ترى كيف فعل يعقوب هذا الأمر بالإيمان ؟ .

✣ ✣ ✣



الأصحاح الثامن والأربعون

« وحدث بعد هذه الأمور أنه قيل ليوسف هوذا أبوك مريض فأخذ معه ابنيه منسى وافرايم . فأخبر يعقوب وقيل له هوذا ابنك يوسف قادم إليك فتشدد إسرائيل وجلس على السرير » (ع ١ ، ٢) .

تأمل يا صاحب كيف أن يعقوب نشلته ونشطته محبته لابنه وجذبته على سليله ، وغلب الحرص الضعف إذ إنه لما سمع أن ابنه قادم « جلس على السرير » وبذل معه المودة الأبوية .

« وقال يعقوب ليوسف الله القادر على كل شيء ظهر لي في لوز في أرض كنعان وباركني . وقال لي ها أنا اجعلك مثمرا واكثرك واجعلك جمهورا من الأمم واعطي نسلك هذه الأرض من بعدك ملكا ابدياً . والآن ابناك المولودان لك في أرض مصر قبلما اتيت إليك إلى مصر هما لي افرايم ومنسى كرأوبين وشمعون يكونان لي. واما اولادك الذين تلد بعدهما فيكونون لك على اسم اخويهم يسمون في نصيبهم . وأنا حين جئت من فدّان ماتت عندي راحيل في أرض كنعان في الطريق إذ بقيت مسافة من الأرض حتى آتي إلى افراتة فدفنتها هناك في طريق افراتة التي هي بيت لحم » (ع ٣ ـ ٧) .

تأمل كيف ابتدأ يعقوب كلامه ، فأولاً شرح ما صار إليه من جميل نية الله فيه ، وبعد ذلك أخذ في تبريك الولدين .

« ورأى إسرائيل ابني يوسف فقال مَنْ هذان . فقال يوسف لأبيه هما ابناي اللذان اعطاني الله ههنا فقال قدمهما إليّ لاباركهما . واما عينا إسرائيل فكانتا قد ثقلتا من الشيخوخة لا يقدر أن يبصر فقربهما إليه فقبّلهما واحتضنهما . وقال إسرائيل ليوسف لم اكن اظن اني أرى وجهك وهوذا الله قد اراني نسلك أيضا . ثم اخرجهما يوسف من بين ركبتيه وسجد أمام وجهه إلى الأرض » (ع ٨ ـ ١٢) .

تأمل كيف يجتهد الشيخ في تبريك ابنيّ يوسف .

« وأخذ يوسف الاثنين افرايم بيمينه عن يسار إسرائيل ومنسى عن يمين إسرائيل وقربهما إليه . فمد إسرائيل يمينه ووضعها على رأس افرايم وهو الصغير

ويساره على رأس منسى وضع يديه بفطنة[٢٤١] فإن منسى كان البكر » (ع ١٣ ، ١٤) .

تأمل الصديق هنا كيف أن عينيه الجسدانيتين قد ألمّ بهما الضعف من الشيخوخة والكبر ، حتى إنه لم يقدر على النظر ، وأما عينا عقله فكانتا صحيحتين ، ومن العيب عاريتين ، فنظر بهما ما سيكون ، فلم يوافق يوسف على رأيه وقدم افرايم على منسى وباركه .

« وبارك يوسف وقال الله الذى سار أمامه أبواى إبراهيم وإسحق الله الذى رعانى منذ وجودى إلى هذا اليوم . الملاك الذى خلصنى من كل شر يبارك الغلامين وليدع عليهما اسمى واسم ابوى إبراهيم وإسحق وليكثرا كثيراً فى الأرض » (ع ١٥ ، ١٦) .

امعن النظر فى تواضع أب الآباء ، لاحظ هذه النفس المُحبة لله ، إذ لم يجسر أن يقول الله الذى سرت أمامه بل إنه قال « الله الذى سار أمامه أبواى » ، أشاهدت هذه النفس الوفية ؟ هذا وهو القائل منذ قليل « الله القادر على كل شىء ظهر لى فى لوز وفى أرض كنعان وباركنى » (ع ٣) ، وله من الدلائل على حسن رأى الله فيه ما ليس بخاف ، إلا أن عقله ما انحرف عن لزوم الوداعة والاتضاع بل تمسك بذلك قائلاً « الله الذى سار أمامه أبواى إبراهيم وإسحق » .

وتأمل فرط وفاء يعقوب وسديد رأيه ، وذلك أنه لم يذكر فضيلته ، بل ذكر ما أنعم الله عليه إذ يقول « الله الذى رعانى منذ وجودى إلى هذا اليوم الملاك الذى خلصنى من كل شر » ، إن هذا الكلام لنابع من عزيمة شكوره لله وادة ، وبه مشغوفة ، ولإحسانه متذكرة .

« فلما رأى يوسف ان اباه وضع يده اليمنى على رأس افرايم ساء ذلك فى عينيه فامسك بيد ابيه لينقلها عن رأس افرايم إلى رأس منسى . وقال يوسف لأبيه ليس هكذا يا أبى لأن هذا هو البكر ضع يمينك على رأسه . فأبى ابوه وقال علمت يا ابنى علمت هو أيضا يكون شعبا وهو أيضا يصير كبيرا ولكن اخاه الصغير يكون اكبر منه ونسله يكون جمهورا من الأمم » (ع ١٧ ـ ١٩) .

أشاهدت هذه الحكمة المزدوجة بالاتضاع ؟ فالحكمة فى تقديم يعقوب لافرايم

---

(٢٤١) الفِطنة : الفهم .

على منسى ناظراً بعينى الإيمان ما سيكون ، وأما الاتضاع فلأنه لم يذكر شيئاً من مآثره ، بل بارك الصبيين من إرضاء آبائه ومما صار إليه من جميل صنع الله .

أرأيتِ أيها الخليل كيف أطلعت نعمة الله يعقوب على هذا الأمر فبارك ابنىّ يوسف تبريك مَنْ قد انبثت فيه الروح النبوية ، فنظر ما سيكون كأنه حاضر تجاه عينيه ؟ هذه الصورة صورة النبوة فكما أن عينى الجسد لا يقدران أن ينظرا شيئاً غير المبصرات ، هكذا عينا الإيمان لا ينظران الملحوظات ، بل ما سيكون أخيراً بعده عدة من الأجيال .

« وباركهما فى ذلك اليوم قائلاً بك يبارك إسرائيل قائلاً يجعلك الله كافرايم وكمنسى فقدم أفرايم على منسى » (ع ٢٠) .

أى أن كلا من افرايم ومنسى يشرفان ويرتفعان حتى ان كافة الناس يضرعون إلى الله فى أن ينعم عليهم بسمو منزلتهما ومنتشر صيتهما ؛ إلا ان افرايم على أى حال يتصدر على منسى .

« وقال إسرائيل ليوسف ها انا اموت ولكن الله سيكون معكم ويردكم إلى أرض آبائكم » (ع ٢١) .

لما بارك يعقوب ابنىّ يوسف وقدّم الصغير على الكبير لتقدمه بمعرفة ما سيكون ، أراد إقناع يوسف بأن ما أتاه فى هذا المعنى ليس عبثاً ، بل على ما أوصته النبوة بما سيكون ، فأنذره بوفاته ، وبأنهم سيعودون من الغربة إلى كنعان أرض آبائهم ، وبشرهم بآمال صالحة ليخف عليهم الأمر بما يترجونه لأن الآمال الصالحة تذهب الشقاء فى هذه الأرض .

« وانا قد وهبت لك سهما واحداً فوق اخوتك اخذته من يد الأموريين بسيفى وقوسى » (ع ٢٢) .

فإن قال قائل ما معنى هذا ؟! أجيبه : إنه يشير إلى ما فعله شمعون ولاوى مع أهل شكيم (تك ٣٤ : ٢٥) .

وعندما أراد يعقوب أن يوضح جميل رأيه فى يوسف ، لم يقتنع بذلك فى تبريك افرايم ومنسى ، بل وأن يخصه بميراث شكيم .





الأصحاح التاسع والأربعون

« ودعا يعقوب بنيه وقال اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم فى آخر الأيام . اجتمعوا واسمعوا يا بنى يعقوب واصغوا إلى إسرائيل ابيكم » (ع ١ ، ٢) .

تأمل يا صاحب حكمة الصديق ، أنه لما شعر بأوان الوفاة استدعى أولاده إليه .

وقول يعقوب لأولاده « اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم فى آخر الأيام » أى هلموا وافهموا منى ما أقول واذكر من الحوادث التى ستكون ، ليس الآن ولا بعد مدة قصيرة من الزمان ، بل فى الأيام الأخيرة .

« رأوبين أنت بكرى قوتى وأول قدرتى فضل الرفعة وفضل العز . فائرا كالماء لا تتفضل لأنك صعدت على مضجع أبيك حينئذ دنسته على فراشى صعد » (ع ٣ ، ٤) .

امعن النظر يا صاحب فى الصديق ، وكيف إنه استعمل الترتيب عند اجتماع أولاده ، فأعطى كلا منهم حقه ، إما لعنة ، وإما بركة ، فأبان بذلك وافر فضيلته إذ ابتدأ من الأول قائلاً « رأوبين أنت بكرى قوتى وأول قدرتى » .

وانظر مقدار حكمة الصديق ، والدليل على ذلك أنه عندما أراد الزيادة فى سب رأوبين ابتدأ بذكر ما له من التصدر الطبيعى من أنه أول أولاده والحاظى البكورية ، ثم بعد ذلك ذكر هفواته قائلاً « فائراً كالماء لا تتفضل لأنك صعدت على مضجع أبيك حينئذ دنسته على فراشى صعد » .

انظر كيف تقدم الصديق لما حصل فيه من الحكمة المفوضة إليه من الروح بالردع .

« شمعون ولاوى أخوان آلات ظلم سيوفهما . فى مجلسهما لا تدخل نفسى بمجمعهما لا تتحد كرامتى لأنهما فى غضبهما قتلا إنسانا وفى رضاهما عرقبا ثوراً » (ع ٥ ، ٦) .

قول يعقوب « شمعون ولاوى أخوان آلات ظلم سيوفهما » أى إنكارهما ما حل باختهما واستصعابهما ما حدث من شكيم بعثهما على هذا الظلم .

وعندما أراد يعقوب إقامة البرهان على أن ما فعله شمعون ولاوى كان خفية عنه قال « فى مجلسهما لا تدخل نفسى بمجمعهما لا تتحد كرامتى » أى كلا اكون شريكهما فى هذا الرأى أو مطابقا لهما على هذا الظلم لأنهما قتلا الناس لغضبهما ، أى أن غضبهما صار بهيمياً وعلى غير قياس .

« ملعون غضبهما فانه شديد وسخطهما فإنه قاس أقسّمهما فى يعقوب وافرقهما فى إسرائيل » (ع ٧) .

قول يعقوب « ملعون غضبهما فإنه شديد وسخطهما فإنه قاس » ، أى إن أهل شكيم لما أمِلوا فيهما جميل النية ، وتوقعوا من جهتهما حسن النية ، حينئذ قابلاهم شر مقابلة ، وبرزا لهم بروز محاربين .

وقوله « أقسّمهما فى يعقوب وأفرقهما فى إسرائيل » أى سيتفرقان فى كل مكان ليتضح هذا الأمر للكل غاية الإيضاح ، وسيواجهان هذا الأمر لأجل ما أقدما عليه .

« يهوذا إياك يحمد إخوتك يدك على قفا اعدائك يسجد لك بنو ابيك » (ع ٨) .

قول يعقوب « يهوذا إياك يحمد إخوتك » هذه البركة الصائرة إلى يهوذا بركة سرية منذرة إيانا بأحوال السيد المسيح الذى لما كان عازما على الظهور من هذا السبط كما اقتضاه التدبير نفث الروح القدس فى هذا الصديق ما نفثه فتنبأ بما قاله ليهوذا .

وقوله « يدك على قفا أعدائك يسجد لك بنو أبيك » إنه يوضح خضوع الذين هم عتيدون أن يخضعوه .

« يهوذا جرو أسد من فريسة صعدت يا ابنى جثا وربض كأسد وكلبوة مَنْ يُنهضه » (ع ٩) .

قول يعقوب « يهوذا جرو أسد من فريسة صعدت يا ابنى » ، يتنبأ يعقوب هنا على مُلك يهوذا ، لأن طبيعة الكتاب الإلهى أن يُشير إلى الرئاسة الملوكية بهذا النوع من الحيوان أعنى الأسد .

وقوله « جثا وربض كأسد وكلبوة » يشير يعقوب ههنا إلى صلب المسيح ودفنه .

وقوله « مَنْ يُنهضه » أى كما أن الأسد إذا ما نام لا يجسر أحد على إيقاظه

هكذا المسيح قد رقد رقود الأسد فمَنْ ذا الذى ينهضه ، لأنه هو القائل « ليس أحد يأخذها منى بل أضعها أنا من ذاتى لى سلطان أن أضعها ولى سلطان أن آخذها أيضاً هذه الوصية قبلتها من أبى » (يو ١٠ : ١٨) .

« لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتى شيلون[٢٤٢] وله يكون خضوع شعوب » (ع ١٠) .

تأمل كيف يذكر يعقوب خلاص الأمم المستأنف .

« رابطاً بالكرمة جحشه وبالجفنة[٢٤٣] ابن اتانه غسل بالخمر لباسه وبدم العنب ثوبه » (ع ١١) .

قول يعقوب عن يهوذا « رابطاً بالكرمة جحشه وبالجفنة ابن أتانه » إنه يتنبأ عن ورود الأمم ، لأنه كما أن الحمار حيوان نجس ، فان تلك القبائل النجسة تنقاد بغاية السهولة انقياد الحيوان إذا ما رُبط ، ورمز بهذا إلى عِظم سلطان يهوذا وتفاقم طاعة الأمم .

وقوله « غسل بالخمر لباسه » ، إذ يشير بقوله « لباسة » إلى جسد المسيح .

وقوله « وبدم العنب ثوبه » ، انظر كيف رمز لنا يعقوب إلى الذبح والصلب وجميع التدبير السرى .

« مسودّ العينين من الخمر ومبيضّ الأسنان من اللبن » (ع ١٢) .

قول يعقوب عن يهوذا « مسودّ العينين من الخمر » مبرهنا لنا على بهاء المسيح وساطع ضيائه بذكره للعينين والخمر .

ويشير بقوله « ومبيضّ الأسنان من اللبن » إلى عدل الحاكم ، فان الأسنان واللبن لا تدلنا على شيء آخر إلا على مجلس القضاء ، هكذا يكون مضيئا مشرقا مشهوراً شبيها بكيفية الأسنان واللبن .

---

(٢٤٢) شيلون : اسم عبرى معناه « موضع الراحة » .
(٢٤٣) الجفنة : أصل الكرم وقضبانه .

« زبولون عند ساحل البحر يسكن وهو عند ساحل السفن وجانبه عند صيدون[٢٤٤] » (ع ١٣) .

انظر كيف يتنبأ يعقوب عن الموضع الذى يسكن فيه يهوذا ، وأنه ينبسط أمره إلى صيدون .

« يساكر حمار جسيم رابض بين الحظائر . فرأى المحل انه حسن والأرض انها نزهة فأحنى كتفه للحمل وصار للجزية عبداً » (ع ١٤ . ١٥) .

ها يعقوب يوبخ يساكر لشروعه فى عمل الأرض وتفضيله التعب فيما يختص بها على كل شيء .

« دان يدين شعبه كأحد اسباط إسرائيل . يكون دان حيّة على الطريق افعوانا على السبيل يلسع عقبى الفرس فيسقط راكبه إلى الوراء . لخلاصك انتظرت يارب . جاد يزحمه جيش ولكنه يزحم مؤخره . اشير خبزه سمين وهو يعطى لذّات ملوك . نفتالى أيلة[٢٤٥] مسبيّة يعطى أقوالاً حسنة » (ع ١٦ـ٢١).

لقد وجب الاستعجاب والذهول من هذا الصديق إذ كيف تقدمت رؤيته لكل ما سيكون بعينى الروح فأطلع أولاده على ذلك ، وأنذر كل واحد بما سيكون والدليل على ذلك التنبيه على ما سيحدث بعد مدة مديدة من الزمان .

« يوسف غصن شجرة مثمرة غصن شجرة مثمرة على عين أغصان قد ارتفعت فوق حائط » (ع ٢٢) .

أى لقد صرت محسوداً منذ بداية الأمر وبوادره .

« فمرّرته ورمته واضطهدتهُ ارباب السهام . ولكن تثبتت بمتانة قوسه وتشدّدت سواعد يديه من يدى عزيز يعقوب من هناك من الراعى صخر إسرائيل » (ع ٢٣ ، ٢٤) .

---

(٢٤٤) صيدون : اسم سامى معناه « مكان صيد السمك » وهى مدينة فينيقية قديمة ، ممتدة بين جبال لبنان والبحر المتوسط على بعد ٢٢ ميلاً شمالى صور.

(٢٤٥) أيلة : حيوان يأكل العشب وهو شديد السرعة ، كثير الظمأ اثناء جريه ، وهو من الحيوانات الطاهرة حسب الشريعة (تث ١٢ : ١٥ ، ١٤ : ٥) .

لقد شرع أخوة يوسف فى إهلاك أخيهم وأبرزوا إلى الفعل ما هو من وبيل الرأى وقبيح النية ، إلا أن سهامهم تقصفت وأعصابهم انحلت .

« من إله ابيك الذى يعينك ومن القادر على كل شىء الذى يباركك تأتى بركات السماء من فوق وبركات الغمر الرابض تحت بركات الثديين والرحم » (ع ٢٥) .

قول يعقوب ليوسف « من إله أبيك الذى يعينك » تأمل صريح مودة الصديق لله ، وكيف جعله إلهه وحده على الرغم من أنه سيد المسكونة ، وأظن أن يعقوب لم يفعل هذا تقليلا لسيادة الله وإخراج التسلط على المسكونة عن يده وقدرته ، بل اختصاصاً بالشوق إليه .

وقوله « ومن القادر على كل شىء الذى يباركك تأتى بركات السماء من فوق وبركات الغمر الرابض تحت بركات الثديين والرحم » أى أن الله لم يضافرك فحسب ، بل ويباركك تبريكاً بالغاً .

« بركات ابيك فاقت على بركات ابوىّ إلى مُنية الآكام الدهرية تكون على رأس يوسف وعلى قمة نذير أخوته » (ع ٢٦) .

قول يعقوب « بركات أبيك فاقت على بركات أبوى إلى مُنية الآكام الدهرية » مشيراً إلى الجلالة ونباهة القدر وارتفاع الصيت ، ومملكة مصر وسمو المكان ومتانة القوة وعظيم المقدرة .

وقوله « تكون على رأس يوسف وعلى قمة نذير إخوته » أى أن هذه البركات ستصير على رأس يوسف .

« بنيامين ذئب يفترس فى الصباح يأكل غنيمة وعند المساء يقسّم نهباً » (ع ٢٧) .

ها يعقوب ينذر بنيامين ما يعرض له بعد مدة طويلة من الزمان ، وأنه سيكون كالذئب يثب على الأشياء ويختلسها قاتلاً ، ولربوات الشرور فاعلاً .

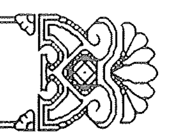
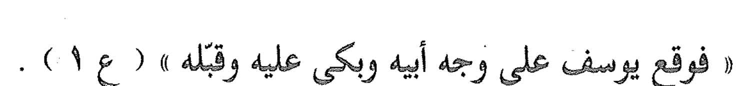
« جميع هؤلاء هم اسباط إسرائيل الاثنا عشر وهذا ما كلمهم به ابوهم وباركهم كل واحد بحسب بركته باركهم » (ع ٢٨) .

أى أن يعقوب أنذر كل واحد بما هو لائق به وتنبأ على ما يحدث لكل سبط .

« وأوصاهم وقال لهم أنا أنضم إلى قومى ادفنونى عند آبائى فى المغارة التى فى حقل عفرون الحثى . فى المغارة التى فى المكفيلة التى أمام ممرا فى أرض كنعان التى اشتراها إبراهيم مع الحقل من عفرون الحثى مُلك قبر . هناك دفنوا إبراهيم وسارة امرأته هناك دفنوا إسحق ورفقة امرأته وهناك دفنت ليئة . شراء الحقل والمغارة التى فيه كان من بنى حث . ولما فرغ يعقوب من توصية بنيه ضم رجليه إلى السرير واسلم الروح وانضم إلى قومه » (ع ٢٩ ـ ٣٣) .

تأمل يا صاحب وفاة هذا المرء الفاضل والزكى الكامل وكيف هى مفعمة من جزيل العجب ، والدليل على ذلك أنه بعد أن أوصى أولاده بما وجب ، مات وانضم إلى قومه .



الأصحاح الخمسون

« فوقع يوسف على وجه أبيه وبكى عليه وقبّله » (ع ١) .

أشاهدت أيها الخليل صريح مودة هذا الفتى ؟ ألاحظت هذه العاطفة المتوقدة ؟ وكيف أنه انكب على وجه أبيه وقبّله وندبه بعد مفارقته الحياة .

« وأمر يوسف عبيده الأطباء ان يحنطوا أباه فحنط الأطباء إسرائيل . وكمُل له أربعون يوما لأنه هكذا تكْمُل أيام المحنطين وبكى عليه المصريون سبعين يوماً » (ع ٢، ٣) .

شرع يوسف فى إتمام ما تقدم به أبوه وأوصاه مجتهداً لا متقاعداً ، وذلك أنه تقدم بتحنيطه ، وتمت هذه الأحوال حسب ما اقتضته السُنة .

« وبعدما مضت أيام بكائه كلم يوسف بيت فرعون قائلاً إن كنت قد وجدت نعمة فى عيونكم فتكلموا فى مسامع فرعون قائلين . ابى استحلفنى قائلاً ها أنا أموت فى قبرى الذى حفرت لنفسى فى أرض كنعان هناك تدفننى فالآن اصعد لأدفن أبى وأرجع. فقال فرعون اصعد وادفن أباك كما استحلفك » (ع ٤ ـ ٦) .

وكأن يوسف يقول لفرعون : ينبغى لى أن أعمل بمقتضى أوامر أبى .

« فصعد يوسف ليدفن أباه وصعد معه جميع عبيد فرعون شيوخ بيته وجميع شيوخ أرض مصر . وكل بيت يوسف واخوته وبيت ابيه غير أنهم تركوا أولادهم وغنمهم وبقرهم فى أرض جاسان . وصعد معه مركبات وفرسان فكان الجيش كثيراً جداً » (ع ٧ ـ ٩) .

تأمل مقدار حرص المصريين فى هذا الأمر إكراماً ليوسف .

« فأتوا إلى بيدر أطاد[٢٤٦] الذى فى عبر الأردن وناحوا هناك نوحا عظيما وشديداً جدا وصنع لأبيه مناحة سبعة أيام . فلما رأى أهل البلاد الكنعانيون المناحة فى بيدر أطاد قالوا هذه مناحة ثقيلة للمصريين لذلك دعى

---

(٢٤٦) أطاد : اسم كنعانى معناه « شوك » وهو اسم بيدر يقع شرقى الأردن .

اسمه آبل مصرايم[٢٤٧] الذى فى عبر الأردن . وفعل له بنوه هكذا كما اوصاهم. حمله بنوه إلى أرض كنعان ودفنوه فى مغارة حقل المكفيلة التى اشتراها إبراهيم مع الحقل ملك قبر من عِفرون الحثى أمام ممرا » (ع ١٠ - ١٣) .

إنك يا صاحب إذا ما سمعت هذه الأمور فلا تعبرها على الإطلاق ، بل إذا ما امعنت النظر فى الوقت الذى كان فيه هذا الأمر اخرجت يوسف من كل لائمة ، لأن أبواب الموت لم تكن تدكدكت ولا معاقل المنون تمزقت وتحللت ، ولا سُمى الموت رقاداً ، فلهذه العلة فعل بنو يعقوب والمصريون ما فعلوا ، وهو رهبة من الموت ، أما الآن فبتفضل الله قد صار الموت رقاداً ، وقد وضحت البراهين على القيامة غاية الوضوح وقامت الدلالة على أننا ننتقل من حياة إلى حياة ، فينبغى لنا إذاً أن نفرح ونحتبر ، وعندما أقول إننا نتحول من حياة إلى حياة سننتقل من الأدنى إلى الأعلى ، ومن الزمنية إلى الأبدية ، ومن الأرضية إلى السمائية .

« ثم رجع يوسف إلى مصر هو وأخوته وجميع الذين صعدوا معه لدفن ابيه بعدما دفن أباه . ولما رأى أخوة يوسف ان اباهم قد مات قالوا لعل يوسف يضطهدنا ويرد علينا جميع الشر الذى صنعنا به » (ع ١٤ ، ١٥) .

تأمل كيف عاد أخوة يوسف إلى ملامة نفوسهم وتأنيب ذواتهم بحسب ما كان الضمير يوخذهم وينيرهم .

« فاوصوا إلى يوسف قائلين ابوك اوصى قبل موته قائلاً . هكذا تقولون ليوسف آه اصفح عن ذنب اخوتك وخطيتهم فانهم صنعوا بك شراً فالآن اصفح عن ذنب عبيد إله ابيك فبكى يوسف حين كلموه . وأتى اخوته أيضا ووقعوا امامه وقالوا ها نحن عبيدك » (ع ١٦ - ١٨) .

أشاهدت أيها الخليل كيف أن اخوة يوسف يسبّون نفوسهم ويطعنون عليها دون أن يضطروا إلى ذلك ؟ .

وانظر هذا المرء العجيب الفاضل والسديد الكامل بهذا المقدار تنازل عما فعلوه به ، حتى أنه لما سمع كلامهم أسال من المدامع الغزير ، وأصدر من العبرات الجم الكثير .

وتأمل مقدار ضعف الرذيلة ، ولاحظ مقدار قوة الفضيلة ، وها دليل يصح ، وذلك

---

(٢٤٧) آبل مصرايم : آبل بمعنى نوح أو بكاء ، ومصرايم هو الاسم العبرانى لمصر .

أن الذى لحقته هذه المكاره ، ونصبت له الحفائر ملَكَ ، وأما الذين فعلوا ذلك به فدعوا أنفسهم عبيداً له .

« فقال لهم يوسف لا تخافوا لأنه هل أنا مكان الله . أنتم قصدتم لى شرا اما الله فقصد به خيراً لكى يفعل كما اليوم ليحيى شعبا كثيراً » (ع ١٩ ، ٢٠) .

تأمل يا صاحب خيرية يوسف ، وما بذله مع إخوته من الجميل ، وكيف أنه يجتهد فى تعزية نفوسهم ، وإزالة الخوف عنهم ، وإقناعهم بأنهم لم يسيئوا إليه البتة .

وكأن يوسف يقول لإخوته : لا تخافوا ولا تجزعوا فأنا أراقب عمل الله وأتقبل مقاصد سيدى ، وأحرص فى أن أحسن إلى مَنْ أساء إلىّ غاية الاساءة ، لأننى عبد الله تقدس اسمه .

ثم أوضح يوسف مقدار ما ناله من جميل نية الله فيه فقال « أنتم قصدتم لى شراً أما الله فقصد به خيراً » ، ولهذا السبب قال الطوباوى بولس « إن كل الأشياء تعمل معا للخير للذين يحبون الله الذين هم مدعوون حسب قصده » (رو ٨ : ٢٨) .

فان قال قائل : ما معنى قول بولس « كل الأشياء » أجيبه : أى أن الأشياء المضادة والكارثة تتحول إلى صلاح ، وهذا الأمر بعينه جرى مع هذا العجيب يوسف ، فإن ما فعله أخوته به سبب له المُلك ، وتحولت كل الأشياء الرديئة الذميمة إلى ما حمدت عاقبته وشكرت غايته بحسن تلطف الله الحكيم الخبير .

وقول يوسف لإخوته « ليحيى شعبا كثيراً » أى لم تنقلب الأمور إلى هذا الشأن المستقيم من أجلكم فقط ، بل لكى يحظى بالقوت هذا العدد الكثير .

« فالآن لا تخافوا أنا أعولكم واولادكم فعزاهم وطيّب قلوبهم » (ع ٢١) .

استدعى يوسف إخوته وتقرّب إليهم ولاطفهم حرصا على انتزاع الحزن من قلوبهم.

« وسكن يوسف فى مصر هو وبيت أبيه وعاش يوسف مئة وعشر سنين . ورأى يوسف لافرايم اولاد الجيل الثالث واولاد ماكير[٢٤٨] بن منسى أيضا وولدوا على ركبتى يوسف » (ع ٢٢ ، ٢٣) .

---

(٢٤٨) ماكير : اسم عبرى معناه « مبتاع » .

إن قال قائل : .لأى حال دلنا الكتاب الإلهى على عدد سنى يوسف أيضا ؟ أجيبه : فعل ذلك رغبة فى أن تعلم يا هذا عدد السنين التى رأسها على مصر ، إذ إنه نزل إلى مصر وهو ابن سبع عشرة سنة (تك ٣٧ : ٢) ، ووقف أمام فرعون وهو فى الثلاثين من عمره (تك ٤١ : ٤٦) ، إذاً فتكون سنى رئاسة يوسف على مصر ثمانين سنة .

وانظر يا صاحب ، إن الجوائز أضعاف التعب ، لأن يوسف ابتلي بالنوائب ولابس المحن والتجارب ثلاث عشرة سنة[٢٤٩] أعنى العبودية وتلك الغربة وضنك الحبس ، فلما صبر على كل هذا صبر الأبطال ، باذلاً من الشكر أكثره ، حظى بنفيس الهبات .

وامعن النظر أيها الخليل فيما أنا قائل ، ليصح لك البرهان ، وذلك أن يوسف احتمل العبودية والسجن زمنا قليلاً (ثلاث عشرة سنة) ، فأنعم عليه الله لأجل ذلك بتدبير المُلك ثمانين سنة .

« وقال يوسف لأخوته أنا أموت ولكن الله سيفتقدكم ويُصعدكم من هذه الأرض إلى الأرض التى حلف لإبراهيم وإسحق ويعقوب . واستحلف يوسف بنى إسرائيل قائلاً الله سيفتقدكم فتصعدون عظامى من هنا . ثم مات وهو ابن مئة وعشر سنين فحنطوه ووضعوه فى تابوت فى مصر » (ع ٢٤ _ ٢٦) .

قول يوسف لإخوته « الله سيفتقدكم ويصعدكم من هذه الأرض إلى الأرض التى حلف لإبراهيم وإسحق ويعقوب » ، انظر كيف يريد تقوية عزيمتهم ويطيب قلوبهم ، ويفسح آمالهم بأمور سعيدة وأحوال رشيدة تتحقق لهم عند العودة لبلادهم .

وقوله « الله سيفتقدكم فتصعدون عظامى من هنا » وتأمل يوسف أيضا مشابها لأبيه فى الوصية بحمل عظامه إلى أرض آبائه .

إن جميع ما رسمه يوسف من حمل عظامه وغير ذلك كان عن إيمان ، فاسمع ما يقوله بولس الرسول ليصح لك الدليل « بالإيمان يوسف عند موته ذكر خروج بنى إسرائيل وأوصى من جهة عظامه » (عب ١١ : ٢٢) .

---

(٢٤٩) نزل يوسف إلى مصر وهو فى السابعة عشرة ، ووقف أمام فرعون وهو فى الثلاثين من عمره ، فتكون المدة التى قضاها فى العبودية ثلاث عشرة سنة .

ولعلنا قد أسهبنا فى استيفاء جميع السفر ، إذ قد وصلنا إلى آخره ، وبعد ذلك ننتهى بمقالنا ونجرى رسمنا فى سؤالكم أن تتذكروا المقولات وتشابهوا هؤلاء الأبرار فى حُسن أخلاقهم الجميلة وحميد مذاهبهم ، وما بذلوه من الجميل مع المسيئين إليهم ، وما فعلوه من طول الأناة مع الظالمين عليهم فرفع الله أنفسهم وشرّفها .

وبما أن يوسف جرى هذا المجرى من الخلال السامية حَسُن مكانه عند الله وجملت نيته فيه .

فإن كنا أيها الخلان نريد الظفر بالمؤازرة الإلهية فالخليق بنا إذاً الحرص على الفضيلة لنستمد بفضل الروح ونجوز هذا العمر الحاضر بلا حزن ولا مشقة ، وننال تلك الخيرات العتيدة التى لنا كلنا وأن نتمتع بها بنعمة ربنا يسوع المسيح .



المراجــع

١ ـ الكتاب المقدس .

٢ ـ مخطوطات بدير البرموس : أرقام ١ ـ ٤ تفسير الكتاب المقدس .

٣ ـ مخطوطـات ببطريركية الأقباط الارثوذكس بالقاهرة : ارقام ١ ، ٢ ، ٨ ، ١٩٦ ، ٣٥٠ لاهوت .

٤ ـ مخطوطات بمركز الميكروفيلم بدير مار مينا بمريوط : رقم ١٢٢ ، رقم ١٧٣ .

٥ ـ مخطوطات بالمتحف القبطى بالقاهرة : رقم ٢١٨ ، رقم ٣٤٧ لاهوت .

٦ ـ مخطوطات بمكتبة الآباء الفرنسيسكان بالقاهرة : أرقام ٨٩ ، ١١٢ ، ٢٤٧.

٧ ـ سنكسار الروم الكاثوليك للمطران ميخائيل عساف ـ المطبعة البولسية ـ حريصا ـ لبنان ـ ١٩٤٨ .

٨ ـ قـامـوس الكتـاب المقـدس ـ تأليف نخبـة من الأساتذة ذوى الاختـصـاص ومن اللاهوتيين ـ بيروت ـ ١٩٦٤ .

٩ ـ السنن القويم فى تفسير اسفار العهد القديم ـ مبنى على آراء افاضل اللاهوتيين ـ الجـزء الأول ـ تفسـير سفر التكوين ـ صدر عن مـجـمع الكنائس فى الشـرق الأدنى ـ بيروت ـ ١٩٧٣ .

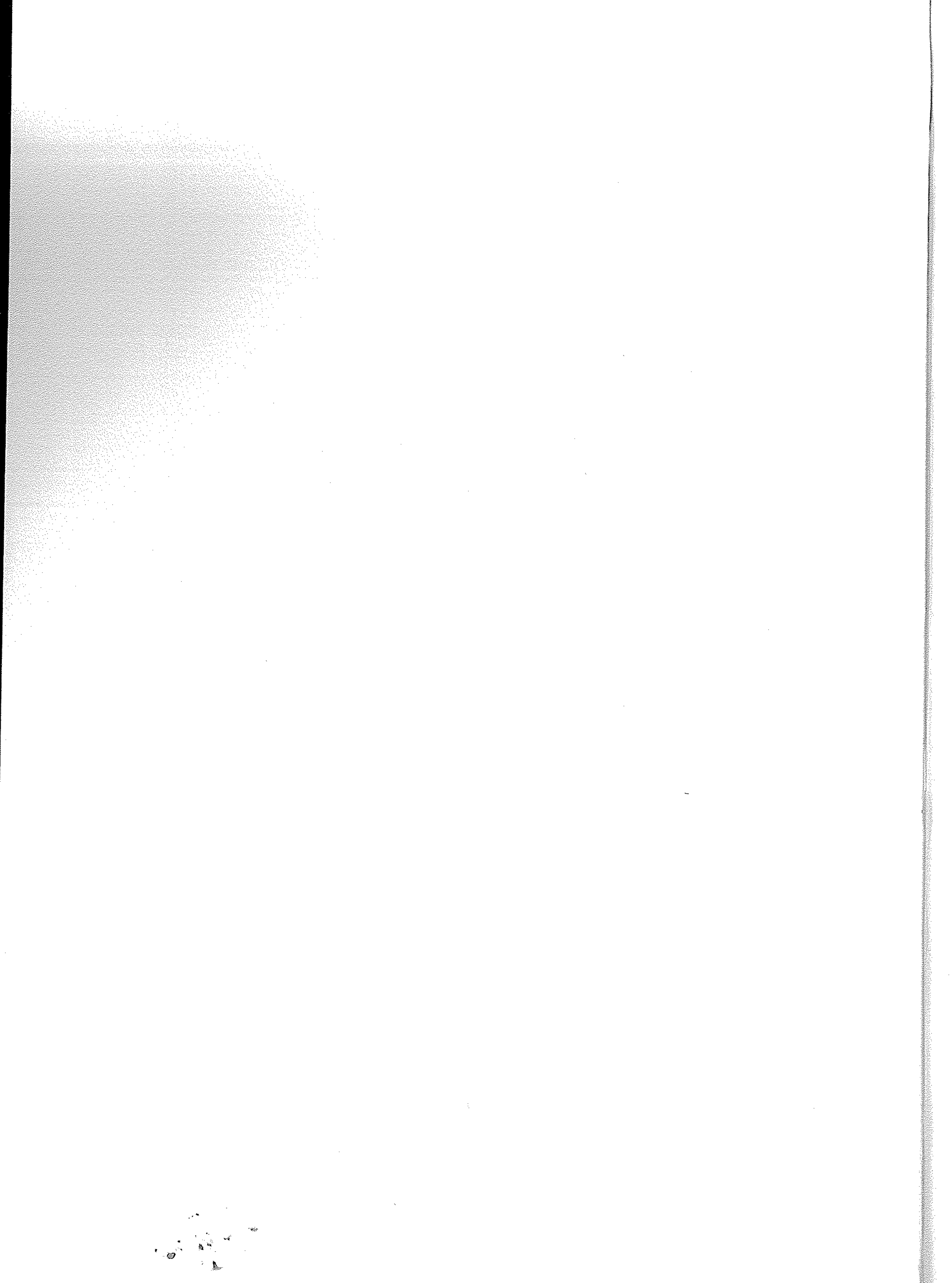
١٠ـ المنجد فى اللغة والاعلام ـ بيروت ـ ١٩٧٥ .

11- Patrology By Johannes Quasten, Volume III , Uthrecht Holland , 1953 .







هـذا الكتـاب

تنقـيح لمخطوطة بعنـــوان
تفـــسيـر ســفـر التكويـــن
للقـــديس يوحنا الذهبـــى
الفـــم ، حـــيث تجـــــد
شـرحـاً لهـــذا السفـــر
آيـــة آيـــة .

الثمن : ثمانية جنيهات

يطلب من مكتبة دير البرموس والمكتبات المسيحية